صحيح تاريخ الإسلام

الجزء الأول

تأليف

صقر بن نزهان بن عبيد الروقي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رقم الإيداع: ١٤٤٤/١١٣٨١

تاريخ: ١٤٤٤/١١/٢٩هـ

ردمك: ٧-٦٣٢٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

قال تعالى في سورة آل عمران: {يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلّا وأنْتُمْ مُسْلِمُونَ}.

وقال تعالى في سورة النساء: {يا أيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنها زَوْجَها وبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثِيرًا ونِساءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ والأرْحامَ إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}.

وقال تعالى في سورة الأحزاب: {يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أعْمالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ومَن يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزًا عَظِيمًا}.

أما بعد.

فإن هذا الكتاب فريد من نوعه، عزيز في فنّه، لا أظن صُنّف في بابه مثله، لا قبله ولا بعده، حيث انفرد بذكر أبواب وفصول لم يتطرق لها أحد من قبله، واحتوى على إشارات وتنبيهات لم يُشِر إليها ولم ينتبه لها من كَتَب في التاريخ والسِيَر، أو انتبهوا لها واعرضوا عنها اتباعا للأهواء، ورفضا للحقائق التي يرونها بأعينهم، تقليدا للمشايخ، أو خوفا من الملامة وكساد السِلعة، حيث كان تصنيف الكتب سِلعة عند كثير من الكتاب، يبتغون بها المكاسب، وينالون بها الجاه والشرف، فلم يكونوا ليتطرقوا لما قد يكون سببا في كساد سلعتهم وسقوط جاههم وشرفهم، فإن الدنيا عند أكثر الناس عزيزة.

وقد كان بإمكاني، أن أورد لكم كل ما قيل في هذا التاريخ، بما في ذلك الأساطير التي ألّفها القصاص، والذين اعتادوا مزج الحقيقة بالأساطير، ليتحصلوا بذلك على منفعة من المنافع، سواء كانت مالا أو جاها، وأعطي لكتابي المزيد من التشويق والإثارة، إلا أنني آثرت ألا أكتب لك

في هذا الكتاب سوى الحقيقة، حتى يتمكن القارئ أن يعيش تفاصيل الأحداث ويتصورها على حقيقتها التي كانت عليها.

والسبب الذي دفعني إلى ذلك، هو ما قام به القصاص والمؤرخون، من إفساد التاريخ الإسلامي، بتلك القصص الملفقة الموضوعة، التي حشو بها كتبهم، بل تمادى الحال إلى إيراد قصص تسيء إلى الأنبياء، وقد كان يكفي في بيان كذب تلك القصص، بطلان أسانيدها، ولكن ومع الأسف، ظل قصاص المسلمين ومؤرخوهم، يروون تلك القصص ويشيعونها بين الناس، وكأنها حقائق تاريخية، ليسوقوا بذلك لأنفسهم وكتبهم!

فرأيت أنه من الواجب، أن أقوم بتأليف كتابا يتفادى تلك الأخطاء، كتاب يروي قصة بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء وعلامات الساعة وأهوال يوم القيامة وصفات المخلوقات الغيبية، نقيّة من الشوائب والأكاذيب التي زادها القصّاص، كي يقرأ القارئ التاريخ الإسلامي بهيئته الحقيقيّة.

لذلك فقد قمت بجمع الآيات والأحاديث التي وردت في تاريخ بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء وعلامات الساعة واليوم الآخر والجنّة والنّار، ثم تنقية الأحاديث من كل حديث باطل، سواء كان سبب بطلانه علة في سنده أم علة في متنه، وقمت بتنقيتها من كل أسطورة مكذوبة، وبعض الأخبار يكون أصلها صحيح، ولكن القصاص يضيفون إليها شيئا من أساطيرهم، فأروي الخبر، وأُسقِط ما زاده أولئك القصّاص.

أما الأحاديث المرفوعة التي في أسانيدها ضعف، وما روي عن الصحابة والتابعين، مما لم يرفع إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأيضا ما رواه أهل الكتاب من اليهود والصابئة والنصارى، في كتبهم، فلم آخُذ منها إلا ما وافق الحق فقط، وذلك بعرضها على القصص الواردة في القرآن وما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأخبار، فإن رأيتُ الخبر الذي ورد عند الصحابة والتابعين وأهل الكتاب موافقا له، وكان فيه زيادة معلومة تقوم مقام المبيِّن للخبر الثابت بالكتاب والأحاديث الصحيحة، قبلتها ورويتها، وأمّا ما عدا ذلك، فقد تركتها.

لذلك كل ما أعرضت عن ذكره من أخبار أو أنساب أو أسماء، هو مما ترجح عندي بطلانه، وأنه ليس إلا من وضع القصاص، الذي لا ينبغي روايته إلا للتنبيه على بطلانه، وربما أعرض عن ذكر بعض الأحاديث الصحاح، لأني قد ذكرت الخبر الذي تضمنته في رواية أخرى، إلا أنني أهملت ذكر بعض الغزوات التي وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، لأني لم أهتد إلى زمن وقوعها، ولأنه ليس في ذكرها كبير فائدة.

ومن عجيب ما رأيت وأنا أبحث في هذا التاريخ، أني وجدت القرآن العظيم، يصحح لنا التاريخ الإسلامي، فيما يخص بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء، ويبين لنا ما زاده أهل الكتاب في كتبهم فيه، وما نقصوه، فهو ينفي ما زادوه ويكمل ما نقصوه، فجاء قصاص المسلمين ومؤرخوهم، فأعادوا هذا الغثاء إلى التاريخ الإسلامي!

كما أريد أن أنبه، إلى أن التاريخ كحلقات السلسلة، فقد تفقد بعض هذه الحلقات، فأحاول جاهدا أن أربط بين الحلقتين المنقطعتين، بناء على ما يغلب على ظني من سياق الأحداث.

إن أصبت في هذا الكتاب فالفضل لله وحده لا شريك له، وبتوفيقه لي وهدايته، وإن أخطأت في شيء منه، فمن نفسي والشيطان، واستغفر الله وأتوب إليه.

وأريد أن أنبه، إلى أن كتابي هذا، هو أصل كتابي: من البداية وحتى النهاية، فمن أراد قراءة تاريخ بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء وعلامات الساعة وأهوال يوم القيامة بأسلوب أدبي ممتع، فليطالع كتابي المذكور.

والله اسأل الهداية والتوفيق.

الرواة جمع راوٍ، وهو الذي يروي الأخبار التاريخية وما فيها من قصص وحكايات، ولذلك يسمى أيضاً: القاصّ، وجمعها: قُصَّاص، أو حكواتي، وجمعها: حكواتيَّه.

وقد كان للرواة دور بارز في العبث بتاريخ المسلمين، فيما يخص بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء وعلامات الساعة والقيامة الصغرى والقيامة الكبرى، وهذا له عدّة أسباب:

أولها: كون الراوي بشر، فقد ينسى أو يهم أو يخطئ، في إيراد خبر من الأخبار، فيرويه كما يظن أنه قد سمعه، في حين أن ما سمعه لم يكن كما رواه، وهذا الصنف من الرواة معذور؛ لأنه لم يتعمد الكذب أو التزوير.

وثانيها: الأهواء الشخصيّة، فقد يكون للراوي هوا معيّن، ويكون الخبر على غير ما يريد، فيقوم بصياغته بطريقة تجعل الخبر متفقاً مع هواه، فينتشر بين طوائف من الناس على غير حقيقته، أو يقوم بتأليف أخبار مكذوبة وينحلها إلى أشخاص أو قبيلة أو مدينة أو دولة، ليرفع من شأنهم أو ليضع منه، وفق ما يهواه هذا الراوي ويشتهيه.

وثالثها: الأطماع الماديّة، فقد كان كثيرٌ من الرواة يتكسّب بالرواية، فينفذ مخزونه من الأخبار الحقيقيّة الصحيحة، فيضطر إلى تأليف أخبار مكذوبة ونسج قصص وهميّة وينحلها شخصيّاتٍ حقيقية، كي لا يقف المدّ الماديّ عن الاستمرار في العطاء.

ولذلك فإن الناقد التاريخي الحصيف، لا يمكن أن يقبل أي خبر تاريخي إلّا بعد التثبت من صحته، وذلك من خلال مقارنته بغيره من الروايات، وعرضه على الحقائق التاريخية التي ثبتت بالأدلة اليقينية، وأن يهتم بسند الرواية التي نقلت له هذا الخبر، إضافة إلى التفطن إلى المدة الفاصلة بين راوي الخبر، وبين الخبر الذي يرويه، إذ لا يعقل أن تقبل رواية؛ سواء كانت هذه الرواية مكتوبة أو مسموعة، من شخص يفصل بينه وبين الحدث مئات السنين إن لم تكن ألوف السنين، دون أن يسند هذا الخبر إلى راو عاصر الحدث أو عاش في زمن قريب من الحدث، ثم نتساءل ونقول: من نقل له ذلك؟!

وبعيداً عن الكتب التي عرف عنها أنها كتب أسطورية، إلا أنه ومع الأسف أن أبرز كتب التاريخ الإسلامي فيها الكثير من الأخبار الموضوعة والأساطير المكذوبة، وذلك يرجع إلى غفلة أولئك المؤرخين، وتساهلهم في نقل الأخبار عن كل من هبّ ودبّ، دون تثبت أو تمحيص لتلك الروايات، حتى أصبحت الكتب التاريخية مجالاً رحباً للتندر والسخرية، وعدم ثقة القراء بما فيها من أخبار.

ونحن لا نلوم القراء حقيقة، بل نلوم من نقل تلك الأخبار، وخلط الحقائق التاريخية بالأخبار الموضوعة والأساطير المكذوبة، إذ كان يجب على أولئك المؤرخين أن لا ينقلوا خبراً إلا بعد التثبت منه.

وحتى نتفادى تلك الأكاذيب، يجب علينا أن نقتصر في تلقي معلوماتنا التاريخية الإسلامية، على القرآن العظيم، وما صحّ من الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين.

لذلك فنحن في حاجة ماسّة جدّاً إلى غربلة كتب التاريخ الإسلامي، وتصفيتها من الأخبار الموضوعة والأساطير المكذوبة، حتى يقرأ المسلم تاريخه الإسلامي، نقيّاً من هذه الشوائب التي أفسدت علينا تاريخنا وتراثنا، وهذا ما حاولت أن أقوم به في هذا الكتاب.

إن تاريخ بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء وعلامات الساعة وأهوال يوم القيامة وصفات المخلوقات الغيبيّة، لا يمكن معرفتها إلا من خلال القرآن الكريم، والأحاديث، سواء كانت مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو موقوفة على الصحابة، أو مقطوعة على التابعين، والتي تعرف اصطلاحا بالسُنّة.

فأما القرآن، فهو محفوظ بحفظ الله تعالى له، قال تعالى في سورة الحجر: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. ولذلك فهو نص قطعي الثبوت.

وأما السنة فلم يتكفل الله بحفظها، ففيها الصحيح والحسن والضعيف والضعيف جدا والشاذ والمنكر والموضوع، ولذلك حتى يتم قبولها واعتمادها كجزء من التاريخ الإسلامي يجب أن تتوفّر فيها أربعة شروط:

الأول: أن يكون إسنادها صحيحاً، بأن يكون جميع رجال سند الحديث ثقات.

والثاني: ألا يتعارض الحديث الصحيح، مع ما ورد في القرآن العظيم، فإن تعارض مع القرآن تعارضاً لا يمكننا معه الجمع بينهما، أسقط الحديث، وكان هذا كافياً في الحكم ببطلانه.

والثالث: ألا يتعارض الحديث الموقوف مع الحديث المرفوع، وألا يتعارض الحديث المقطوع مع الحديث الموقوف، فإن تعارض الموقوف مع المرفوع، قدِّم المرفوع وكان هذا كافيا في الحكم ببطلان الحديث الموقوف، وإن تعارض الحديث المقطوع مع الحديث الموقوف، قدِّم الموقوف، وكان هذا كافيا في الحكم ببطلان الحديث المقطوع.

والرابع: ألا يتعارض الحديث الصحيح مع الأحاديث الصحيحة الأخرى من مرتبته، فلا يتعارض المرفوع مع المرفوع، ولا الموقوف مع الموقوف، ولا المقطوع مع المقطوع، فإن تعارض مع أحاديث صحيحة أخرى من مرتبته، قُدِّم الأقوى إسنادا ومتنا، فإن تساوت في قوة الإسناد والمتن، نظر في الحديث الذي تشهد له الأحاديث الأخرى، وإن كانت الأحاديث الأخرى التي تشهد له ضعيفة الإسناد، فقدِّم وأبطل الأخر.

وأما الأحاديث الحسنة والضعيفة ضعفا يسيرا، فلا يؤخذ منها إلا ما شهد القرآن والأحاديث الصحاح على صحة متنه، فإن كان فيه شيء من زيادات الرواة، هذّب من تلك الزيادات.

فالأحاديث على قسمين: مقبولة وغير مقبولة.

فالمقبولة: هي الأحاديث الصحيحة التي توفرت فيها الشروط الأربعة المذكورة، والأحاديث الحسنة والضعيفة ضعفاً يسيراً، التي شهد القرآن والأحاديث الصحيحة المقبولة على صحة متنه.

وأما الغير مقبولة: فهي الأحاديث الصحيحة التي لم تتوفر فيها الشروط الأربعة المذكورة، والأحاديث الحسنة والضعيفة ضعفاً يسيراً، التي لم يشهد القرآن والأحاديث الصحيحة المقبولة على صحة متونها، إضافة إلى الأحاديث الضعيفة جدّاً والموضوعة.

وأما ما ورد في تواريخ أهل الكتاب، فإنه لا ينبغي رواية شيء مما ورد فيها، ما لم يكن له شاهد، يشهد بصحته من كتاب الله والأحاديث المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأما ما لم يكن له شاهد من الوحيين، فالأسلم أن يجتنب، وذلك لكثرة ما حشي في كتب أهل الكتاب من الأكاذيب والخرافات والأساطير.

ولا تعتبر الأحاديث المروية عن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين شاهداً على صحة ما ورد في كتب أهل الكتاب، لاحتمال أن يكون الصحابي أو التابعي، نقل روايته عمّن أسلم من أهل الكتاب، بل لا بد أن يكون هذا الشاهد إما من القرآن العظيم، أو من الأحاديث المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وكثير مما روي عن الصحابة والتابعين، في تاريخ بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء هو في الحقيقة مأخوذ من كتب أهل الكتاب، مع أن أكثره لا يصح إسناده إلى الصحابة والتابعين، فكأنه من وضع القصّاص، لذلك يجب الحذر عند نقل ما روي عن الصحابة والتابعين في هذا الباب.

ومن عجيب ما رأيت وأنا أبحث في هذا التاريخ، أني وجدت القرآن العظيم، يصحح لنا التاريخ الإسلامي، فيما يخص بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء، ويبين لنا ما زاده أهل

الكتاب في كتبهم وما نقصوه، فهو ينفي ما زادوه ويكمل ما نقصوه، فجاء قصّاص المسلمين، فأعادوا هذا الغثاء إلى التاريخ الإسلامي! وقولبوه في صورة روايات ينسبونها إلى الصحابة والتابعين، ليعطوها الصبغة الشرعية، وتنال ثقة المتلقين!

أحاديث جامعة في بدء الخلق

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض".

رواه البخاري.

وفي رواية: "ولم يكن شيء معه".

وفي رواية: "ولم يكن شيء قبله".

اختلفت الألفاظ واتّفقت المعاني، فكلّها تدل على أن الله كان متفرِّداً بالوجود، فلا موجود إلّا هو سبحانه.

ومثل هذا الاختلاف في الألفاظ يقع عادة من الرواة.

وهذا المتن، أصحّ متنٍ لحديث عمران.

أي: أن حديث عمران روي بمتون أخرى فيه تقديم وتأخير، ولكن هذا الحديث بهذا الترتيب، تشهد بصحته أحاديث أخرى، لذلك قلت: بأن هذا المتن لهذا الحديث هو أصحّ متن.

وعن وكيع بن حُدُس، عن عمه أبي رزين العقيلي، قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: "كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء". اهـ

رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، واللفظ له.

وقوله: "في عماء" العماء في لغة العرب هو السحاب الأبيض، وهذا يعني أن الله تعالى خلق السحاب الأبيض قبل خلق الماء والعرش، مع العلم أن السحاب الأبيض مخلوق من ماء، ولكن الله تعالى، خلق ذلك الماء وكثّفه مباشرة حتى صار سحاباً أبيض.

وربما كان الصواب في عمى بالألف المقصورة، والمراد بالعمى، بالألف المقصورة، أي: ليس معه شيء، وهذا يتّفق مع حديث عمران بن حصين، في أن الله تعالى كان ولا شيء غيره.

وقوله: "ما تحته .. وما فوقه" ما هنا ليست نافيه، بل اسم موصول، بمعنى: الذي، وتستخدم هنا للإشارة إلى صفة المشار إليه.

وأما الهواء، فهو الفراغ، وهو العدم المحض، الذي لا شيء فيه.

وقد يطلق اسم الهواء على الرياح؛ لأن الرياح تشبه الفراغ والعدم في بعض خصائصه.

فمعنى قوله: "ما تحته هواء وما فوقه هواء" أي: الذي تحت الله فراغ والذي فوق الله فراغ، وبمعنىً أخر: ليس تحت الله شيء، وليس فوق الله شيء.

وهذا مما يفيد أن اللفظة الصحيحة في حديث وكيع، هو العمى، بالقصر، وليس العماء بالهمز، لقوله: "ما تحته هواء" أي: ليس تحته شيء، لا سحاب أبيض، ولا غيره.

والله أعلم.

أوّل ما خلق الله عز وجل

عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله: إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرّت عيني، فأنبئني عن كل شيء. قال: "كل شيء خلق من ماء".

رواه أحمد بإسنادين كلاهما حسن، وبالتالي يمكن أن نقول عنه بأنه حديث صحيح.

وقوله: "كل شيء خلق من ماء" أي: أن الماء، هو أصل خِلْقَت جميع المخلوقات، سواء كانت جامدة أو سائلة أو رياحاً أو حتى أشعّة، وسواء خلقت هذه المخلوقات من الماء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

فالله تعالى خلق الماء، ثم يحوّل من الماء ما شاء من مواد، ثم يخلق من تلك المواد ما شاء من مخلوقات.

وقوله: "كل شيء" لا يوجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما يقيّدها أو يخصصها ببعض الأشياء دون بعض، فدلّ هذا، على أن مراده بقوله: "كل شيء" أي: جميع الأشياء، دون استثناء.

فالماء بهذا، هو أوّل المخلوقات على الإطلاق.

خلق العرش والكرسي

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء" .. الحديث.

رواه البخاري.

فأثبت في الخبر أن لله عرشاً، وأن عرش الله تعالى على الماء.

والماء، هو بحر يعوم في الفضاء، لا يعلم حدّه إلّا الله تعالى، ثابت في محلِّه من العدم.

والعرش في اللغة، له معانٍ، والمراد به هنا، هو سرير الملك، الذي يجلس عليه.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تخيِّروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يُفِيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور".

رواه البخاري.

وهذا المتن، أصحّ متن لحديث أبي سعيد الخدري.

فدلّ هذا الحديث أن للعرش قوائم.

وللعرش حملة يحملونه، وهؤلاء الحملة من الملائكة.

قال تعالى في سورة غافر: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صل الله عليه وسلم: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه، مسيرة سبعمائة عام" اهـ

رواه أبو داود.

وهو حديث حسن.

وفي رواية عند الطبراني في المعجم الأوسط: "مسيرة سبعين عاما".

وفي رواية أخرى عند الطبراني في المعجم الأوسط: "مسيرة أربعمائة عام". وهو وهم من الرواي.

وقد زاد الرواة في هذا الخبر زيادات منكرة، كقولهم بأن رِجْلا هذا الملك في الأرض السفلى، وكأن هناك أرضاً سفلى! وأن العرش على قرنه! وكقولهم أن هذا الملك على صورة ديك، إلى غير ذلك من الهذيان.

ولم يصحّ حديث في عدد حملة العرش، وكل الأخبار المروية في عددهم معلولة.

وأشهرها حديث حملة العرش الأربعة، ملك على صورة إنسان، وملك على صورة نسر، وملك على صورة أسد، وملك على صورة ثور، وهذا الحديث خرافة، منقول من كتب اليهود، وهي من وضع قصّاصهم.

فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله جميل يحب الجمال".

رواه مسلم.

وحملة العرش من أقرب الملائكة لله تعالى، فالمقطوع به أن يكونوا من أجمل الملائكة صورة وأبهاهم طلعة.

وليس هناك أقبح من مسوخ على صورة نسر وأسد وثور. أو على صورة ديك كما ورد في الحديث السابق، فكيف يكون أمثال هذه الصور هم حملة العرش!

وكذلك من الأحاديث الموضوعة في حملة العرش، حديث الأوعال الثمانية، وهذا متنه يكفي في الحكم بوضعه، ذلك أن الله تعالى نصّ على أن حملة العرش ملائكة، وهذا الحديث ينصّ على أن حملة العرش ثمانية أوعال، وشتّان بين الملائكة والأوعال!

وقد حاول البعض أن يجمع بين الأخبار، فزعم أنهم ملائكة في صورة أوعال، وهذا باطل، لأن الحديث نصّ على أنهم أوعال، والأوعال خلق له صفته وهيئته، والملائكة خلق لهم صفتهم وهيئتهم.

إلّا أن حملة العرش يوم القيامة، يكونون ثمانية.

قال تعالى في سورة الحاقة: {وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}.

لكن لا يدرى ما المراد بثمانية، هل هم ثمانية أفراد أم ثمانية صفوف.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: "ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل".

رواه الطبري.

وبما أنه عرش له قوائم، وله حملة يحملونه من الملائكة، فهو عرش أُعِدّ للجلوس عليه، مما يدلّ دلالة قطعيّة، أن الله تعالى لم يخلق العرش، إلّا ليصطفيه ليكون مكاناً له، ليجلس ويقعد عليه.

قال تعالى في سورة طه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.

والعرب لا تقول للشيء بأنه استوى على الشيء؛ إلّا إذا كان مستقرّاً عليه، متمكناً عليه، وهذا لا يكون إلّا بمماساة.

ومعنى استوى على العرش، أي: اعتدل في ارتفاعه وعلوّه وصعوده واستقراره على العرش، جالساً وقاعداً.

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي رحمه الله قال: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر بن الخطاب قال: "إذا جلس تبارك وتعالى على الكرسي سمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد".

وقال عبدالله: حدثني أبي، حدثنا وكيع بحديث إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر بن الخطاب قال: "إذا جلس الرب عز وجل على الكرسي". قال: فاقشعر رجل

سمّاه أبي عند وكيع، فغضب وكيع وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث لا ينكرونها".

رواه عبدالله بن حنبل في كتابه السنة.

قلت: وحديث عمر بن الخطاب حديث حسن.

وعمر بن الخطّاب صحابي جليل.

وعبدالله بن خليفة، تابعيٌّ أدرك النبي ولم يره.

وأبو إسحاق وسفيان بن عيينة وعبدالرحمن بن مهدي وإسرائيل ووكيع بن الجرّاح – شيخ الإمام الشافعي – وأحمد بن حنبل من أئمة السنة، وكبار علماء المسلمين.

وعن الشعبي، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.، فقال: جالس. اهـ

رواه الحكم بن معبد في كتابه الرؤية، ونقله عنه الإمام الدشتي في كتابه إثبات الحد لله عز وجل.

وإسناده صحيح، إلا أن الشعبي لم يسمع من عبدالله بن مسعود، ولكنه سمع كبار أصحابه، والشعبي ثقة ثبت.

وعبدالله بن مسعود صحابي جليل.

والشعبي تابعي جليل.

وعن عباد بن منصور، قال: سألت الحسن وعكرمة، عن قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}. قالا: جلس. اهـ

رواه الحكم بن معبد في كتابه الرؤية، ونقله عنه الإمام الدشتي في كتابه إثبات الحد لله عز وجل.

وإسناده حسن.

والحسن، هو الحسن البصري، وهو تابعي جليل.

وعكرمة، هو مولى عبدالله بن عباس، وعكرمة تابعي جليل.

وكلاهما من كبار علماء المسلمين.

فدلّت هذه الأخبار على أن الله تعالى، خلق العرش ليكون مكاناً له، ليجلس ويقعد عليه.

ثم خلق الله تعالى الكُرسيّ، وهو موضع قدمي الربّ عز وجل.

عن أبي موسى الأشعري، الصحابي، قال: "الكرسي موضع القدمين، وله أطيط كأطيط الرَحْل".

أخرجه الطبري في تفسيره بسند صحيح، موقوفاً.

وعن عبدالله بن عباس، الصحابي، قال: "الكرسيّ موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره".

رواه محمد بن خزيمة في كتاب التوحيد، بسند صحيح، موقوفاً.

فدلّت هذه الأحاديث، على أن الكرسي غير العرش، وأن الكرسي موضع قدمي الرب سبحانه وتعالى، وأن للعرش أطيط كأطيط الرحل من ثقل قدمي الرب سبحانه وتعالى.

ولكون الكرسي له علاقة بخلق العرش، فالمرجّح أنه خلق مع العرش أو بعده مباشرة.

وبعض الرواة وهموا فجعلوا العرش والكرسي شيئا واحدا، فيسمون العرش كُرسيّاً!

كما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: "إذا جلس تبارك وتعالى على الكرسي سُمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد".

فإذا عرضناه على ما رُوي عن أبي موسى الأشعري وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم جميعاً، تبيّن لنا أن العرش خلق مستقل، وأن الكرسيّ خلق مستقل، وأن الله إنما يجلس على العرش وليس على الكرسي، ويضع قدميه على الكرسيّ.

مما يدل على أن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقع فيه حذف تقديره: "إذا جلس تبارك وتعالى على العرش ووضع قدميه على الكرسي، سُمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد".

وقد يكون الرواة وهموا في متن حديث عمر بن الخطاب، وأن الصواب: "إذا جلس تبارك وتعالى على العرش سُمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد".

أي: أن الرواة استبدلوا كلمة العرش بكلمة الكرسيّ، ظنّاً منهم أن العرش والكرسيّ شيء واحد، ومعنىً واحد.

ولكن أيهما الذي يئط العرش أم الكرسي؟

في حديث عمر بن الخطاب إشارة إلى أن الاطيط صادر من الكرسيّ

بينما يصرّح أبو موسى الأشعري بأن الأطيط صادر من الكرسيّ.

ولكن إذا قلنا بأن الرواة وهموا في حديث عمر بن الخطاب، وأن الصواب هو قوله: "إذا جلس تبارك وتعالى على العرش سُمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد".

أي: استبدلنا كلمة الكرسيّ، بكلمة العرش، فهذا يعني أن الأطيط صادر من العرش وليس من الكرسي.

ويؤيد ذلك، ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته لهكذا – وقال بأصابعه مثل القبة عليه – وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب".

رواه أبو داود بسند ضعيف.

وفي رواية عند محمد بن خزيمة في صحيحه أنه قال: "إن الله على عرشه، وعرشه على سماواته، وسماواته على أرضه، هكذا – وقال بأصابعه مثل القبة – وإنه ليئط به مثل أطيط الرحل بالراكب".

رواه محمد بن خزيمة بسند ضعيف أيضاً.

وقوله بأن العرش على السماوات مثل القبّة، لا يراد به أنه ليس بينه وبينها شيء، ففوق السماوات الجنّة وفوق الجنّة الماء الأعلى، وفوق الماء العرش، ولكنه مثل أسفل العرش مثل القبّة، بحيث لو ولم يكن بينه وبين السماوات شيء، لكن على السماوات مثل القبّة ومحيط بها.

وهذا مثل ما ورد في الحديث الصحيح، من أن العرش فوق الفردوس الأعلى من الجنّة، ولا يراد به أنه سقف لها، بل يراد أنه ليس فوق الفردوس الأعلى سوى الماء الأعلى وفوق الماء العرش.

ففي هذا الحديث، تصريح بأن الأطيط صادر من العرش وليس من الكرسيّ.

فإن صحّ هذا، فهذا يعني، أن الرواة وهموا في حديث أبي موسى الأشعري، فجعلوا الأطيط صادر من الكرسيّ، الذي هو موضع القدمين!

وقد يكون الأطيط صادر من العرش والكرسيّ معاً.

والله أعلم.

خلق الدّار والفحص

عن أنس بن مالك قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل: "فاستأذن على الله في داره فيؤذن لي عليه" .. الحديث.

رواه البخاري.

والدار، هو ما أحاط بالشيء وأحدق به، سمّي بذلك لأنه يدور عليه، وهو يشتمل على معان عديدة، والمراد به هنا: ما دار حول المنزل.

فأثبت في الحديث أن لله تبارك وتعالى داراً تليق بجلاله وعظمته، وأن من أراد الدخول إليه في داره، وجب عليه أن يستأذن حتى يأذن الله له، والدار مثل الحُجُب، مما أذن الله له من مخلوقاته أن تحده وتحجبه.

وقد زعم البعض أن كلمة "الدار" شاذة، لم ترد إلا في رواية واحدة، وباقي الروايات لم يرد فيها ذكر الدار، يريد بذلك إنكار وجود الدار.

والجواب على ذلك: أن كلمة "الدار" وإن لم ترد سوى في رواية واحدة، إلا أن جميع الروايات تتفق على هذا المعنى وتصححه وتؤكده، فقد ورد في جميع الروايات باتفاق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فاستأن على ربي" هذا ما قاله رسول الله نصاً في جميع الروايات التي رويت عنه، فما الذي يحول بينه وبين الله، حتى أنه لا يستطيع الوصول إليه إلا بعد أن يُستأذن له عليه، إذا هناك حائل بينه وبينه ربه، وهي الدار.

فكل هذه المعطيات، تدل على صحّة لفظة "الدار" وإن لم يصرّح بها إلا في رواية واحدة، ولهذا أوردها أمير المؤمنين في الحديث البخاري واحتج بها.

وإذا كانت بيوت مؤمني الإنس والجن في الجنّة من ذهب وفضة، فكيف هي يا ترى دار الله تعالى، لا شك أنها أبهى وأعظم وأجمل.

ولا يوجد دليل شرعي، عمّا إذا كان لهذه الدار سقفٌ أم لا، فقد تكون دار الله بلا سقف، من باب كونه سبحانه وتعالى لا يعلوه شيء من خلقه، وهو الراجح.

وقوله: "فيؤذن لي عليه" يدل على أمرين:

الأول: أن لهذه الدار باب.

والثاني: أن لهذه الدار حجبة، يمنعون من أراد الدخول على الله تعالى، إلا بعد أن يأخذوا الإذن له من الله تعالى، وهؤلاء الحجبة من الملائكة.

والذي يظهر لي، أن خلق الدار تمّ بعد خلق العرش والكرسي، لأنه محيط بهما.

ثم خلق الله تعالى الفحص.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في بعض روايات حديث الشفاعة الطويل: "حتى يأتوني فأنطلق إلى الفحص فأخرُّ ساجداً". قال أبو هريرة: يا رسولَ الله وما الفحص؟ قال: "قُدّام العرش".

رواه الطبري في تفسيره، بسند فيه ضعف، ومعناه صحيح.

فأثبت في الخبر أن قدام العرش الذي هو على الماء موضع يقال له الفحص، يقف عليه النبي عند الشفاعة مما يدل على أن الفحص، موضع أعدّه الله تعالى لوقوف من يشاء أن يقابل الله تعالى ويحدّثه كفاحاً بلا واسطة، من ملائكته أو أنبيائه.

وبما أن الفحص جزء من الدار، فخلقه تمّ مع خلق الدار.

والله أعلم.

خلق الحجاب

عن أبي موسى الأشعري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن الله تعالى: "حجابه النور – وفي رواية: النار – لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه".

رواه مسلم.

والصواب، أن حجاب الله من نار، لقوله تعالى في سورة النمل: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وقوله: {مَن فِي النَّارِ}. يعني نفسه سبحانه وتعالى، لأن النار حجابه، وهو كان في وسط تلك النار، فبارك نفسه عز وجل.

عن عبدالله بن عباس، قال: "يعني نفسه؛ قال: كان نور ربّ العالمين في الشجرة".

وعن عبدالله بن عباس قال: "الله في النور، ونودي من النور".

وقوله: "ونودي من النور" أي: موسى، ناداه الله من النور.

وعن سعيد بن جُبير، قال: "ناداه وهو في النار".

وعن سعيد بن جبير قال: "الله".

أي: أن الله هو الذي كان في النار.

وعن الحسن البصري، قال: "هو النور".

وعن قتادة بن دعامة، قال: "نور الله بورك".

وعن محمد بن كعب، قال: "نور الرحمن، والنور هو الله".

وعن عكرمة قال: "كان الله في نوره".

وعن أبي صخر قال: "كان نور الله عز وجل، وهو الذي كان في ذلك النور، وإنما كان ذلك النور منه، وموسى حوله".

وقوله: {وَمَنْ حَوْلَهَا}. أي: موسى والملائكة.

عن عبدالله بن عباس قال: "يعني الملائكة".

وعن الحسن البصري وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة، مثله.

وعن محمد بن كعب قال: "موسى النبيّ والملائكة".

رواه الطبري وابن أبي حاتم.

فأثبت في الخبر أن لله تعالى حجاباً يحجب ذاته عن خلقه، وأن هذا الحجاب مخلوق من نار، وفيه دلالة أن من خلق الله من يحدّ الله تعالى بإذنه سبحانه.

ولا أدري متى خلق الله حجابه من النار، ومتى احتجب به، إلا أنه محتجب به الآن.

وعبدالله بن عباس صحابي جليل.

وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة بن دعامة ومحمد بن كعب، وعكرمة مولى عبدالله بن عباس، من التابعين، ومن أئمة الإسلام المرضيّين.

قال تعالى في سورة الأنعام: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}.

وقال تعالى في سورة يونس: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}.

وقال تعالى في سورة هود: {وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}.

وقال تعالى في سورة طه: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لّا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى}.

وقال تعالى في سورة الحج: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

وقال تعالى في سورة النمل: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}.

وقال تعالى في سورة سبأ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}.

وقال تعالى في سورة فاطر: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

وقال تعالى في سورة الحديد: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة".

رواه أحمد.

وفي رواية عند أحمد: "إلى قيام الساعة" والمعنى واحد، فإن الساعة هي القيامة.

وفي رواية أخرى عند الترمذي: "فجرى بما هو كائن إلى الأبد" وهو وهم من الراوي، والصواب أنه كتب المقادير إلى قيام الساعة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة". قال: "وعرشه على الماء".

رواه مسلم.

ومن خلال هذا الحديث يتبيّن لنا عدّة أمور:

أولها: أن خلق القلم والكتاب سابق لخلق السماوات والأرض.

وثانيها: أنه ليس بين خلق القلم والكتاب وخلق السماوات والأرض خلق، وبما أن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ذكرا أن الماء والعرش خلقا قبل خلق السماوات والأرض، فتبيّن بذلك، أن الماء والعرش خلقا قبل خلق القلم والكتاب.

وثالثها: إذا كان خلق الماء والعرش سابق لخلق القلم والكتاب، فهذا يعني، أن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عبادة: "أوّل ما خلق الله القلم" أي: أن القلم هو أوّل المخلوقات المرتبطة بالأكوان التي نعيش فيها، لأن القلم والكتاب إنما خلقا ليكتب بهما المقادير التي سوف تجري في هذه الأكوان.

والذي يظهر لي: أن الخمسين ألف سنة، هي المدة التي مكثها القلم في كتابة المقادير.

صفة القلم والكتاب

اعلم أنه لم يصحّ في صفة القلم والكتاب حديث، إلا أن أصح ما روي في صفتيهما ما روي عن عبدالملك بن جريج، عن عطاء، عن عبدالله بن عباس، قال: "إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمس مائة عام، من درة بيضاء، لها دفتان من ياقوت، والدفتان لوحان لله، كل يوم ثلاث مائة وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب".

رواه الطبري.

قوله: "مسيرة خمس مائة عام" يظهر أنه من تحريف الرواة، والصواب: "عرضه كما بين السماء والأرض". كما ورد في باقي الروايات.

وعن أبي حمزة الثمالي، عن سعيد بن جبير، عن عبدالله بن عباس: "إن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة، يخلق بكل نظرة، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء".

رواه الطبري.

وعن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن عبدالله بن عباس قال: "لوددت أن عندي رجلا من أهل القدر فوجأت رأسه". قالوا: ولم ذاك؟ قال: "لأن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة، يخلق بكل نظرة، ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء".

رواه الطبراني.

وعن عبدالملك بن سعيد بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن عبدالله بن عباس، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، لله فيه في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء".

قوله: "صفحاتها من ياقوتة حمراء" وهم من الراوي، والصواب: "دفتاه من ياقوتة حمراء". كما ورد في باقي الروايات.

ومن خلال هذه الأحاديث، سمّي الكتاب باللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق من بداية هذا الكون وحتى نهايته.

قال تعالى في سورة هود: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء}.

قوله: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء}. أي: أن خلق الماء والعرش متقدم على خلق السماوات والأرض.

وبدلالة حديث عبدالله بن عمر، فإن خلق السماوات والأرض، تم بعد خلق القلم والكتاب، بخمسين ألف سنة.

فيكون أول ما خلق الله تعالى الماء، ثم العماء، ثم العرش، ثم القلم والكتاب، ثم السماوات والأرض.

فما فرغ الله تعالى من كتابة المقادير، بدأ في خلق السماوات والأرض.

قال تعالى في سورة الأنبياء: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ}.

قوله: {رَتْقًا}. أي: شيئاً واحداً.

وقوله: {فَفَتَقْنَاهُمَا}. أي: فصلناهما، وأبنّا بعضها عن بعض.

وفي هذه الآية، دليل على أن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً، ثم فصل الله تبارك وتعالى بينها، وفي هذا دليل على أن خلق الأرض والسماء كان متزامناً، وفي وقت واحد.

وبما أن الماء هو أصل المخلوقات جميعاً، فهذا يدل على أن الأرض والسماوات خلقتا من ماء.

وقال تعالى في سورة فصّلت: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

وقوله: {خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}. أي: أن الله تعالى أتم خلق الأرض يابستها وبحارها في يومين.

وقوله: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ}. أي: أن الله تعالى خلق الجبال والمياه العذبة والنباتات والدواب، بعد الفراغ من خلق الأرض، وأنه أتمّ ذلك في يومين أخرين، فهذه أربعة أيّام سواء للسائلين.

وقد جاء خلق الجبال والأقوات مقروناً بواو المعيّة، فكأن الله تعالى بدأ خلق الجبال وإلقائها في الأرض، وخلق الأقوات في وقت واحد.

وقوله: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ}. أي: أن الله تعالى خلق السماء أوّل ما خلقها من دخان، وهو بخار الماء، أي: أنه لما خلق الماء الذي خلق منه السماء والأرض، أصعد من ذلك الماء دخان، فخلق منه السماء سقفاً واحداً، وذلك في اليوم الأول، الذي بدأ فيه خلق السماء والأرض، وفي الوقت ذاته، كان يخلق من جوف ذلك الماء التربة، فما زالت التربة تربو حتى طغى بعضها على ذلك الماء، المتبقي من الدخان، فجعل منه اليابسة وقيعان البحار، وما فضُل من ذلك الماء، جعل الله منه البحار.

ومعنى أستوى: أي: اعتدل في توجهه وقصده.

وقوله: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}. أي: أنه لم يسوي السماء سبع سماوات، إلّا بعد أن فرغ من خلق الأرض وجميع ما فيها، فجمع دخانها، وجعلها سميكة صُلبة، وفتقها إلى سبع سماوات.

وهي طباق، بعضها فوق بعض.

قال تعالى في سورة الملك: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ}.

قوله: {طِبَاقاً}. أي: بعضها فوق بعض.

وقوله: {مِنْ فُطُورٍ}. أي: من تشقق، ومعنى تفطّر، أي: تشقق.

وقال تعالى في سورة نوح: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}.

وقال تعالى في سورة النبأ: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}.

فبيّن في هذه الآيات، أن السماوات سبع طباق، أي: بعضها فوق بعض، وهذا دليل على أنها متباينة منفصلة.

وقوله تعالى في سورة نوح: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}. إنما هذا على المجاز، أي: أن الله تعالى خلق القمر والشمس في السماء الدنيا، أي: جهة السماء الدنيا، وليس معناه أنهما ملاصقان لها، ليكونا نوراً وسراجاً لأهل الأرض. فقال: في السماوات، بدل أن يقول: في السماء، لأنه إذا كان في إحداهن، وهي السماء الدنيا، فكأنما كان فيهن كلهنّ، لأن السماء كالأخوات، إذا فعلت إحداهن فعلاً، قلن الباقيات: كلّنا فعل ذلك. فالقمر والشمس يوم كانا في السماء الدنيا، فكأنما كانا في جميع السماوات. فقوله: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا}. أي: خلقه فيهن نوراً لأهل الأرض، وقوله: {وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}. أي: خلقه فيهن سراجاً لأهل الأرض.

وقوله: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا}. أي: أوحى في كل سماء ما خلقت من أجله.

وقوله: {وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا}. أي: أن خلق النجوم وهي الكواكب، تمّ بعد الفراغ من خلق السماوات السبع أو معها.

قال تعالى في سورة الأنعام: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

وقال تعالى في سورة الملك: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ}.

وقال تعالى في سورة الطلاق: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

قوله تعالى: {مِثْلَهُنَّ}. أي: مثلهن في العدد، فهي سبع أراضين، ولكن ما المراد بالسبع أراضين، هل هي قارات العالم السبع، أم المراد بذلك أن الأراضين طباق بعضها فوق بعض مثل السماوات؟

والجواب: أن الآيات تشير إلى أن الأرض واحدة، ومقسمة إلى سبع قطع، هي قارات العالم السبع، والدليل على ذلك، أن الله دائماً ما يشير إلى الأرض بصيغة المفرد، بينما يشير إلى السماوات بصيغة الجمع، فدلّ هذا على أن الأرض واحدة، ليس هناك أرض أخرى، وأنها مقسمة إلى سبع قطع، فهي مثل السماوات في العدد، وليست مثلها في التطابق، هذا هو ما ترجّح لدي.

وقال تعالى في سورة النازعات: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}.

قوله: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا}. أي: دليل على أن السماء خلقت قبل دحي الأرض، وإرساء الجبال، ولكنها خلقت سقفاً واحداً من دخان، كما ذكرت سابقاً.

وقوله: {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا}. فيه إشارة إلى خلق النهار والظلمة، والشمس والقمر.

وقوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}. أي: أن خلق الشمس والقمر تمّ قبل دحي الأرض، لأن الله قال: {بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}. أي: بعد بناء السماء وخلق الشمس والقمر، وهذا يعني أن الشمس والقمر، خلقتا في اليومين الأولين، وبعد الفراغ من خلق الأرض يابستها وبحارها.

وقوله: {دَحَاهَا}. أي: ملئها، والدحي هو التوسعة والملء والتعبئة، والمراد به هنا هو الملء والتعبئة، وقد ملئها بالماء العذب والنباتات، قال تعالى: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}. وقوله

تعالى {أَخْرَجَ}. أي: أظهرها من الأرض، والمراد بمائها هنا، هو ماء الينابيع والأنهار، وأما مياه البحار، فهو مما فضل من الماء الأول، الذي خلقت منه التربة والسماء.

وقوله تعالى: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا}. تقدم أن خلق الجبال والأقوات، والأقوات هي المياه العذبة والنباتات، جاء مقروناً بواو العطف، وواو العطف لا تقتضي التعقيب والترتيب، لذلك وقع ذكر خلق الجبال في سورة فصّلت قبل خلق الأقوات، وجاء ذكر خلقها في سورة النازعات بعد خلق الأقوات، لذلك علمنا أن الواو هنا وفي سورة فصلت، هي واو المعيّة، أي: أنه بُدِءَ خلقها مع بعض، في وقت واحد.

قال تعالى في سورة النبأ: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}.

أي: أن الجبال إنما خلقت لتحافظ على توازن الأرض، فلا تميد بأهلها، أي: لا تضطرب. ومعنى تضطرب: أي: تتزلزل، وإذا تزلزلت لن يستقرّ عليها خلق.

وأما الرياح، فلم يذكر الله تعالى ولا رسوله متى خلقت، ولكن على الأرجح أنها خلقت قبل خلق النباتات، لأن النباتات لا تعيش إلا بما في التربة والماء والشمس والرياح من عناصر، وقد يكون خلقها تم أثناء تصاعد الدخان من الماء، فخلق من جزء من ذلك الدخان الرياح.

وقال تعالى في سورة ق: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ}.

قوله: {لُّغُوبٍ}. أي: تعب، فمعنى الآية، أن الله لم ينله تعب بسبب خلقه للسماوات والأرض، لكمال قوته سبحانه وتعالى.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}.

وفي هذه الآية، دليل على أن الله تبارك وتعالى أتمّ خلق السماوات والأرض في ستة أيّام، فالأيّام الستة، هي الأيّام التي خلق الله تعالى فيها السماوات والأرض فقط، وأما خلق الماء والعرش والقلم والكتاب والجنّة والنار والملائكة والجن والإنس، فخارج الأيام الستّة.

وحرف "ثم" يفيد التبعية مع التراخي، أي: أن الله تعالى لم يستوي على عرشه المجيد إلّا بعد أن أتم خلق السماوات والأرض.

ومعنى {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}. أي: اعتدل في علوه وصعوده واستقراره جالساً وقاعداً على العرش.

روى ابن أبي حاتم في تفسيره، والحاكم في مستدركه، عن عبدالله بن عباس أنه قال: "إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلْقَهُ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ فَقَالَ: الْقَدَرُ، فَجَرَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، قَالَ: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ فَارْتَفَعَ بُخَارُ الْمَاءِ فَفُتِقَتْ مِنْهُ السَّمَاوَاتُ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ فَبُسِطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِ، وَالْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِ النُّونِ فَاضْطَرَبَ النُّونُ فَمَادَتِ الْأَرْضُ، فَأُثْبِتَتْ بِالْجِبَالِ، فَإِنَّ الْجِبَالَ تَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ". اهـ

قال الحاكم: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ".

وهذا حديث صحيح موقوفاً، أي أن عبدالله بن عباس لم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وكما يظهر بجلاء، فإن هذا الحديث مكوّن من شقين.

شقٌّ أخذه عبدالله بن عباس عن الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قوله: "إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلْقَهُ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ فَقَالَ: الْقَدَرُ، فَجَرَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ".

وشِقٌّ أخذه عمّن أسلم من أهل الكتاب، فيما يروونه عن كتبهم السابقة، وهو قوله: " وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ فَارْتَفَعَ بُخَارُ الْمَاءِ فَفُتِقَتْ مِنْهُ السَّمَاوَاتُ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ فَبُسِطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِ، وَالْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِ النُّونِ فَاضْطَرَبَ النُّونُ فَمَادَتِ الْأَرْضُ، فَأُثْبِتَتْ بِالْجِبَالِ، فَإِنَّ الْجِبَالَ تَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ".

والدليل على ذلك، هو أن حديث: "إن أول شيء خلقه الله القلم" .. روي عن كبار الصحابة كعبادة بن الصامت وأبي هريرة وعبدالله بن عمر مرفوعاً وعبدالله بن مسعود موقوفاً بأسانيد صحيحه وحسنه وضعيفة، بدون الجزء الثاني، الذي رواه ابن عباس، ولم يرو ذلك الجزء سوى ابن عباس، فتبيّن بذلك أن ابن عباس هو من أضاف هذا الجزء من الخبر إلى الحديث.

وابن عباس ولا شك في ذلك نقله عمّن أسلم من أهل الكتاب، والظن أنه نقله عن كعب الأحبار، لأنه كان ينقل عنه بعض ما لديه، فقد روى أبو نعيم في حلية الأولياء نحو هذا الخبر عن كعب الأحبار فقال: " قال كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه، فقال له: أتدري ما على ظهرك يا لوِيثا — اسم الحوت – من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك، فهمّ لوِيثا أن يفعل ذلك فبعث الله دابة فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه، فعج الحوت إلى الله منها، فأذن لها الله فخرجت، قال كعب: فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همَّ بشيء من ذلك عادت كما كانت". اهـ

وفي هذا إشارة إلى أن ابن عباس إنما نقل هذا الخبر عن كعب الأحبار.

وهذا الخبر يغني متنه عن البحث في إسناده، لوضوح بطلانه.

فأول شاهد على بطلان هذا الخبر، هو قوله: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ فَارْتَفَعَ بُخَارُ الْمَاءِ فَفُتِقَتْ مِنْهُ السَّمَاوَاتُ"

وهذا كذب، لأنه جعل الماء الذي خلقت منه السماوات والأرض، هو الماء الذي عليه العرش! وهذا كذب، فالحضرة الإلهية المعظّمة، بمائها ودارها وعرشها، خلق مستقل عن السماوات والأرض، وهي فوق السماوات، ولا احتج في ذلك بحديث الأوعال، فهو حديث باطل ولا شك، ولكن هناك أحاديث صحيحة وحسنه وضعيفة تثبت بطلان هذا القول، منها حديث الشفاعة الكبرى، حيث ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، أنه يأتي حتى يستأذن على الله في داره، فيؤذن له عليه، فإذا رآه خر ساجداً .. إلى أخر الحديث.

فتبين أن السماوات والأرض ليست داخل الحضرة الإلهية، لأنه حسب هذه الزيادة المزعومة، فإن السماوات والأرض تحت العرش وفوق الماء، أي: أنها داخل دار الله تعالى! فكيف يستأذن النبي في الدخول على دار الله تعالى، وهو داخل داره حسب زعم هذا الحديث.

وقد ورد في حديث ضعيف أخر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن العرش فوق السماوات كالقبّة، ولكنه كما أسلفت حديث ضعيف، والأحاديث الصحيحة لا تعارض بالأحاديث

الضعيفة، وإن تعددت أسانيدها، لأن الحديث الضعيف قد يلهم أهل الأوهام والوضاعين أيضاً أن يضعوا خبراً آخراً ملفّق يحوي معنى الحديث الأول الضعيف.

فتبيّن بهذا أن الحضرة الإلهية بمائها ودارها وعرشها خلق مستقل وكيان منفصل لا علاقة لها بالماء الذي خلقت منه السماوات والأرض.

وثاني شاهد على بطلان ما روي عن ابن عباس، هو قوله: " فَاضْطَرَبَ النُّونُ فَمَادَتِ الْأَرْضُ، فَأُثْبِتَتْ بِالْجِبَالِ، فَإِنَّ الْجِبَالَ تَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ".

وهذا كلام بيّن البطلان، لأنه لو كان الحوت هو سبب مَيَدَان الأرض، لكان الواجب أن يُثَبَّت الحوت، لا أن تثبّت الأرض، لأن الحوت سوف يضطرب، فتميد الأرض وتميد الجبال معها، فكان الواجب أن يثبّت الحوت لا الأرض!

وليست هذه الرواية هي الوحيدة هناك الكثير من الروايات المكذوبة في هذا الشأن، منها ما هو منقول عمّن أسلم من أهل الكتاب، فيما ينقلونه عن كتبهم السابقة، التي حشيت بأكاذيب قصاصهم، ومنه ما ألّفه القصاص في الإسلام، فتلقفه الرواة ورووه، كمن يقول بأن الأرض على ظهر صخرة والصخرة على ظهر حوت، أو يقول: بأن الأرض بين قرني ثور، ثم يضعون سنداً إلى أحد الصحابة أو التابعين، ويفسّرون به آية هنا وآية هناك.

وهذا يدل على أن بعض القصاص كانوا يتعمدون الكذب في تأويل القرآن، إما عبثاً منهم وتلاعباً، أو ليدّعوا أن عندهم علم لا يوجد عند غيرهم فينالوا بذلك حظا من حظوظ الدنيا.

لذلك فالأحاديث المرفوعة والموقوفة والمقطوعة، إن لم يكن لدى الشخص القدرة على تصفيتها ونخلها والتمييز بين ما يقبل منها وما لا يقبل، فسوف يقع في شرّ عظيم، فالأديان السابقة إنما تحرّفت وكثرت فيها الأساطير والخرافات بسبب القصّاص، وبسبب رواية الرواة لها بغير تمحيص ولا تدقيق!

ومن عجيب ما رأيت أني وجدت القرآن عندما يذكر بدء الخلق ونشأة الكون وسير الأنبياء، تجده نقيّاً خالياً من الأخبار الغريبة، والقصص العجيبة، حتى أنه يهذب لنا التاريخ، ويبيّن لنا ما

زاده أهل الكتاب وما نقصوه، فينفي ما زادوه ويكمل ما نقصوه، فجاء الرواة فأعادوا هذا الغثاء في التاريخ الإسلامي، وهذه غفلة عجيبة!

لذلك أنا دائماً أنصح بأن من لم يكن لديه القدرة على التمييز بين الأخبار أن يكتفي بكتاب الله عز وجل والأحاديث الصحيحة المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويقف عند هذا الحد، فإن هذا الحد أمان للعبد بإذن الله تعالى.

والملائكة، جمع، ومفرده: مَلَاك. ومعنى الملاك في لغة العرب، أي: المنظّم، والمقوّم. كما تقول العرب: ملاك الأمر. أي: نظامه وقِوامه. وملاك، هو من مترادفات، اسم، أو وصف: مَلَك. فالملاك والملك معنيان مترادفان.

ولأن الله تعالى أوكل إلى ملائكته تقويم خلقه على نظامه الذي أمر به، سمّاهم ملائكة، فقد خلق الله الملائكة لعبادته وخدمته، مع كمال غناه عنهم سبحانه وتعالى، فهو سبحانه العزيز الجبّار المتكبر، فلا يباشر الأعمال بنفسه إلا ما شاء منها، ويكل ذلك إلى من شاء من خلقه.

وقد اختص الله ملائكته بهذا الاسم، مع اشتراك غيرهم معهم في الوصف الذي يدل عليه اسمهم.

كما سمّاهم الله تعالى بالملأ الأعلى.

قال تعالى في سورة الصافات: {لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ}.

وقال تعالى في سورة ص: {مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ}.

وسمّاهم بذلك؛ لأنهم ملئوا الأكوان العلوية، وهي السماوات السبع، والحضرة الإلهيّة المعظّمة.

وأشرف الملائكة ثلاثة هم: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل.

قال تعالى في سورة البقرة: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيء كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: "اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالِمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبداك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما أُختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"

رواه مسلم.

ومن أشراف الملائكة أيضاً: مالك رئيس خزنة النار.

قال تعالى في سورة الزخرف: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}.

وعن سمرة رضي الله عنه، قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد قصها، فيقول: ما شاء الله فسألنا يوما فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا، قال: لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي" .. إلى أن قال: "فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء، فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها" .. إلى أن قال: "والذي يوقد النار مالك خازن النار .. وأنا جبريل، وهذا ميكائيل".

ومن أشراف الملائكة أيضاً: الملك الموكّل بالنفخ في الصور.

قال اللهُ تعالى في سورة الزمر: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعدا ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دريان".

رواه أبو الشيخ في العظمة، بسند حسن.

ولا يدرى متى خُلِق الملائكة، وهل خُلِقوا دفعة واحدة أم خُلِق كل طائفة مع السبب الداعي لوجودهم، إلا أن ما نقطع به، أن جزءً من الملائكة على الأقل، خُلِق قبل خَلْق الجنة والنار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها" .. الحديث

رواه الترمذي.

فدل هذا الخبر، على أن جبريل عليه السلام، وطائفة من الملائكة، خلقوا قبل خلق الجنة والنار.

وأما صفات الملائكة الخَلْقيّة.

فالملائكة خلقوا من نور.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم".

رواه مسلم.

وقوله: "مما وصف لكم" أي: من طين.

وهذا فيه دلالة على أن خلق النور، متقدم على خلق الملائكة.

والملائكة كائنات ذوات أجنحة، منهم من له جناحان عن يمينه وجناحان عن شماله، ومنهم من له ثلاثة يمينه وثلاثة عن شماله، ومنهم من له أربعة عن يمينه وأربعة عن شماله.

قال تعالى في سورة فاطر: {جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير}.

ومنهم من له أكثر من ذلك.

عن عبدالله بن مسعود، في تفسير قوله تعالى في سورة النجم: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}. قال: رأى جبريل له ستمائة جناح.

رواه البخاري.

والملائكة ليسوا ذكوراً ولا إناثا، بل هم جنس واحد، إلا أنهم في الخلقة أقرب إلى الذكور، إلا أنهم أقوى وأكمل.

وقد أنكر الله تعالى على من وصف الملائكة بأنهم إناث.

فقال تعالى في سورة الإسراء: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا}.

وقال تعالى في سورة الصافات: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.

وقال تعالى في سورة الزخرف: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}.

فدل هذا على أنه لا إناث فيهم، ولو كان فيهم إناث، ما استنكر الله على من قال بذلك.

وبما أنهم جنس واحد، فهم لا يتوالدون، كما أنهم لا يموتون، فليسوا في حاجة إلى التناسل، الذي جعله الله سبباً لبقاء الأنواع التي قدّر عليها الموت.

ولا يدرى كيف يعيش الملائكة في السماوات، وهل لهم منازل يأوون إليها، أم أنهم لا منازل لهم، وهل هم ينامون أم لا.

وزعمت طائفة أن الملائكة لا تنام، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى في سورة الأنبياء: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ}. فقالوا: بما أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ففي هذه إشارة إلى أن الملائكة لا تنام.

وهذه الآية، ليس فيها تصريح بأن الملائكة لا تنام، فالعرب تقول: فلان يعمل اليل والنهار لا يفتر. ولا يريدون بذلك أنه لا ينام مطلقاً، بل يشيرون بذلك إلى كثرة انشغاله بعمله، وقضاء أكثر وقته فيه.

ومما يدل على ذلك أن الملائكة يجلس بعضهم إلى بعض، ويتحدث بعضهم إلى بعض، وربما اختصموا – أي: تناقشوا واختلفوا – في بعض المسائل.

عن معاذ بن جبل، أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الله في منامه، وأن الله تعالى سأله: "فيما يختصم الملأ الأعلى" .. الحديث.

رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

فدلّ هذا على أنه ليس كل وقتهم تسبيح.

ولا يُدرى هل الملائكة يأكلون ويشربون ويتنفسون أم لا؟

ورد في حديث المعراج الطويل، الذي رواه البخاري ومسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم، رأى سدرة المنتهى، وهي الشجرة العظيمة، التي فوق السماء السابعة، ووصف نَبْقَها، بأنها كقلال هَجَر.

فلعل هذا النَبَق طعام لملائكة السماء السابعة.

وهذا ليس دليلاً لإثبات أن الملائكة تتناول الطعام، لأن هذا النبق قد يكون خلقه الله تعالى لعلّة أخرى، قد يكون خلق ليعطي السدرة مظهراً أكثر روعة وجمالاً، أو لغيرها من الأسباب التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

وزعمت طائفة أن الملائكة لا تأكل الطعام، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى في سورة هود: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}.

وهذه الآية، ليس فيها دليل على أن الملائكة لا تأكل الطعام، فقد لا يكون اللحم من طعامهم، أو أنهم لم يجسروا على الأكل من الطعام لأن الله تعالى لم يأذن لهم بذلك، وقد يكونون حقاً لا يأكلون الطعام.

إلّا أنه ثبت أنهم يشمون الروائح، فيستطيبون طيّبها، ويستقبحون قبيحها.

عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أكل من هاتين الشجرتين المنتنتين البصل والكراث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم".

رواه البخاري ومسلم.

ولكن لا أحد يدري كيف يشمون الروائح، وهل لهم رئات مثل البشر أم لا.

وأما لباسهم، فما من شكٍّ أن لهم لباسا، ولكن لم يرد في القرآن العظيم، ولا فيما صحّ من الأحاديث ما يفيدنا عما إذا كان هذا اللباس جزء من أجسادهم، أي يُخلق معهم، أو أن الله يخلق لهم ألبسة مستقلة، وهم يرتدونها، وسواء كان هذا أو ذاك، فالملائكة بألبستهم مخلوقات ذوات جمال فائق، وحسنٍ رائق.

فقد أقر الله تبارك وتعالى صواحب يوسف، عندما ضربن المثل بجمال الملائكة، وشدّة حسنهم، في قوله تعالى في سورة يوسف: {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ}.

وأقبحهم، وليس فيهم قبيح، هم خزنة النار.

عن سمرة بن جندب، أن النبي صلى الله عليه وسلم، رأى مالك خازن النار، في منامه، في صورة رجل كريه المرآة، كأكره ما أنت راء من الرجال.

رواه البخاري.

وفي هذا دليل على أن صور الملائكة الظاهريّة، تشبه صور بني آدم.

وللملائكة القدرة على التشكل في صور شتى متى شاء الله تعالى، فقد ورد في سِيَر الأنبياء أن الملائكة جاءوا إبراهيم ولوط في صورة رجال من الإنس، كما ورد أن جبريل تشكل مرة في صورة جمل، وهو فحل الإبل، وتشكل مرة في صورة دحية الكلبي أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن جبريل كان يأتي النبي أحياناً في صورة رجل، فيكلمه، وهذا ليس للملائكة بعادة، وإنما الله عز وجل، هو من يأمر طائفة من الملائكة بالتشكل، للضرورة، عند نزولهم إلى الأرض.

وأما صفاتهم الخُلُقيَة.

فقال تعالى في سورة النحل: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ}.

وقال تعالى في سورة الأنبياء أيضاً: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}.

وقال تعالى في سورة التحريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}.

فدلت هذه الآيات، على أن الملائكة، مخلوقات جبلت على الحق والخير والطاعة، فقط.

ونأتي هنا إلى ذكر طوائف الملائكة وما ورد فيهم من الآيات والأحاديث.

فمنهم الملائكة حملة العرش ومن حوله

قال اللهُ تعالى في سورة غافر: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}.

قوله: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}. يدل على أن هناك طائفة من الملائكة يحملون العرش، وطائفة أخرى مقيمون حول العرش، عملهم، يسبّحون الله تعالى ويحمدونه ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا من الجن والإنس.

وقال الله تعالى في سورة الحاقة: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام".

رواه أبو داود بسند حسن.

وفي رواية عند الطبراني في المعجم الأوسط: "سبعين" بدل "سبعمائة". وهو الأرجح، فقد علم أن من طبيعة الرواة، المبالغة في الأوصاف والأعداد، يقع هذا من بعضهم سهواً، ويقع من بعضهم عمداً، وهذا الحديث على كل حال حسن الإسناد، لذلك فهناك احتمال كبير، أن يكون موضوعاً، وضعه القصّاص للتهويل.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " .. ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه، إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا» ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال

ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا.. ".

رواه مسلم.

ولا يدرى كم حملة العرش اليوم، وجميع الأحاديث الواردة في عددهم اليوم ضعيفة، وبعضها مأخوذ من أساطير أهل الكتاب، ووهموا في رفعه.

كمن يقول بأن حملة العرش أربعة، ملك على صورة إنسان وملك على صورة ثور وملك على صورة نسر وملك على صورة أسد، وكمن يقول بأن حملة العرش اليوم ثمانية ملائكة على صورة أوعال.

وقد علم بطلان هذه الأحاديث، مما عرف عن الملائكة من حسن الصورة وجمال الهيئة، وليس هناك أقبح من مسوخ على صور ثور أو نسر أو أسد أو وعل! وحملة العرش أولى الملائكة بحسن الصورة وجمال الهيئة، لشدّة قربهم من المولى عزّ وجل.

فكل هذه على الأرجح، ليست سوى من موضوعات القصّاص، ووضعوا لها أسانيد لتروج بين الناس، فتلقفها رواة الحديث ووضعوها في كتبهم، وحسبك أن جميع أسانيدها ضعيفة، ومتونها تدل على أنها موضوعة.

ولكن يوم القيامة يكونون ثمانية، كما قال تعالى في سورة الحاقة: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}.

وثمانية جاءت هنا مبهمة، فلا يدرى أهم ثمانية أفراد أم ثمانية صفوف.

والراجح أنهم ثمانية صفوف.

لما صحّ عن عبدالله بن عباس، الصحابي، أنه قال: "ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله".

رواه عبدالله بن حنبل في السنة، والطبري في تفسيره، بأسانيد حسنه وضعيفة، يقويّ بعضها بعضاً، إلى درجة الصحّة.

ومنهم الملائكة الحجبة

عن أنس بن مالك، في حديث الشفاعة الطويل، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدا".

رواه البخاري.

وقوله: "فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه" دليل على أن لهذه الدار حجبة، يحجبون الله تعالى، ولا يسمحون لأحد من ملائكة الله أو أنبياءه بالولوج على الله تعالى في داره، إلّا بعد أن يأخذوا هم الإذن من الله تعالى له بالدخول، فإن أذن الله تعالى له أدخلوه، وإن لم يأذن له صرفوه.

ومنهم الملائكة خزّان الجنّة

قال اللهُ تعالى في سورة الزمر: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك".

رواه مسلم.

وعن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب: هلم .. ".

رواه البخاري ومسلم.

الخزنة جمع خازن، وهو المؤتمن على الشيء.

فالخزنة، هم طائفة من الملائكة، موكلون بالجنّة.

وأما ما روي عن عبدالله بن عباس من أن الجنّ، هم خزنة الجنّة، وأنهم من الملائكة، وأن إبليس كان رئيسهم، فهذا كله من الموضوعات، التي وضعها القصّاص، فخزنة الجنّة، طائفة من الملائكة، مخلوقون من نور، كسائر الملائكة، وليس للجن علاقة بهم، لا من قريب ولا من بعيد.

ومنهم الملائكة خزنة النار

قال اللهُ تعالى في سورة الزمر: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَرًا حتَّى إِذَا جَاؤُوها فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}.

وقال اللهُ تعالى في سورة غافر: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ}.

وقال اللهُ تعالى في سورة الملك: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}.

وعن عبدالله بن عباس، قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فزبره ، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهْ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}. [العلق] فقال ابن عباس: فوالله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله".

وفي رواية: {أخذته زبانية العذاب من ساعته}.

والزبانية، جماع زبن وزابن، ومعناه: الدفع، وسمي بذلك بعض الملائكة؛ لدفعهم أهل النار إليها.

وقال تعالى في سورة المدّثر: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}.

أي عليها تسعة عشر قائداً، ومالك رئيسهم كلهم.

ومنهم ملائكة الموت

وهم نوع من الملائكة، مكلّفون بقبض أرواح الموتى.

قال تعالى في سورة الأعراف: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُم رُسُلُنَا يَتَوَفَّونَهُم}.

قال اللهُ تعالى في سورة الأنعام: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إلى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}.

وقال اللهُ تعالى في سورة السجدة: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}.

عن عبدالله بن عباس، الصحابي قال: "إن لملك الموت أعوانًا من الملائكة".

رواه الطبري.

عن قَتادة بن دعامة، التابعي قال: "ملك الموت يتوفاكم، ومعه أعوان من الملائكة".

رواه الطبري.

وعن قتادة أيضاً قال: "إن ملك الموت له رسل، فيرسل ويرفع ذلك إليه".

رواه الطبري.

وعن إبراهيم النخعي، التابعي قال: "الرسل توفَّى الأنفس، ويذهب بها ملك الموت".

رواه الطبري وابن أبي حاتم.

وعن أبي جعفر الرازي قال: سألت الربيع بن أنس — التابعي – عن ملك الموت، أهو وحده الذي يقبض الأرواح؟ قال: "هو الذي يلي أمرَ الأرواح، وله أعوان على ذلك، ألا تسمع إلى قول الله تعالى ذكره: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ}.، وقال: {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ}.، غير أن ملك الموت هو الذي يسير كل خطوة منه من المشرق إلى المغرب". قلت: أين تكون أرواح المؤمنين؟ قال: "عند السدرة في الجنة".

رواه الطبري.

وقوله: "عند السدرة في الجنة" فيه نظر، لأنه ورد في الروايات أن السدرة فوق السماء السابعة، قريب من الجنة، وليست في الجنة.

وعن البراء بن عازب، في حديث قبض الأرواح وفتنتها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان" .. إلى أن قال: " وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب" .. الحديث.

رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

وعلى هذا، فقول إبراهيم النخعي: "يذهب بها ملك الموت" فيه نظر، والصواب: أن ملك الموت الرئيس، له قوّاد، وكل قائد له أعوان، وهم قسمان: قسم موكل بقبض أرواح المؤمنين، ووجوهم كالشمس وضاءة وجمالاً، وقسم موكل بقبض أرواح الكافرين، سود الوجوه. فيأخذ ملك الموت الرئيس أسماء الموتى في اليوم الذي يُتوفّون فيه، من الله تعالى مباشرة، إما مشافهة أو مناولة في ورقة أو ما شابه، فيجمع ملك الموت الرئيس قواده ويناول كل واحدٍ منهم اسماً، فينطلق بأعوانه حتى يأتي إلى الشخص المراد قبض روحه، فيقبض روحه، ويناولها أعوانه، فيصعد بها أعوانه إلى السماء.

ومنهم الملائكة فتانوا القبور

وهم نوع يقال لهم: المنكر والنكير.

إذا مات الرجل جاءه ملك من المنكر وملك من النكير، ففتناه في قبره.

عن أنس بن مالك، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا وُضِع العبد في قبره، وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع خفق نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه في قبره" .. الحديث.

رواه أبو بكر بن أبي عاصم

وعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قبر أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير" .. الحديث.

رواه الترمذي والحارث وأبو بكر بن أبي عاصم..

وعن أبي سعيد الخدري، قال: كنا مع نبينا صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال: "يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دفن، فتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق، فأقعده" .. الحديث.

رواه أحمد وأبو بكر بن أبي عاصم.

وقوله: "جاء ملك في يده مطراق فأقعده" أي: أن أحد الملكين، معه مطراق.

وعن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل المؤمن قبره، فأتاه ملكان، فانتهراه، فيقوم يهب كما يهب النائم" .. الحديث.

رواه أحمد وأبو بكر بن أبي عاصم.

والدليل على أن المنكر والنكير نوع، هو أنه قد يفتن الفئام من الناس في قبورهم في نفس الوقت، وفي أراضٍ متباعدة، فمحال أن يقال بأن المنكر والنكير شخصان منفردان، بل كل ميت يفتن في قبره، يأتيه ملك من المنكر وملك من النكير، فيفتنانه.

ومنهم الملائكة الحفظة

قال اللهُ تعالى في سورة الزخرف: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}.

وقال تعالى في سورة الانفطار: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرا".

رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية، قال: "قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة -وهو أبصر به- فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة؛ إنما تركها من جراي".

رواه مسلم.

قوله: "من جِراي" بكسر الجيم المعجمة، مخفّفة من جَرّائي، أي: بسببي ومن أجلي.

ومنهم الملائكة المعقبات

قال تعالى في سورة الرعد: {لَهُ مُعَقِّبَات مِّن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ يَحفَظُونَهُ مِن أَمرِ اللَّهِ}.

وقد اختلف في تأويل هذه الآية على قولين:

الأول: أن المراد بالمعقبات هم الكرام الكاتبين.

عن عبدالله بن عباس الصحابي قال: "هم الملائكة، تُعقِّب بالليل والنهار تكتب عمل ابن آدم".

رواه ابن أبي حاتم.

وعن عطاء بن رباح، التابعي قال: هم الكرام الكاتبون، حفظة من الله على ابن آدم، أُمِروا بذلك".

رواه ابن أبي حاتم.

والثاني: أن المراد بالمعقبات ملائكة خلقهم الله تعالى لحفظ بني آدم من أن ينالهم سوء حتى إذا جاء أمر الله خلّو بينه وبينها.

عن عبدالله بن عباس قال: "فالمعقبات هن من أمر الله، وهي الملائكة".

رواه الطبري.

وعن عبدالله بن عباس أيضاً قال: "ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدره خَلَّوا عنه".

رواه الطبري وابن أبي حاتم.

وعن مجاهد بن جبر، التابعي قال: "مع كل إنسان حَفَظَةٌ يحفظونه من أمر الله".

رواه الطبري.

ومعنى قول عبدالله بن عباس ومجاهد هنا، أي: أن الله قيّض لكل آدمي، حفظة من الملائكة، يحفظونه من كل شر، فيحفظونه من شر الإنس والجن والدواب وغير ذلك، حتى إذا جاء قدر الله الذي قدّر أن يقع به، خلّوا بينه وبينه.

قلت: والآيات التي قبل هذه الآية، تفيد أن المراد بالمعقبات، هم الملائكة الكرام الكاتبين، الذين يحفظون أعمال العباد، والآيات التي بعدها، تفيد أن المعقبات، ملائكة يحفظون العباد من الشرور التي تحيق بهم.

وقوله تعالى: {مِن أَمرِ اللَّهِ}. أي: بإذن الله.

ومنهم ملائكة الأرحام

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكا، يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثى، شقي أم سعيد، فما الرزق والأجل، فيكتب في بطن أمه".

رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك،

ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد".

رواه البخاري ومسلم.

وملك الأرحام اسم نوع، وليس اسم شخص، ذلك أنه في اللحظة الواحدة، وفي أماكن متباعدة، قد تبلغ آلاف الأجنة أربعة أشهر، ومحال أن يقال أن الذي ينفخ فيها الروح ويكتب جنسها وقدرها ملك واحد، فدلّ هذا على أن ملك الأرحام اسم نوع، وليس اسم شخص.

والذي يظهر لي أن ملائكة الأرحام مثل ملائكة الموت، لهم رئيس، يقبض أسماء الأجنة من الله تعالى مشافهة أو مناولة في ورقة أو ما شابه، ثم يقوم ملك الأرحام الرئيس، بتوزيع الأسماء على أعوانه، لأنه ليس له قواد كملك الموت، بل كلهم أعوان، وكل ملك ينطلق إلى من أمر به من الأرحام والأجنّة.

ومنهم الملائكة الموكلون بالجبال

عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: "لقد لقيت من قومك! وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا".

رواه البخاري ومسلم.

وفي هذا الحديث دليل على أن للجبال ملك يرعاها، ويقوم وينظم شؤونها، وهذا الملك الذي تكلَّم مع النبي صلى الله عليه وسلم، هو الرئيس، وله أعوان.

وهذا يفيدنا أن لكل أمة في الأرض والسماء ملائكة موكلون بها بأمر الله تعالى، ليس لهم من الأمر شيء، سوى أنهم يطيعون الله فيما يأمرهم به من الأوامر، فإذا جاءهم الأمر من الله قاموا به على الوجه الذي يرضي الله تعالى، بمشيئة الله.

ومنهم الملائكة السياحون الذين يبتغون حلق الذكر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: وكيف لو رأوني؟! يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا وتحميدا، وأكثر لك تسبيحا، يقول: فما يسألوني؟، قال: يسألونك الجنة، يقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟! يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ يقولون: من النار، يقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، يقول: فكيف لو رأوها؟! يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة، فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة! قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم".

رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده".

رواه مسلم.

ومنهم الملائكة عمّار السماوات السبع

قال تعالى في سورة الزمر: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ}.

وقوله: {فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ}. يراد به الملائكة عمّار السماوات.

وفي حديث المعراج، عن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فقِيلَ: مَنَ أنْتَ؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قالَ: قدْ بُعِثَ إلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنا" .. الحديث.

وفيه دليل على أن لكل سماء خازن من الملائكة، وأن لكل سماء باب يفتح ويغلق.

ومنهم الملائكة قرناء الإنس

قال تعالى في سورة ق: {وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}.

قال قتادة: "الملك".

رواه الطبري.

أي: الملك الذي وكّل به، يأمره بالخير وينهاه عن الشر.

وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة". قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: "وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير".

رواه أحمد ومسلم.

فدلّت هذه الآية على أن لكل إنسان قرين من الملائكة، يأمره بالخير وينهاه عن الشر، وهو مقابل للقرين الشيطاني، الذي يأمر الإنس بالشر وينهاهم عن الخير، ثم الإنسان يطيع هذا أو ذاك.

ثم خلق الله تعالى الجنّة والنّار

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه، قال: فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار، فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضا، فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها".

رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

قوله: "فحفّت بالمكاره" أي: أن الله تعالى غلّفها بمظهر حسن، كالسماء التي تُغلِّف الأرض، كمثال لما سوف يُعرض على العباد من الفتن، من فرائض وأوامر ونواهي، وما يصيب العبد من نصب وفقر ومسكنة، تدفعه إلى الكفر.

وقوله: "فحفّت بالشهوات" أي: غلّفت كما غلّفت الجنّة، ولكن النار غلّفها الله بمظهر جميل، على خلاف الجنّة، كمثال لما سوف يعرض على العباد من الفتن، كالمال، والنساء، والمردان، والخمر، وغير ذلك.

وفي هذا الحديث، دليل على أن خلق الجنّة والنّار، كان بعد خلق جبريل عليه السلام، وبهذا يكون خلق الجنّة والنّار تم بعد خلق الملائكة، أو جزء من الملائكة.

فأما الجنّة فهي فوق السماوات السبع، ليس فوقها شيء سوى عرش الرحمن عز وجل.

عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة".

رواه البخاري.

وقوله: "وفوقه عرش الرحمن" أي: أنه ليس فوق الجنّة شيء من خلق الله تعالى، إلّا عرش الرحمن عز وجل، وليس المراد بأن العرش فقط هو الذي فوق الجنّة، بل المراد بأن الحضرة الإلهيّة جميعها فوق الجنّة، وهي العرش والماء والدار والفحص، وإنما ورد الخبر بتخصيص العرش، لأنه أعظمها.

وأما النار، فقد اختلف في موضعها اليوم على عدّة أقوال:

فقيل إنها فوق السماوات.

وقيل: إنها في أسفل الأرض.

وقيل: إنها في ناحية من الأرض.

والصواب، أن النّار اليوم، فوق السماوات.

والدليل على ذلك:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها".

رواه مسلم.

وقوله: "يومئذ" أي: يوم القيامة.

وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث المحشر: "ثم يضرب الجسر على جهنم".

رواه البخاري ومسلم.

فدل حديث أبي سعيد، أن النّار تسحب يوم القيامة حتى توضع تحت السراط والسراط مضروب من الظلمة بعد الأرض إلى القنطرة التي دون الجنّة.

وهذا يعني أن النار توضع في ذلك الوقت تحت الأرض والظلمة والجسر، مما يدل على أن النّار اليوم ليست تحت الأرض.

وهذا من أقوى الأدلة في الرد على من زعم أن النار اليوم تحت الأرض، أو ما يسمونه بالأرض السفلى.

ويعضد ذلك، ما روي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رأيت ليلة أسري بي الجنة والنار في السماء فقرأت هذه الآية: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}. [الذاريات] فكأني لم أقرأها قط".

رواه أحمد.

وفي وراية أخرى عن حذيفة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أُتِيتُ بالبُراق، فلم نزايل طرفه أنا وجبريل، حتى أتيت بيت المقدس، وفتح لنا أبواب السماء، ورأيت الجنة والنار".

رواه أحمد والترمذي.

وقوله: "أتيت بالبراق فلم نزايل طرفه أنا وجبريل حتى أتيت بيت المقدس" خلط من الراوي، فإن ركوب النبي للبراق، ومسراه إلى بيت المقدس، لا علاقة له بمسرى النبي إلى السماء، على أصح الأقوال، وإنما رأى النبي الجنة والنار في السماء، ليلة أُسري به إلى السماء.

ومما يجدر التنبيه عليه، أن بعض الباحثين، يخلط بين سجين، في قوله تعالى: {كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ}. وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم، في حديث البراء بن عازب: "اكتبوا

كتابه في سجين في الأرض السفلى". رواه أبو دواد. وبين النار، فيظن أن سجين الوارد ذكرها في القرآن والسنة، هي النار، وهذا قول باطل، فسجين، هو كل شيء محمّى، وقد ذكر في القرآن والسنة، بأنه كتاب تدون فيه أسماء أهل النار، بعد موتهم، فقال تعالى في سورة المطففين: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ}. إذاً سجين في الآية والحديث ليس النّار.

واستدل بعض الباحثين، على أن النار اليوم، ليست فوق السماوات، بقوله تعالى في سورة الأعراف: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء}. وبقوله تعالى في سورة غافر: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}. فذكر الله تعالى في الآية الأولى، أن الكفار لا تفتح لهم أبواب السماء في حياة البرزخ، وذكر في الآية الثانية، أن آل فرعون، وهم من الكفار، يعرضون على النار في حياتهم البرزخية، غدوّاً وعشيّا، فاستظهروا من ذلك أن النار ليست فوق السماوات، لأنها لو كانت فوق السماوات، لفتحت أبوابها لآل فرعون، ولغيرهم من الكفار، ليعرضوا عليها.

وهذا فهم خاطئ، وليس في الآيات، ما يدل على أن النار في أسفل الأرض، أو أنها ليست فوق السماوات، فقد روى البراء بن عازب في حديثه الطويل، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "فيُنادي مُنادٍ من السماءِ أنْ: كذبَ، فأفرشوا له من النارِ، وافتحُوا له باباً إلى النار، فيأتيهِ مِنْ حرِّها وسمُومِها". رواه أبو داود. فالعرض على النار للكفار، إنما يكون وهم في قبورهم، بحيث يفتح لهم باب إلى النار، فيأتيهم من حرّها وسمومها.

ثم إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وألغى الله هذا الكون، لا يكون بين الجنّة والنار، سوى سور له باب، جهته مما يلي الجنة، منظره حسن يسر الناظرين، وجهته مما يلي النار، منظره قبيح يسوء الناظرين.

ويكون موضع النار في ذلك الزمان إما على يسار الجنّة، بعيدة عنها، بحيث لا تكون قريبة من عرش الرحمن، أو تكون تحتها، بعيدة عنها، ذلك أن القرب من عرش الرحمن عز وجل، كرامة لا يستحقها أهل النّار.

قال تعالى في سورة الحديد: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ}.

والله أعلم وأحكم.

خلق الجِنّ

سمّي الجنّ بهذا الاسم، لأنهم استتروا عن أعين الإنس، فالجن في اللغة، هو الستر.

وكما أن الله تعالى اختصّ الملائكة بهذا الاسم، مع اشتراك غيرهم معهم في الوصف الذي يدل عليه اسمهم، فكذلك اختصّ الجنّ بهذا الاسم، مع اشتراك غيرهم معهم في الوصف الذي يدل عليه اسمهم.

وأما صفاتهم الخَلقية.

فقد خُلِق الجن من نار السموم، وهو مارج النار، وهو اللهب المتصاعد من النار عند توهجها.

قال تعالى في سورة الحجر: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ}.

وقال تعالى في سورة الرحمن: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ}.

وسُمّيت نار السموم، لأن لهب النار تصدر ريحا ساخنة، والعرب تسمي الريح الساخنة: سموم.

وسُمّيت مارج النار، لأن لهبها يمرج مرجا، أي: يتحرك بلا ضابط، كما تقول العرب: مرجت الدابة، أي: ذهبت بلا راعي.

وسُمي لهب النار بهذا الاسم، لأنها تلهب بحرارتها من يمسُّها.

والنار، هو ما يحترق من الأشياء، ويصدر الحرارة.

وإبليس هو أبو الجنّ، قال تعالى في سورة الأعراف، مخبرا عما قاله له إبليس: {خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}.

فأخبر عدو الله تعالى، بأن الله ابتدأ خلقه من نار، كما ابتدأ خلق آدم عليه السلام من طين.

وقال محمد بن شهاب الزهري: "إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو الإنس وآدم من الإنس وهو أبوهم وإبليس من الجن وهو أبوهم وقد تبين للناس ذلك حين قال الله: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا}. [الكهف]".

رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

وما قاله الإمام الزهري، هو الحق في هذه المسألة إن شاء الله تعالى.

وعن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجن ثلاثة أصناف، صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون".

رواه البخاري ومسلم.

قلت: وقول النبي صلى الله عليه وسلم "وصنف حيّات وكلاب" يحتمل معنيان:

الأول: أن هذا خلق الله لهم، فهم في خلقتهم على صور الحيّات والكلاب، ومع ذلك هم ليسوا بهائم، بل خلق مُكلَّف، مثل سائر أصناف الجن الأخرى.

والثاني: أن الخبر لا يعني أنهم يخلقون على هذه الخِلقة، وإنما مراده أنهم يتحولون في صور هذه الحيوانات، عندما يرغبون في الظهور للناس، لكيلا يتعرضوا للأذى منهم، كما أن هذا لا يعني اقتصار ظهورهم في صور هذه الحيوانات، بل قد يظهرون في صور حيوانات أخرى، وإنما اقتصر النبي على هذين النوعين، لأنها أكثر الأنواع التي يظهر فيها الجن، وللدلالة على أن للجن القدرة في الظهور في صور الحيوانات عامة.

وهذا يعني أمران:

إما أنه يدل على أن الجن عندهم القدرة على التشكل في أي صورة شاءوا، فمنذ أن ينوي الجني التشكل في صورة ما، يقوم دماغه بإعطاء الأمر لسائر جسده، بالتشكل على الصفة التي أرادها الجني.

أو أن الجني، عنده القدرة على صنع صورة يجعلها حجابا بين صورته الحقيقية وبين الناس، فيبدو لهم في صورة غير صورته التي خلقه الله عليها.

وأحب الحيوانات للجنّ: من الدوابّ: الأسود، والكلاب، والقطط، والقردة، والحيَّات، والماعز، والثيران، وربما تصوّروا في صور مطايا الإبل والحمير.

ومن الطيور: البوم والغربان.

وأعجب الألوان إليهم السواد، لذلك يظهرون على هيئة ظلال سوداء.

عن عبدالله بن عمر قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا أو سافر، فأدركه الليل قال: "يا أرض ربي وربّكِ الله، أعوذ بالله من شرّك وشرّ ما فيك وشرّ ما خُلِق فيك وشرّ ما دبّ عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب، ومن شرّ ساكن البلد، ومن شرّ والد وما ولد".

رواه أحمد.

والشاهد من الحديث هو قوله: "وأعوذ بالله من شر كل أسد وأسود"، لذلك تظهر الجنّ في المنامات في صورة أسود أو بشر يرتدون السواد، كما تتغوّل للمسافرين في البراري على هيئة سوداء.

كما يعجبهم اللون الأحمر والأخضر والأزرق، ولا أعلم لماذا يحبّون هذه الألوان، إلّا أنه لا شك أن لها دلالة معيَّنة عندهم.

وصور الجن الحقيقيّة قبيحة، وقد ضرب الله تعالى المثل بقبح وجوههم في قوله تعالى في سورة الصافات: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ}.

وقد اقتصر الله تعالى على ذكر شياطينهم دون مسلميهم، ولعل ذلك إكراماً لمسلميهم.

وأجساد الجنّ، أجساد لطيفة، حيث أعطاهم الله تعالى القدرة على الدخول في أجساد الإنس، والامتزاج بها، إلا أنهم لا يستطيعون أن يمزجوا أرواحهم بأرواح الإنس، إلّا أن لهم قدرة على تعطيلها عن التحكم بجسدها، ويقال للإنسي، الذي وقع تحت تحكُّم الجنّ: مجنون.

والجن يأكلون ويشربون.

عن عامر، قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة، أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا ولكنا كنا مع رسول الله ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب. فقلنا: استطير أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. قال: فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: "أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن". قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال: "لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم".

رواه مسلم.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أكل فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله".

رواه مسلم.

ولكنهم لا يستطيعون أن يتناولوا شيئاً من طعام الإنس، ما لم يُمَكِّنُهم الإنس من ذلك.

وعن جابر بن عبدالله، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء".

وعن حذيفة بن اليمان قال: كنا إذا حضرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم طعاما لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع يده، وإنا حضرنا معه مرة طعاما، فجاءت جارية كأنها تدفع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يدفع فأخذ بيده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده، إن يده في يدي مع يدها".

رواه مسلم.

ولكن لا يدرى هل هم يتنفسون أم لا.

هذا في شان الجنّ عامة، أما إبليس، فلا يدرى هل يأكل ويشرب ويتنفس أم لا.

إلا أن إبليس وسائر الجنّ يشتمون الروائح، وشياطينهم يحبون الروائح الكريهة ويستطيبونها، وينفرون من الروائح الطيّبة، ويستقبحونها، وخصوصا العنبر والمسك الأسود.

ولا شك أن لهم لباسا، ولكن لا يدرى هل لباسهم يخلق معهم، أم أنهم ينسجون ألبستهم كالإنس ويلبسونها.

والجن كالإنس، فيهم الجبان والشجاع، وإذا بلغ الجني الغاية في قوة القلب والبدن، قيل له: عفريت.

وأما مساكن الجنّ، فمنهم من يسكنون الكهوف والجحور وفي بيوت الإنس، حتى إن منهم من يسكن في المراحيض والحمامات.

عن أنس بن مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال: "اللهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخَبَائث".

رواه البخاري ومسلم.

وعن زيد بن أرقم قال: "إن هذه الحشوش محتضرة، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث".

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والنسائي.

وقوله: "الحشوش" أي: المراحيض.

كما أنهم يأوون إلى مبارك الإبل.

عن البراء بن عازب، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصلاة في مبارك الإبل، فقال: "لا تصلوا في مبارك الإبل فإنَّها مأوى الشياطين".

رواه أبو داود.

وقد يبنون بيوتهم الخاصة بهم، إلا أننا لا نراها، كما أننا لا نراهم بأنفسهم.

ولذلك فإن إبليس لعنه الله، قد اتخذ لنفسه عرشاً، ووضعه على البحر، يتشبه في ذلك بالله تعالى، فإن عرش الله تعالى على البحر.

ذكر الشيخ حامد آدم موسى، من أهل بلاد السودان، وكان كاهناً من كهنة الصوفية، ثم من الله عليه بالإسلام، أنه سأل تابعه من الجنّ: هل رأيت إبليس؟ فقال: نعم. فقال: أين هو؟ فقال: على البحر، في موقع في البحر، وعنده مملكة كبيرة جداً على البحر. قال الشيخ حامد: وأشار بيده إلى جهة الغرب، أي: إلى ناحية بحر الظلمات، وهو المحيط الأطلسي. وذكر الشيخ حامد: أنه حتى تلك اللحظة، لم يكن يعلم أنه ورد في الحديث أن عرش إبليس على البحر.

فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة".

رواه مسلم.

ولا اختلاف بين أهل العلم أن الجن فيهم ذكور وإناث وأنهم يتناكحون ويتناسلون مثل الإنس.

والدليل قوله تعالى في سورة الرحمن: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ}.

وهذا يدل على أنه يتأتى منهم الطمث، وهو الجماع والافتضاض.

ولا يدرى، هل هم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، أم أنه يبيضون كما تبيض الطيور والسحالي!

وأما إبليس نفسه، فلا يدرى كيف أنجب ذريّته من الجن، وكل ما يقال عن كيفية إنجاب إبليس لذريّته محض تخرّص، إلا أن ذريّته فيهم ذكور وإناث، وأنهم ذكورهم يتزاوجون مع إناثهم، فيتوالدون ويتكاثرون.

وأما صفاتهم الخُلُقية.

فالجن كالإنس، مجبولون على الخير والشر والحق والباطل والطاعة والمعصية.

قال تعالى في سورة الكهف: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا}.

فقوله تعالى: {كَانَ مِنَ الْجِنِّ}. يبين لنا أن الجن يقع منهم الشر والباطل والمعصية، كما يقع منهم الخير والحق والطاعة.

وقال تعالى في سورة الجن: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}.

وقال في سورة الجن أيضا: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}.

لذلك فالجن كالإنس، فيهم شياطين ومَرَدة.

وقد تم خلق إبليس أبو الجنّ، بعد خلق الجنّة والنار، وأسكنه الله الجنّة، وضمّه إلى ملائكتها، ومن هنا قيل بأن إبليس من الملائكة، إلا أنه وبخلاف الملائكة، مخلوق من لهب النار، كما أنه مجبول على الخير والشر، والحق والباطل، والطاعة والمعصية، بخلاف الملائكة، الذين خلقوا من نور، وجبلوا على الخير والحق والطاعة فقط.

وما نقلته هنا عن أوصاف الجن مأخوذ من القرآن والسنة، ومن بعض من كان له علاقة بهذه الكائنات، من الكهّان.

والله أعلم وأحكم.

ما ورد عن سوم أو سوميا

ورد في بعض الكتب، أن أبا الجن شخص يدعى سوم وفي رواية سوميا، فما حقيقة هذا الشخص، وهل هو حقيقة أم أسطورة أنشأها القُصَّاص؟

ولنجيب على هذا السؤال، يجب علينا تتبع الروايات التي ورد فيها ذكر سوم أو سوميا، والنظر فيها، والتثبت من صحتها.

وبعد البحث عن الأخبار التي ورد ذكر سوم أو سوميا فيها، لم أعثر إلا على خبرين:

الأول: ما ذكر المطهر بن طاهر المقدسي، المتوفى سنة ٣٥٥هـ، في كتابه البدء والتاريخ، ما نصه: "وجاء في بعض الأخبار أن اسم أبي الجن سوم كما اسم أبى البشر آدم قالوا: وخُلِق سوم وزوجته من نار السموم فتناسلوا وكثر ولده وكانت الجن سكان الأرض قبل آدم والملائكة سكان السماء".

إلى أن قال: "وروي عن مجاهد .. قال: ولما خلق الله تعالى أبا الجن قال له تمن قال أتمنى أن لا نرى ولا نرى وأنا ندخل تحت الثرى وأن شيخنا يعود فتى فأعطى ذلك" اهـ

قلت: وهذا خبر بلا إسناد، ولا يعرف هذا في كتب الآثار عن مجاهد، فهو على الأرجح موضوع عليه، ولو صحّ عن مجاهد، فهو مما أخذه عن ابن عباس، ولما كان فيه حجة، لما سوف نبينه.

والثاني: ما ذكره محمد بن عبدالله الشبلي، المتوفى سنة ٧٦٩هـ، في كتابه آكام المرجان في أحكام الجان، موقوفا على عبدالله بن عباس، ما نصه: "وقال إسحاق قال أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال خلق الله سوميا أبو الجن وهو الذي خلق من مارج من نار قال تبارك وتعالى تمن قال أتمنى أن نرى ولا نرى وأن نغيب في الثرى وأن يصير كهلنا شابا فأعطي ذلك فهم يرون ولا يرون وإذا ماتوا غيبوا في الثرى ولا يموت كهلهم حتى يعود شابا يعني مثل الصبي يرد الى أرذل العمر" اهـ

قلت: وأبو روق هو عطية بن الحارث، من تابعي التابعين، وهو من تلامذة التابعي عكرمة، ولا يعرف لأبي روق تلميذ يقال له إسحاق، ولا ابن إسحاق، ولا أبو إسحاق، مما يدل على بطلان هذا الخبر.

ولم أجد هذا الخبر في شيء من كتب السنة المعتبرة.

وقد ورد في القرآن العظيم، التصريح بأن الله تعالى بدأ خلق إبليس من النار، كما بدأ خلق آدم من طين، فقال الله تعالى مخبرا عما قال له إبليس، عندما سأله الله تعالى عن سبب عصيانه لأمره بالسجود لآدم: { أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}. فأخبر عدو الله أن الله ابتدأ خلقه من نار، كما ابتدأ خلق آدم من طين.

وقد رُكِّبت قصة سوم أو سوميا، على ما نقله ابن عباس وابن عمرو عن أهل الكتاب، فيما أدعوه أن أن الجن خلقوا قبل آدم بألفي سنة، ومن هنا ابتدع القصاص قصة سوم أو سوميا المزعوم.

وقصة سوم أو سوميا التي ذكرها المقدسي والشبلي، هي أشبه بالأحاجي التي يؤلفها الناس للفكاهة، وللدلالة على مغزا معيّن، فلما كان من طباع الجن، أنهم يرون الناس ولا يرونهم، وأنهم يغيبون في الثرى، وأنه لا يموت كهلهم حتى يعود صبيا، ألف القاص هذه الصفات في أحجية، والدليل على ذلك أنهم ذكروا بعد هذه الرواية، أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام، قال له: تمن. فقال: أتمنى الحيل! كناية على أن الحيل من طباع بني آدم.

والله أعلم وأحكم.

ما ورد عن الحِنّ والبِنّ

قال ابن كثير الدمشقي في تفسيره وتاريخه: وقال عبد الله بن عمر: كانت الحن والبن قبل آدم بألفي عام، فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جندا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور. اهـ

قلت: ولم يذكر ابن كثير المصدر الذي نقل عنه هذا الخبر!

وقال ابن كثير أيضا: "قال كثير من علماء التفسير: خلقت الجن قبل آدم عليه السلام، وكان قبلهم في الأرض الحن والبن، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم، وأجلوهم عنها وأبادوهم منها، وسكنوها بعدهم بسبب ما أحدثوا". اهـ

قلت: وقوله: "قال كثير من علماء التفسير" مشكل، لأني لم أجده في أمهات كتب التفسير، كتفسير عبدالرزاق، وتفسير يحي بن سلام، وتفسير الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم. فمن هم هؤلاء العلماء الكُثُر الذين نقل عنهم ابن كثير هذه الرواية؟!

والحقّ أن القول بوجود كائنات سابقة لوجود الجن والإنس، كلام باطل موضوع، وضعه القصّاص، وقد بيّنت سابقاً أن إبليس هو أول خلق من نوعه.

وأصل هذه الأكاذيب، أنه وقع في تفسير الطبري تصحيف في ذكر اسم الجن في بعض الروايات، فكُتبت بالحاء المهملة، ومن هنا ألّف القصّاص روايتهم عن الحِن، وأما البن، فلم أجد لهم ذكرا في أي مصدر كان، ويظهر لي، أن ابن كثير، إنما أخذه عن بعض التواريخ، التي ألفها بعض كذبة القّصَّاص، الذي اختلق وجود هذه الكائنات، وإعطائها اسم على وزن الحِنّ، ليشاكل بين أسمائها في النطق.

وليس القصّاص المتقدّمون بأفضل من القصّاص المتأخرين في وضع القصص والخرافات، ففي زماننا، خرج من اختلق وجود كائنات أخرى، فأسماها: الخن – بالخاء المعجمة – والمن والدن والسن والطم والرم! والأعجب من ذلك، أني وجدت أحدهم، ذكر مما خلقت هذه الكائنات!

روي عن بعض الصحابة أخبار في شأن إبليس والجنّ تخالف ما نصّ عليه القرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فعن عبدالله بن عباس أن الجن من الملائكة، وأنهم كانوا خزان الجنة ولذلك سمو بالجِنّ لأنهم خزان الجنة!

وفي موضع أخر عن ابن عباس أن الجن خَلقٌ من الملائكة يعمرون الأرض!

وقال ابن عباس عن إبليس، أنه كان رئيس الملائكة خزان الجنة، وأنه مع ما ذلك كان رئيس ملائكة السماء الدنيا، فدعاه ما أتاه الله من السلطان إلى الكِبر .

فجعل سبب فسقه ما أتاه الله من سلطان!

وعن ابن عباس أيضا في رواية أخرى أنه كان من الجن الذين يعمرون الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، فذلك دعاه إلى الكبر!

فجعل سبب فسقه ما أتاه الله من العبادة والعلم!

وأما عن اسمه، فروي عن ابن عباس أن اسمه عزازيل! وفي رواية أخرى عنه أن اسمه الحارث!

وقد حاول البعض الجمع بين الروايتين فزعم أن عزازيل معناه بالعربية: الحارث! وشتان بين اسم عزازيل وبين اسم الحارث الذي لا يمكن الجمع بين معنيهما بأي وجه من الوجوه!

فعزازيل، كلمة مكونة من شقين: عزاز وإيل، فأما إيل، فمعناه الله، وأما عزاز، فهي مشتقة من العزّة، فهذا الاسم يعني "تقريبا" العزيز بالله ، بينما الحارث معناه: المكتسب.

ومن ذلك أيضاً ما روي عن ابن عباس، من أن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضًا، قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحي الذين يقال لهم الجن، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال،

فلما فعل إبليس ذلك اغتر في نفسه، وقال: قد صنعت شيئًا لم يصنعه أحد، قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه.

وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره، نحو ذلك عن عبدالله بن عمرو ولم يذكر في الخبر إبليس، وهي بلا شك من الأخبار التي نقلها عن الزاملتين التين وجدهما بالشام، من كتب أهل الكتاب.

وزعم الراوي عن ابن عباس، أن ابن عباس زعم أن الجن قسمان: قسم خلقوا من نار السموم، وهم إبليس ومن معه من الجن، وهؤلاء خزنة الجنة! وقسم خلقوا من مارج النار، وهم سكان الأرض، فأفسد سكان الأرض وبغوا، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الجن السماوي، فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحور!

ثم يروون عن ابن عباس أيضاً أنه قال بأن إبليس لم يكن من أهل السماء، بل كان من الجن الذين يسكنون الأرض، وكان من أشد الخلق اجتهاداً في العبادة!

كل ذلك وراه الطبري في تاريخه، ونقله عنه غيره.

وجميع ما سبق باطل، من وجهين:

الأول: من جهة الإسناد، فلا يصح عن عبدالله بن عباس في ذلك خبر.

والثاني: من جهة المتن، فمتن هذه الروايات معلول من جهتين:

الأولى: تخبط هذه الروايات، وتعارضها تعارضا لا يمكننا معه الجمع بينها، يدل على بطلانها، فحتى لو صح إسنادها عن ابن عباس فهذا يفيد قطعا أن ابن عباس رضي الله عنه لم يتلق هذه الأخبار من مشكاة النبوة وإلا لم توجد كل هذه التناقضات التي لا يمكن الجمع بينها، وأنه في الحقيقة إنما نقلها عن أهل الكتاب بما فيها من اختلاف وتناقض من باب الرواية عنهم.

والثانية: مخالفتها الصريحة لما ورد في الكتاب والسنّة، مخالفة لا يمكننا معه الجمع بينهما، فقد أخبرنا الله عز وجل في كتابه العزيز، في سورة الأعراف، مخبرا عما قاله له إبليس، عندما رفض السجود لآدم: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}. وقال تعالى في سورة ص: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ

أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}. فأخبر عدو الله أن الله ابتدأ خلقه من نار كما ابتدأ خلق آدم من طين، وأن عدو الله رأى أن النار التي هي أصل خِلقته أفضل من الطين التي هي أصل خلقة آدم، مما دفعه إلى الكِبر ومعصية ربه عز وجل.

وأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم، في الحديث الصحيح، الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، أنه قال: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم".

فميّز النبي صلى الله عليه وسلم بين خلق الملائكة وخلق الجنّ.

فأبى أهل الأهواء إلّا أن يدعو كتاب الله وسنة نبيه خلاف ظهورهم، ويأخذوا بما ورد في كتب أهل الكتاب!

ومنها نعلم أن سبب وجود إبليس في الجنة هو نفس السبب الذي جعل آدم يوجد فيها، وهما كونهما أول خلق من نوعيهما، وأنه كما أُمتحن آدم بتحريم الأكل من الشجرة أمتحن إبليس بالسجود له، وأن الغاية من خلق إبليس هي الغاية من خلق آدم عليه السلام، وهي العبادة المقرونة بالابتلاء والامتحان ثم الحساب، ثم الجزاء، فإما الثواب أو العقاب.

وأن اسم إبليس الحقيقي لا يعلمه إلا الله، ولكن اسمه اليوم الذي سماه الله به إبليس ليس له اليوم اسم غيره.

والله أعلم وأحكم.

خلق آدم عليه السلام

ثم خلق الله عز وجل آدم عليه السلام، واشتق اسم آدم عليه السلام من أديم الأرض، وأديم الأرض هو وجهها وسطحها، والمراد به هنا التربة.

وقد خلق الله آدم من تربة الأرض الطينية، وهي التربة التي إذا مزجت بالماء صارت كالعجينة، ومنها كان الناس يصنعون أوانيهم ويبنون بيوتهم.

قال تعالى في سورة الأنعام: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ}.

وقال تعالى في سورة الحجر: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}.

وقال تعالى في سورة المؤمنين: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ}.

وقال تعالى في سورة السجدة: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ}.

وقال تعالى في سورة الصافات: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ}.

وقال تعالى في سورة الرحمن: {خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك".

رواه أبو داود والترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: "خلق الله آدم على صورته؛ وطوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب، فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يجيبونك؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك

ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن".

رواه البخاري ومسلم.

وقوله: "على صورته" أجمع أئمة أهل الحديث، على أن الهاء راجعة إلى صورة الله تعالى، والكون التي هي فيه، فصورة آدم عليه السلام، على صورة الله عزّ وجل.

وقوله: "طوله ستون ذراعاً" هذا هو طوله في الجنَّة، والذي يظهر لي، أنه لم هبط إلى الأرض، حَطَّ الله تعالى من طوله، حتى صار في مثل طولنا، وذلك ليتناسب طوله مع المحيط الذي يعيش فيه، ويستفيد من الأنعام التي خلقها الله عز وجل له، من إبل وبقر وغنم، وغير ذلك.

وأما قوله: "فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن" يظهر لي، أنه زيادة من الراوي، وليست من قول النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه لما وقع له في الخبر عن رسول الله، أن طول آدم في الجنَّة ستون ذراعاً، ظنّ أن هذا هو طوله لما هبط إلى الأرض، فأراد أن يُعلِّل سبب نقصان طول الإنس عن هذا الطول، فادعى أن الخلق أخذ ينقص حتى صار إلى طول الإنس المعروف.

ويدل على أن آدم لما هبط إلى الأرض، صار في مثل طولنا، أن مساكن ثمود المنحوتة في الجبال، طول أبوابها كطول أبوابنا، مع أن قبيلة ثمود، من أقرب الأمم زماناً لآدم عليه السلام، ومن المفترض، أن يكونوا في طول أكبر بكثير من طولنا، وبالتالي، يجب أن تكون طول أبوابهم أكبر بكثير، مما هي عليه الآن.

فتبيّن بذلك، أن طول الإنس واحد، لم يتغيّر منذ أن أُهبط أبوهم آدم من الجنَّة.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: رحمك الله ربك يا آدم" .. الحديث.

رواه الترمذي.

وعن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما صوّر الله آدم في الجنّة، تركه ما شاء أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف، عرف أنه خُلِق خلقا لا يتمالك".

رواه مسلم.

وقوله: "لما صوّر الله آدم في الجنّة" دليل على أن آدم أُدخِل الجنّة وهو طينة لم يصوّر بعد، ولم يتم تصويره إلا بعد دخوله الجنّة.

وقوله: "فجعل إبليس يطيف به" دليل على أن الله تبارك وتعالى كان قد كسى آدم من ثياب الجنّة، بعد أن صوّره مباشرة، فما كان الله تعالى ليكشف عورة آدم لأحد من خلقه.

وفي هذا دليل على كذب الحديث الذي ورد فيه أن إبليس كان يدخل من فِيّ آدم ويخرج من دُبُرِه.

وعن أبي هريرة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خير يوم طلعت عليه الشمس، يوم الجمعة. فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة".

رواه مسلم.

خلق حوّاء عليها السلام

ثم خلقت حوّاء، زوج آدم عليهما السلام، خلقها الله عز وجل لتكون له سكناً، وتنجب له ذُرِّيّته.

واشتق اسم حوّاء عليها السلام من التحوية، والحِواء، هو كل شيء استخدم لاحتواء الأشياء، من أرض أو وعاء، ثم توسّع العرب فيه حتى أطلقوه على كل شيء واسع، وربما سمّى الله تعالى حواء بهذا الاسم، لأنها حوت بني آدم، فهي أمهم جميعاً.

قال تعالى في سورة النساء: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}.

وقوله تعالى: {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}. دليل على أن حوَّاء عليها السلام خلقت من آدم عليه السلام.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}.

وقال تعالى في سورة الزمر: {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}.

وقوله تعالى في الآيتين: {جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}. جعل هنا بمعنى خلق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء".

رواه البخاري.

وهذا يؤكد ما جاء في تاريخ اليهود، ما نصه: "فأوقع الرب الاله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الاله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة؛ لأنها من امرئ أخذت .. ودعا آدم اسم امرأته حواء؛ لأنها أمّ كل حيّ".

أي: أمّ كل حيّ من ولده.

فتبيّن مما سبق، أن الله تعالى جعل آدم ينام، وأخذ ضلعاً من أضلاعه، ولأم مكان الضلع لحماً، وخلق من الضلع حواء عليها السلام، وكساها من ثياب الجنّة، فلما أفاق آدم عليه السلام وجدها قاعدة عند رأسه، ولم يكن عليه السلام في حاجة لمن يخبره ما هي، ومن هي، لما ألهمه الله عز وجل من العلم والمعرفة.

قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.

قوله: {خَلِيْفَة}. أي: أخلفه في الأرض، ليقوم بعبادتي فيها.

وقوله: {أَتَجْعَلُ فِيهَا}. .. الآية. وسؤال الملائكة هنا سؤال متعلّمٍ متعجّب، وليس سؤال معترض مستنكر، وحاشاهم من ذلك عليهم السلام، وقد أثنى عليهم الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، بصدق المحبة والولاء والطاعة.

والسؤال هنا: هو كيف عرف الملائكة بما سوف يجري من بني آدم من الإفساد في الأرض وسفك الدماء؟

والجواب: أن التعليل الوحيد، هو أن الله تبارك وتعالى، أخبرهم بذلك، إذ لا وجه لمعرفتهم بشيء من ذلك؛ إلا ما أخبرهم الله به من علم الغيب، فبعد أن أخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه يريد خلق آدم، أخبرهم بما سوف يقع من ذريته من الفساد في الأرض وسفك الدماء، وهنا تعجب الملائكة، وسألوا الله عن سبب خلق الله لآدم وذريته، مع علمه سبحانه بما سوف يقع منهم في الأرض، واستغنى الله عن ذكر ذلك في القرآن، لدلالة الكلام عليه، فإن من سِيمَى القرآن الاختصار والاقتضاب في إيراد القصص والأخبار، وحذف ما لا حاجة لذكره، إذا كان سياق الكلام يدل عليه.

وقال تعالى في سورة الحجر: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}.

قوله: {صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}. أي: الصلصال، هو الطين، وإنما يسمّى الطين صلصالاً إذا عمل له تجويف، وترك حتى ييبس، فإذا قُرِع، سُمِع له صلصلة، ثم تجوّز العرب، فأسموا الطين يابساً وغير يابس صلصالاً، والحمأ، هو الطين الذي أنتنت رائحته من طول مكثه في الماء،

والمسنون، أي: الأملس، أن الله تعالى أخبرهم بأن هذا الخليفة هو بشر سوف يخلقه من طين، وأن عليهم أن يسجدوا له بعد أن ينفخ فيه من روحه، فالطاعة والتعظيم لأمر الله عز وجل، والسجود لآدم عليه السلام.

وقال تعالى في سورة ص: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}.

وقال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

قوله: {إِلاَّ إِبْلِيسَ}. أي: أن إبليس كان ممن توجّه الأمر إليه بالسجود لآدم، فداخله من ذلك حسد شديد، دفعه إلى بغض آدم بغضا عظيما.

عن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق الله آدم؛ تركه ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به؛ فلما رآه أجوف عَرَف أنه خلق لا يتمالك".

رواه مسلم.

قلت: وقوله إن إبليس كان يطيف بآدم عليه السلام، فيه دليل على أن الله تعالى كان قد ستر جسد آدم عليه السلام، بعد أن صوره وقبل أن ينفخ فيه الروح، فما كان الله تعالى ليجعل عورة آدم بادية، وما كانت الملائكة لترى عورته.

وقوله: {وَاسْتَكْبَرَ}. أي: أن سبب معصيته هو التكبُّر على آدم، ولعل، والعلم عند الله وحده، أن الله ما أمر الملائكة بالسجود لآدم، إلا ليميز الخبيث من الطيب، فكان إبليس هو الخبيث، وذلك أن الله تبارك وتعالى، خلقه من نار، من بين سائر الملائكة، مما جعله يعتقد بأن له فضلاً عليهم، لتميُّزِه عنهم بمادة خلقه، لذلك داخله الكبر، فأراد الله عز وجل أن يطرده من الجنة، ولكن أراد قبل ذلك أن يظهر هذا الكبر الذي في نفس إبليس، ويفضحه على رؤوس الملائكة، ليعرفوا أن الله لم يطرده إلا لأنه مستحق للطرد، فأمرهم جميعا بالسجود لآدم عليه السلام.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}.

قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ}. أي: خلقنا طينتكم ومائها، بخلقنا للأرض وبحارها، من قبل أن نصوركم، ثم صورناكم بعد ذلك.

وقوله: {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ}. ثم، حرف عطف، يفيد الترتيب مع التراخي. أي: أن أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم، كان أمران: الأمر الأول كان قبل أن يخلق آدم عليه السلام، ووقع للتنبيه فتنبه الملائكة، وأما الثاني، فبعد أن نفخ الروح في جسد آدم، ووقع للتنفيذ، فنفّذ الملائكة ما أمرهم به ربهم، إلّا الشقيّ.

قوله: {فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا}. أي: إهبط من الجنّة، ومعنى الهبوط هنا، أي: الخروج، أي: أُخرج من الجنّة، لأنها لا يسكنها المتكبّرون، وسُمّ] خروجه من الجنّة هبوطاً، لأن مكان الجنّة عالياً، فكل من خرج منها إما أن يصعد إلى الحضرة الإلهيّة، إن كان قد أُذِن له، أو يهبط إلى أسفل، وبما أن إبليس مغضوب عليه، فكان خروجه من الجنّة هبوطاً، إلى مكان أسفل من الجنّة.

وقال تعالى في سورة الحجر: {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}.

قوله: {رَجِيْم}. أي: مرجوم.

وقوله: {اللَّعْنّة}. أي: ملعون، والملعون، هو المطرود من رحمة الله تعالى.

وقوله: {إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}. أي: إلى يوم القيامة، وفي هذا دليل على أن الله تبارك وتعالى كان قد أخبر الملائكة وإبليس أن العباد سوف يمتحنون إلى أجل، ثم يجمعون في يوم يحاسبون فيه، وقد استغني عن ذكر هذه التفاصيل؛ لعدم الحاجة لذكرها، فدلالة الكلام تدل عليه.

وقال تعالى في سورة الإسراء: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}.

وقال تعالى في سورة ص: {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}.

قوله: { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}. أي: أن الله تعالى خلقه بيديه العظيمتين، وكذا سائر الخلق، خلقهم الله بيديه، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ}. [يس].

وقوله: {أَيْدِيْنَا}. أي: يَدَيّ الله تعالى، أوردها بصيغة الجمع للتفخيم والتعظيم.

وعن سعيد بن جبير قال: "لما لعن إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، فجزع لذلك، فرن رنَّة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها".

رواه أبو الشيخ في العظيمة، بسند قويّ.

وقوله: "فكل رنّة في الدنيا إلى يوم القيامة منها" أي: أنها صارت سنّة في الجن والإنس، يرنون عند المصائب، إلّا من وقاه الله تعالى، وألهمه الصبر.

وعن مجاهد بن جبر قال: "رنّ إبليس أربعا، حين لعن، وحين أهبط، وحين بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وبعث على فترة من الرسل، وحين أنزلت الحمد لله رب العالمين".

رواه أبو الشيخ في العظمة، بإسناد صحيح.

وهذا يعني، أن الله تعالى وتقدس، مسخ إبليس شيطاناً رجيماً قبيحاً، غاية في القبح، بعد أن كان ملاكاً كريماً غاية في الحسن، فلما رأى ما حلّ به، رنّ عدو الله، والرنّ هو الصراخ الشديد من هول الفاجعة التي حلت به، لأنه لم يكن يظن أن يفعل الله به ذلك.

وقال تعالى في سورة الإسراء: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً}.

أي: أن عدوّ الله والصالحين من عباده، لما استفاق من هول الفاجعة، بدل أن ينتبه ويجأر إلى الله بالتوبة، ويسأله الصفح والعفو والمغفرة والرحمة، ازداد غيّاً وخبثاً وحقداً وكفراً، فأخذ يتهدد ويتوعد آدم وذريّته!

وقال تعالى في سورة الأعراف: {قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ}.

أي: أن عدو الله والصالحين من عباده، لما سمع جواب الله له، وهو قوله سبحانه: {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا}. .. الآية. طمع عدو الله تعالى أن ينظره الله إلى يوم القيامة، لعله يصدق ظنه فيهم، فسأل الله أن ينظره، بأن يمد في عمره حتى قيام الساعة، فأعطاه الله تعالى مراده.

وقال تعالى في سورة الحجر: {قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ}.

وقال تعالى في سورة ص: {قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}.

قوله: {فَبِعِزَّتِكَ}. تأويل ذلك، أنه أقسم بعزة الله، أنه بسبب إغواء الله له، سوف يسعى إلى إغواء بني آدم وإضلالهم، وإيقاعهم في الكفر أو المعاصي.

والله تبارك وتعالى إنما يقصّ علينا ما جرى بينه وبين إبليس بالمعنى وليس بالنص، فإن إبليس لم يكن هذا اسمه، وإنما سمي إبليس بعد اللعنة والمسخ والطرد، وإنما يذكره باسمه الذي سماه به بعد المعصية استصغاراً له، وتنقصاً له، وكذلك تجد أن العبارات فيه اختلاف في اللفظ، ولكنها متفقة في المعنى، ومؤتلفة في القصد.

ثم إن الله تبارك وتعالى طرد إبليس من الجنة، وأمره بالخروج منها، ولم يخبرنا الله تبارك وتعالى ولا رسوله أين أقام بعد خروجه من الجنة، ولكن لا يخرج هذا عن أمرين: إما أن الله أمره بالهبوط إلى الأرض مباشرة، أو أن الله تبارك وتعالى قد هيئ له موضعاً خارج الجنة ليقيم فيه.

وقال تعالى في سورة البقرة: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}.

أي: أن الله تعالى أراد أن يظهر لملائكته سعة علمه، فعلّم آدم أسماء جميع المخلوقات، سواء كانت حيوانات، أو أدوات، أو أفعال، ما ترك الله شيئاً لم يعلّمه إيّاه.

وهل الله تعالى علّمه إيّاه بالتلقين أو بالإلهام؟ قد يكون هذا أو ذاك، وإن كنت أرجّح أن يكون هذا عن طريق الإلهام.

وإنما أراد الله تبارك وتعالى أن يثبت لملائكته بأنه يعلم ما لا يعلمون، بدلالة أنهم لم يستطيعوا معرفة أسماء الأشياء التي عرضها الله عليهم، فكيف لهم أن يعلموا سبب خلقه لآدم وذريّته، مع

ما سوف يقع من ذريّة آدم من الفساد في الأرض. وفي هذا تعليم من الله تعالى لملائكته بل ولجميع خلقه من الإنس والجن، أن لا يتكلّفوا علم ما لا قدرة لهم على علمه، وأنهم إذا رأوا الشيء من إيجاد الله تعالى، سواء كان خلقاً أم فعلاً، لا يعلمون سببه ولا الحكمة من إيجاد الله تعالى له، أن يكلوا علمه والحكمة من إيجاده لله تعالى، لأنه سبحانه أعلم بخلقه.

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في خبر خلق آدم، أن الله تعالى قال لآدم: "لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: رحمك الله ربك يا آدم، وقال له: يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة، إلى ملإٍ منهم جلوس، فقل: السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك، بينهم، فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال: أي رب، ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم – أو من أضوئهم – قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة. قال: يا رب زده في عمره. قال: ذاك الذي كتب له. قال: أي رب، فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة. قال: أنت وذاك، قال: ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها، فكان آدم يعد لنفسه، قال: فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، قد كتب لي ألف سنة، قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته. قال: فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود.

رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وفي رواية، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق الله آدم، مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من

عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته.

رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقد ساقها الترمذي بصيغة توهم أن أمر الله تعالى لآدم بالذهاب إلى الملائكة للسلام عليهم، وقع فور دخول الروح في جسده، فقال: "لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة .. ". الحديث.

وهذا في الحقيقة من أوهام الرواة، والصواب أنه بعد دخول الروح في خياشيمه، عطس فألهمه الله أن يحمده، فلما اكتلمت الروح في جسده، أمر الله الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس أبى، وجرى بين الله وبين إبليس ما تقدم ذكره، وعلى هذا، فإن أمر الله تعالى لآدم بالسلام على النفر من الملائكة، إنما وقع بعد ذلك بزمن، الله أعلم به.

ويفيد هذا الخبر، أن آدم عليه لاسلام، عاش ألف سنة.

ويظهر لي، أن خلق حواء، لم يقع بعد، بدليل أنه لم يرد ذكر لحواء في هذا الخبر.

وقال تعالى في سورة البقرة: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }.

أي: أن الله تعالى أراد أن يبتلي آدم وحواء، فنهاهما عن الأكل من شجرة من أشجار الجنّة، ولم يذكر الله تبارك وتعالى اسم هذه الشجرة ولا نوعها، ولا أحد يعرف اسم أو نوع هذه الشجرة،

وكل من ادعى معرفة ذلك، فهو كاذب، وكل شجر الجنّة طيّب كريم طاهر، وما حرمها الله عليهما إلا ليبتليهما فقط.

وقوله: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ}. أي: أوقعهما في معصية الله تعالى ، بالأكل من الشجرة، وكان الله تبارك وتعالى، قد مَكَّن إبليس من رؤية آدم وزوجه، وسماع صوتيهما، من موضعه، وأقدره الله تعالى على أن يسمعهما وسوسته، وإن لم يَرِيَا شخصه أو يسمعا صوته، كما يوسوس بنوه اليوم لبني آدم، وأما الجنة فقد كان دخوله إليها محرماً، وما كان إبليس ليجترئ على ذلك، وقد علم أن أي حيلة سوف يقوم بها لدخول الجنة، سوف لن تخفى على الله تعالى، وبالتالي، فهو لن يجترئ على فعل ذلك خشيةً من الله تعالى، فلما علم أن الله نهاهما عن الأكل من الشجرة، إهتبل عدو الله هذه الفرصة، وطمع أن يغويهما، ويوقعهما في المعصية، فيسخط الله تعالى عليهما ويمسخهما ويطردهما من الجنة كما فعل به.

وقوله: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}. أي: تلقى من الله تعالى، بإلهام منه، ما يقوله في توبته، فلما قالها آدم عليه السلام، تاب الله عليه.

وقوله: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا}. أي: أمر آدم وزوجه حوّاء بالخروج من الجنّة، ولم يكن بُدٌّ من هبوط آدم وحواء إلى الأرض، سواء وقعا في المعصية أم لم يقعا، لأنه إنما خلقهما ليعمرا وبنيهما الأرض، ولعل الله تبارك وتعالى، أراد أن يبين لآدم وحواء ولذريتهما من بعدهما شؤم المعصية، فجعلها سببا لخروجهما من الجنة.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}.

قوله: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ}. أي: تحدث بصوت خفيّ، وهذا كما يوسوس بنوه اليوم لبني آدم، فإبليس كان يوسوس لآدم وحواء، دون أن يسمعا صوته، أو يريا شخصه.

فإن قيل: كيف وسوس لهما وهو مطرود من الجنّة، وهما داخلها؟

والجواب: لا يلزم من ذلك أن يكون إبليس قريباً منهما، ولم يكن إبليس عليه لعنة الله تعالى، ليجترئ على دخول الجنّة وقد طرده الله منها، والأرجح أن الله تعالى، أمكن إبليس من رؤية شخصيهما وسماع صوتيهما، وأمكنه من أن يوسوس لهما، فتبلغهما وسوسته وهو في موضعه الذي أُخرِجَ إليه، وبذلك كان يعلم ما يجري منهما، وما يأمرهما الله به.

وقوله: {إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ}. أي: ملكين مثل الله تعالى.

وقوله: {أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}. أي: تخلدان في الحياة، فلا تموتان أبداً، مثل الله تعالى.

وقوله: {وَقَاسَمَهُمَا}. أي: أنه من شدة حرصه أن يصدّقاه، أقسم لهما أنه ناصح لهما، مع أنه إنما كان يوسوس لهما.

وقوله: {فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ}. أي: خدعهما، بتعريضهما للهلاك، ودلّاه، أي: خدعه. والتغرير: التعريض للهلاك، تقول العرب: دلّاه بغرور. أي: خدعه بأن جعله يقع في الخطأ، وعرّضه للهلاك.

وقوله: {بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا}. أي: لما ذاقا الشجرة، انكشف اللباس الذي كان كساهما الله تعالى من لباس الجنّة، وكأنه لم يكن عليهما لباس، فصارا عريانين، حيث بدت لهما سوءاتهما، والسوءاة هنا هي العورة المغلظة، وهي عورة الرجل والمرأة.

وقوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ}. أي: أخذا يقطفان من ورق الجنّة، ويعقدانها إلى بعضها البعض، ويلفّانها على خاصرتيهما كهيئة الإزار، خشيت أن يراهما أحد وهما عريانان.

وكان هذا أول ما وقع لهما من شؤم المعصية التي وقعا فيها.

وقوله: {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا}. أي: أن الله تعالى كان يعلم ما وقع منهما، ويرى ما يصنعان، فناداهما وهو على عرشه، والمناداة لا تكون إلّا من بعيد.

وقوله: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا}. أي: أقرا بخطئهما، وخضعا وذلّا واستكانا، وعلما مدى فداحة وعظم المعصية التي ارتكباها.

وهذا هو الفارق بينهما وبين إبليس، فإن إبليس لما وقع في المعصية، ازداد كِبراً وكفراً وشرّاً، فاستحق اللعن والمسخ والطرد، وأما آدم وحواء، لما وقعا في المعصية خضعا وأنابا وتابا وأقرا بخطئهما، فاستحقا العفو والمغفرة والرحمة.

وقال تعالى في سورة طه: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لّا يَبْلَى فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}.

وقوله: {وَلا تَضْحَى}. أي: ليس هناك شمس يشتد حرها وقت الضحى، فيؤذيك حرّها، كما هو الحال في الأرض التي خلقه ليسكنها.

وقوله: {فَغَوَى}. من الغِواية، وهي الضلالة. أي: ضلّ عن سبيل ربه.

وقوله: {اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}. أي: أمر آدم وحوّاء بالهبوط من الجنّة، ثم ذكّرهم، أنهما عدوّان لإبليس.

وقوله: {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا}. أي: في الدنيا، يعيش في ضنك، فتجده ضيّق الصدر، عظيم الهمّ، ولو كانت معه كنوز الأرض.

وقوله: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}. وذلك على الأرجح في النار، حيث يعمي الله أبصار أهل النار، ويصم أذانهم، ويخرس ألسنتهم، فلا تسمع إلا الشهيق والزفير.

وقوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ}. معنى أسرف، أي: أمعن وأكثر وتجاوز الحد في الغواية.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}.

عن عبدالله بن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان – يعني عرفه – فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قُبُلاً قال: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}.

رواه أحمد بسند صحيح.

وقوله: "ثم كلمهم قُبُلاً" أي: قابلهم مقابلة.

وهذا الخبر عن ابن عباس يؤكد أن آدم وحواء أُهبِطا بوادي بكة، وبكة، اشتق اسم الوادي من المصدر: بك، أي: أجتمع، وكانت بكة، تجتمع فيها السيول المتحدرة من الجبال التي حولها، والعرب يبدلون الباء ميما أحياناً إذا استحسنوا ذلك؛ لذلك أبدلوا باء بكة، بميم، فصارت تدعى: مكة.

ومن الأخبار التي ترجّح عندي أنها من وضع القصّاص في سيرة آدم عليه السلام.

ما روي من أن آدم عليه السلام أهبط بالهند، وأن حواء أهبِطت بجدة، وأنهما التقيا بعرفة، وتعارفا هناك، فسميت عرفة بهذا الاسم لهذا السبب.

ومنها ما روي من أن آدم لما أهبط بالهند كان قد قبض قبضة من ورق الجنّة، فبثّها هناك، فمنه نبتت أشجار العود، وإنما أراد واضع هذه القصّة، أن يعلل سبب وجود أشجار العود في بلاد الهند، دون سائر البلاد، والعود إنما هو تفاعلٌ يحدث في خشب أشجار الهند، من طبيعة تلك الأرض وغذائها، فيتكلس جزء من خشبها، ويصير عوداً له رائحة طيّبة، فيقتطعونه من الشجرة، ويحطمونه، ويبيعونها كِسراً.

ومنها ما روي أن آدم عليه السلام، لما أهبط إلى الأرض، كان رأسه في السماء، وقدمه في الأرض، وأن الله حطّ من طوله إلى ستين ذراع، وهذا خبر كذب.

ومنها أنه لما أهبط سار من الهند ليبحث عن حواء، فجعل الله مكان كل خطوة منه قرية، وكأن القرى والناس تنبت من الأرض، وهذا خبر كذب.

قال تعالى في سورة المائدة: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}.

ولم يبيّن الله تبارك وتعالى لنا في كتابه العزيز اسم ابني آدم، ولا ما هي القرابين التي قدماها، ولا كيف عرفا أن الله تقبل قربان أحدهما ولم يتقبل قربان الأخر، ولم يرد في ذلك خبر صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

إلّا أن اليهود رووا خبر ابني آدم بزياداتٍ الله أعلم بصحتها، وهي لا تخلوا من شيء من أكاذيبهم التي كانوا يضيفونها إلى قصص الماضين.

فقد جاء في تاريخ اليهود ما نصّه: "وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ ٱمْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «ٱقْتَنَيْتُ رَجُلًا مِنْ عِنْدِ ٱلرَّبِّ». ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، وَكَانَ قَايِينُ عَامِلًا فِي ٱلْأَرْضِ. وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ ٱلْأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ ٱلرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، وَلَكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَٱغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ. فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا ٱغْتَظْتَ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلَا رَفْعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ ٱلْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ ٱشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا». وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي ٱلْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لَا أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لِأَخِي؟» فَقَالَ: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ ٱلْأَرْضِ. فَٱلْآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. مَتَى عَمِلْتَ ٱلْأَرْضَ لَا تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي ٱلْأَرْضِ». فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «ذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ. إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِي ٱلْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ

ٱلْأَرْضِ، وَمِنْ وَجْهِكَ أَخْتَفِي وَأَكُونُ تَائِهًا وَهَارِبًا فِي ٱلْأَرْضِ، فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي». فَقَالَ لَهُ ٱلرَّبُّ: «لِذَلِكَ كُلُّ مَنْ قَتَلَ قَايِينَ فَسَبْعَةَ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ». وَجَعَلَ ٱلرَّبُّ لِقَايِينَ عَلَامَةً لِكَيْ لَا يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ. فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ ٱلرَّبِّ، وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنٍ". اهـ

وقوله: "فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِقَايِينَ" يوحي بأن الله تعالى كان يكلم قايين مكافحة، ليس بينه وبينه وسيط، وإذا كان الله سبحانه وتعالى، يتعالى عن أن يكلم أنبيائه مكافحة، إلا من شاء منهم، كما كلم آدم وموسى، فما بالك بمن ليس هو نبي، بل ولم يكن من الصالحين أيضاً، فهذا أبعد من أن يكلّمه الله كفاحاً.

ومع أن القصص الديني، وهذا موجود في القرآن الكريم، تأتي أحياناً بصيغة تفيد بأن الله تعالى يتكلم مع نبيه، إلا أنه لا يريد بذلك الكلام معه مكافحة، وإنما عن طريق واسطة أو منامٍ أو بالإلهام، إلا أنه كما يتّضح من هذا النص اليهودي، أنهم يريدون بذلك، أن الله تعالى كلم قايين كفاحاً، وهذا هو الباطل حقاً.

ولكن، من الذي كلّم قايين؟ هل هو ملاك مرسلٌ من الله؟ أم أن أباه هو من سأله عن ذلك بوحيٍ من الله تعالى؟ الراجح، أن أباه هو من سأله عن ذلك بأمر من الله تعالى له بذلك، مما فضح قايين، وأبان عن أنه قتل أخاه. ويُستبعد أن يكون ملاكاً، فالملائكة لا تنزل إلّا على أنبياء الله تعالى.

وقوله: "لَا أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لِأَخِي؟!" يظهر أن هذا القول، ظهر منه بسبب ما أصابه من الجزع، فأراد أن يتظاهر بالقوّة والثقة بالنفس، كي لا يُشكّ فيه.

وقوله: "وَجَعَلَ ٱلرَّبُّ لِقَايِينَ عَلَامَةً لِكَيْ لَا يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ". والمراد بقوله: "عَلَاَمَة" أي: علامة تفيد أن الله تعالى نهى عن قتله، والقَصاص منه، والمراد بقوله: "كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ" أي: آدم وبنيه، لأنه لم يكن هناك إنسيٌّ على وجه الأرض سوى آدم أبيه، وإخوته أبناء آدم.

وقوله: "وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنٍ". وهذا النصّ يفيد أن جنّة عدن التي أسكنها آدم عليه السلام في الأرض وليست الجنّة التي في السماء، ومن هنا أخذت بعض الفرق الضالة في الإسلام القول بأن الجنّة التي أدخلها آدم ليست في السماء بل هي جنة كان قد أعدها الله له

في الأرض، وهذا هراء، وباطل، بنصّ القرآن العظيم والأحاديث النبويّة الصحيحة، ومع أن من زعم أن الجنّة التي أُدخِلها آدم في الأرض أدلى ببعض الأخبار التي تشير إلى ذلك، إلا أن تلك الأخبار باطلة من جهة السند، والأحاديث الصحيحة تثبت بأن الجنّة التي أدخلها آدم، كانت الجنّة السماوية.

وأما كيف علما بقبول قربان أحدهما ورفض قربان الأخر، فلا يخرج عن أمرين:

الأول: أن الله أوحى إلى آدم بذلك، فأخبرهما، ليزداد المحسن إحساناً، ويراجع المسيء نفسه.

والثاني: أن الله جعل للعبد علامة يعرف بها قبول قربانه، فإذا لم يرى هذه العلامة، فهذا دليل على عدم قبول القربان.

ويظهر من الآيات، أن هابيل، كان أول ميّتٍ وأول قتيل من بني آدم، بل إنه قُتِل قبل موت أبيه آدم عليه السلام، بدليل أن قايين لم يدري كيف يصنع به بعد موته، حتى أراه الغراب، كيف يدفن أخاه، ويواريه بالتراب، فلو كان هناك ميِّت قبل هابيل، لعرف قايين كيف يدفن أخاه؛ لأن أباه كان ولا بد أنه سوف يخبرهم بما علَّمه ربه، كيف يدفن الميّت.

وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُقتَل نفسٌ ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل".

رواه البخاري ومسلم.

وهذا يدل على أن القاتل لم يتب من فعلته، وإنما شعر بالسوء لما لم يستطع أن يعرف كيف يتخلص من جثمان أخيه.

وقوله تعالى: {فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}. أي: بعد موته، ندم حيث لا ينفع الندم، عندما عاين سوء عاقبة قتله لأخيه في قبره.

لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا زال الذنب زالت عقوباته وموجباته؛ إلّا أن يكون في حق أحد من خلق الله، فإنه لا محالة سوف يقتص منه، إلا أن يشاء الله تعالى، ولكن

التائب من الذنب لا يؤاخذ إن شاء الله بما أحدث أو سنّ، ويكون كل من قلّده على فعلته متحملاً لخطيئة نفسه.

والدليل على أن القاتل له توبة، ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم -أي حكمًا- فقال: قيسوا ما بين الأرضيْن، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة".

رواه مسلم.

وفي رواية البخاري: "كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له".

وروي عن أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه عبدالله بن مسعود، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له".

ورجاله كلهم ثقات، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه عبدالله، فالسند منقطع، إلا أنه سمع من كبار أصحاب أبيه، فالحديث إسناده حسن على أقل تقدير.

ويدّعي رواة اليهود والنصارى، أن الله تتبارك وتعالى رزق أدم وحواء بعد مقتل هابيل، بولد أسمياه: شيث. وزعموا أن معناه: العِوَض. أي: أن الله تعالى عَوَّضَهم به عن ابنهم هابيل.

والصابئة يسمونه: شيتل، ويدّعون أنه كان نبيّا.

والله وحده أعلم وأحكم.

قال تعالى في سورة الأعراف: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

وقال تعالى في سورة يونس: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

وقال تعالى في سورة هود: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ}.

قوله: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا}. الأراذل، هم ضعفة القوم، ومساكينهم، وفقراؤهم، ورعاتهم.

وقوله: {بَادِيَ الرَّأْيِ}. أي: ظاهر الرأي، والبادي، معناه: الظاهر، أي: اتبعوك على ما ظهر من قولك، من غير أن يتدبروا أو يتفكّروا.

وقوله: {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}. أي: لستم من أهل الشرف والسيادة والجاه والمال، ولستم بأعقل وأعلم منّا، والفضل، هو الزيادة. أي: لم تزيدوا علينا في شيء، فكيف نظن أن عندكم علم ليس عندنا.

وقوله: {فعمّيت عليكم}. أي: أعماكم الله تعالى عن رؤية الحق، جزاء استكباركم وعتوّكم.

وقوله: {وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ}. فيه دليل على أن أشراف قومه، سألوه أن يطرد أولئك الضعفة والمساكين والفقراء والرعاة من مجلسه ليجلسوا إليه.

وقوله: {وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ}. وتجهلون بمعنى تخطئون، بمطالبتكم لي بطرد الذين آمنوا من مجلسي، وتخطئون بعدم قبولكم للحق الذي جئت به.

وقوله: {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ}. أي: لن تعجزوا الله تعالى، إذا أراد أن ينتقم منكم، بسبب تكذيبكم لنبيّه، وإعراضكم عن الحقّ الذي جاء به.

وقال تعالى في سورة المؤمنين: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ}.

قوله: {يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ}. أي: يريد أن يصير له الفضل عليكم، فيكون متبوعاً وأنتم له تبع.

وقوله: {وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلائِكَةً}. أي: ولو شاء الله أن لا نعبد شيئًا سواه؛ لأنزل ملائكة يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، ولم يرسل بشراً منكم، يكون له الفضل عليكم.

وقوله: {مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ}. أي: لم نسمع بمثل ما يدعونا إليه نوح من عبادة الله وحده، في آبائنا الذين مضوا قبلنا.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}.

قوله: {أَخُوهُمْ نُوحٌ}. أي: أنه منهم نسباً، فليس حليفاً لهم، ولا مولى، ذلك أن العرب لا تقول فلان أخو القوم، إلّا إذا كان منهم نسباً.

لا يعرف عن نسب نوح عليه السلام، أكثر من أنه من ولد آدم عليه السلام، إلّا أن رواة اليهود والنصارى، يزعمون أن نوحاً من ولد شيث.

ولا يعرف كم بين نوح وآدم، أو نوح وشيث، من الآباء، ولا يعرف اسم القبيلة التي ينتمي إليها، وكل ما ورد من ذلك في كتب التاريخ الإسلامي، منقول من كتب اليهود، وبعضه موضوع من قِبَل قُصَّاص المسلمين.

وأكثر ما ورد في كتب أهل الكتاب من أنساب مفصّلة، إن لم يكن كلّه، فهو ملفّق موضوع.

ونوح اسم عربيّ، من النَّوْحَة والنَيْحَة، وهي: القوة. وقد يكون مشتقاً من النوح، وهو البكاء بصوت، مما يدلّ على أن نوح، عربي اللسان، كأبيه آدم، عليهم السلام.

وقوله: {الْمَرْجُومِينَ}. أي: المطرودين.

وقال تعالى في سورة القمر: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ}.

قوله: {وَازْدُجِر}. أي: أن قوم نوحٍ زجروه، ومعنى زجروه، أي: نهروه ونهوه عن الاستمرار في دعوته.

وقال تعالى في سورة نوح: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ

قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا}.

قوله: {وَيُؤَخِّرَكُمْ}. أي: يؤخّر في آجالكم فلا يهلككم بالعذاب، لا بغَرَق ولا غيره.

وقوله: {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}. أي: إلى الحين الذي سمّاه، أي: كتب أنه يبقيكم إليه، بمعنى يتمّ لكم أعماركم، ولا ينقصكم منها شيئاً، إن أنتم أطعتموه وعبدتموه، في أمّ الكتاب.

وقوله: {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ}. أي:أن أجل الله الذي قد كتبه على خلقه في الكتاب، إذا جاء عنده، لا يُؤخر عن ميقاته.

وقوله: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا}. أي: أن كثرة الاستغفار، سبب في حلول البركة، وكثرة الخيرات.

وقوله: {مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}. أي: ما لكم لا تعظّمون الله تعالى، والوقار، الهيبة والعظمة.

وقوله: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}. أي: طور بعد طور، والطور هو المرحلة، أي: كنتم نطفاً في أصلاب أبائكم وأرحام أمهاتكم، ثم صرتم علقة، ثم صرتم مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم صرتم عظاماً، ثم كُسِيَت عظامكم لحماً، ثم أُخرِجتم من بطون أمهاتكم أطفالاً.

وقوله: {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا}. أي: خلق أباكم آدم من تراب الأرض، ثم جعل طعامكم الذي تنبت أجسامكم منه ينبت منها أيضاً.

وقوله: {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}. أي: يعيدكم فيها بالدفن بعد الموت، ثم يخرجكم منها عند البعث، وقوله: {إِخْرَاجاً}. للتوكيد.

وقوله: {لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا}. أي: طرقاً واسعة، فالسبيل معناه الطريق، والفجّ معناه الواسع.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ}.

قوله: {الْفُلْكِ}. أي: السفينة.

وقال تعالى في سورة يونس: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ}.

قوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ}. أي: جعل للمؤمنين الذي صعدوا في الفلك مع نوح عليه السلام، ذريّةً يخلف بعضهم بعضاً على هذه الأرض، وفي هذا دليل، على أن من آمن مع نوح، لم تنقطع أعقابهم مباشرة، بل توالدوا وتناسلوا.

وقال تعالى في سورة هود: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

وقوله: {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ}. أي: يسخرون منه، لأنه يصنع السفينة في مكان لا بحار فيه.

وقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا}. أي: أمر الله بعذابهم.

وقوله: {وَفَارَ التَّنُّورُ}. أي: أن الله تعالى جعل علامة بداية العذاب أن يفور التنور ماءً، والتنور، وجمعه تنانير، هي الأفران المبنيّة بالطين، والمعدّة لخبز الخبز، حيث يوقد الخبّاز النار في داخل التنور، لطهي الخبز، فعادة التنانير تفور فيها النيران، فإذا كانت التنانير تفور ماءً، كانت هذه علامة بارزة، لمخالفتها ما جرت به عادة التنانير، فجعلها الله علامة بينه وبين نوح، أن هذا إيذان ببداية الطوفان.

وقوله: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}. أي: أمره أن يحمل من كل نوع من الدواب البريّة والطيور، ذكرين وأنثيين. وهذا يدل على أن الطوفان، عَمّ جميع الأرض، لأنه لو لم يَعمّ جميع الارض، ما أحوج الله تعالى نوحا إلى حمل زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات.

وقوله: {وَأَهْلَكَ}. أي: أهل بيته، والأهل يطلق على الزوجة والأبناء والبنات.

وقوله: {إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ}. أي: من سبق في علم الله أنه لا يؤمن، وأنه سوف يهلك مع الهالكين، والمراد به هنا زوجة نوح وأحد أبناءه، لأنهما كانا كافرين.

ويزعم رواة اليهود، أن زوجة نوح كانت فيمن ركب السفينة معه، وهذا كذب؛ لأنها لم تكن مؤمنة، ولم يركب السفينة مع نوح إلا من آمن، وأهل نوح، إلّا من استثنى الله تعالى، وهم الكفرة من أهل بيته، والذي تبيّن من خلال آيات القرىن الكريم، أنهم زوجته وأحد أبنائه.

والصابئة، يزعمون أن اسم ابن نوح الهالك: يام. وقد انفردوا بهذا القول.

بينما يجمع رواة أهل الكتاب، بأن لنوح ثلاثة أبناء أخرين، وهم: سام وحام ويافث.

ولم يرد ذكر لاسم زوجة نوح في القرآن الكريم، أو الأحاديث النبويَّة، وأما رواة اليهود والنصارى، فيختلفون في اسمها على عِدَّة أقوال، فأحياناً يسمونها: أيمزارا، وأحياناً: أميزارا، وأحياناً: بارثين، وأحياناً: هايكال، وأحياناً: سِتّ، وأحياناً: نِعْمَة.

وأما الصابئة، فيزعمون أن نوحاً تزوّج بامرأتين، هما: نهريثا ورُها.

ويدعي الصابئة، أن نهريثا هي أم سام، بينما رها، هي أم يافث وحام ويام.

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال، بأن نوحا، كان متزوّجا بامرأتين: فأما أحدهما، فأنجبت له: يافث وحام ويام، وأما الأخرى، فأنجبت له: سام. حيث كان يام وأمه كافرين، وهلكا في الطوفان، وبقي ابناه: يافث وحام، كما بقيت زوجته الأخرى، وابنها سام.

وهناك احتمال أخر، وهو: ان نوحاً كان متزوّجاً بأم يافث وحام ويام، قبل الطوفان، ثم تزوّج نوح أم سام، بعد الطوفان، لأنني لا أظن أنه سوف يبقى أعزباً بعد الطوفان، وهذا يعني أن سام لم يدرك الطوفان، بل ولد بعده. ولعل هذا يفسّر لنا أن الصابئة، لم يذكروا أن أمه أنجبت سواه، فيكون نوح، لم ينجب سام إلا على كِبَر. ولكن، قد يقول قائلٌ: قد يكون تزوّجها قبل الطوفان، ولم تنجب له ولدا ذكرا سوى سام، بينما بقيّة ولدها منه، إناث. وهذا محتمل.

والحقيقة أن جميع ما ذكر عن أسماء زوجات نوح وأبنائه، لا يمكن الوثوق به، ولو صحّت، فلا يمكن التأكيد على صحة ترجمة أسماء زوجات نوح، لأنها مترجمة عن لغة أعجمية، بينما تبدو أسماء أبناء نوح، أسماء مقبولة لفظاً، ولكن أقرب الأسماء إلى الصحة، هي: نِعمَة، ورُها، خصوصاً وأنها أسماء عربيّة، فتكون رُها هي أم يافث وحام ويام، بينما نِعمَة، هي أم سام.

وكل ما سبق، مجرد افتراضات لا أكثر.

وقوله: {وَمَنْ آمَنَ}. أي: واحمل معك من آمن من قومك.

وقوله: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}. أي: اعتدلت في استقرارها على جبل الجودي، وجبل الجودي، جبل بالجزيرة الفراتية، قاله مجاهد، رواه البخاري. والعرب لا تقول استوى الشيء على الشيء، إلّا إذا كان مستقراً عليه، مماسّاً له.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}.

وقال تعالى في سورة المؤمنين: {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ}.

وقال تعالى في سورة الفرقان: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ}.

قوله: {الْمَشْحُونِ}. أي: الممتلئ، بالإنس والدواب والطيور.

وقال تعالى في سورة العنكبوت: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ}.

قوله: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا}. أي: أنه مكث يدعو قومه خمسين وتسعمائة سنة، وصدر الآية، يدل على أن هذه المدّة، هي المدّة التي مكثها نوح في دعوة قومه إلى الإسلام، لا أنه عمر نوح كُله، ولم يرد في الكتاب ولا في السنّة الصحيحة، ما يدلنا كم عاش نوح عليه السلام.

وقال تعالى في سورة الصافات: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ}.

قوله: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ}. يثني الله تعالى على نفسه.

وقوله: {الْكَرْبِ}. أي: الهمّ.

وقوله: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ}. أي: جعلنا ذريّة نوح هي الذُريَّة الباقية، فكل من بقي اليوم، هو من ولد نوح فقط، دون غيره من المؤمنين، وهذا لا يعني أن المؤمنين الذين آمنوا معه لم يكن له ذرية، بل كانت لهم ذرية، وإنما تكاثر بنو نوح وأبناء المؤمنين الذين آمنوا معه، حتى صاروا أمة من الناس، فأخذت أعقاب من آمن مع نوح تنحسر وتقل شيئاً فشيئاً، يقابل ذلك ثراءً وازدياداً في ذرية نوح، حتى لم يبقى من ذرية من آمن مع نوح أحد، فكان جميع من بقي من الناس، هم من ولد نوح عليه السلام.

وقوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ}. أي: تركنا له ذَكراً حسناً في الأجيال التي جاءت بعده.

وقال تعالى في سورة القمر: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}.

قوله: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ}. أي: أن الماء الذي صبّ على قوم نوح، أرسله الله تعالى من فوق السماء الدنيا، أنشأ الله سحابه من حيث يشاء، وفتحت له أبواب السماء حتى اجتمع فوق رؤوسهم، وانهمر عليهم.

وقوله: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}. أي: على السفينة، والدُسُر، هي المسامير.

وقوله: {وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}. أي: تركناها آية لمن بعدهم.

عن قتادة قال: ألقى الله سفينة نوح على الجوديّ حتى أدركها أوائل هذه الأمة.

رواه الطبري.

قلت: في قوله نظر، والذي يظهر لي، أن المراد بذلك، أن الله تعالى أبقى أثر السفينة على جبل الجودي، فهو موجود إلى اليوم.

وقال تعالى في سورة التحريم: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}.

قوله: {فَخَانَتَاهُمَا}. أي: خانتاهما في دعوتهما، فكذبتا بما جاء به أزواجهن من الحق.

وقوله: {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}. أي: لم يغني عنهما من الله تعالى، أن كانتا زوجتا نبيّين من أنبياءه، فلم يكفّ عنهما العذاب، وهذا دليل، على أن قرابة الأنبياء لا تغني عن الكافر والفاسق شيئاً، وإنما يغني عن العبد طاعته لربه.

وقال تعالى في سورة نوح: {قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالا مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا}.

قوله: {وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}. أي: أصنامهم التي يعبدون من دون الله تعالى، ويتخذونها وسائط وشفعاء لهم عند الله تعالى.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: "أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت".

رواه البخاري.

وعن عبدالله بن عباس قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع".

رواه البخاري.

فإن قيل: كيف وصلت أصنام قوم نوح إلى العرب؟

فالجواب: أن هذه الأصنام لما ضربها الطوفان، تَدفّنّت في بطحاء تهامة، قريب مكّة، فلما كثر ولد إسماعيل بتهامة، ودخلهم الشرك وعبادة الأوثان، وكثر فيهم الكهنة والمشعوذون، دلّتهم شياطينهم على هذه الأصنام، وأخبرتهم بأسمائها، وأمرتهم أن يدعو العرب إلى عبادتها، فنصبوها بمكة، ودعوا الناس إلى عبادتها، واحتاروا من كل أهل ناحية حيّاً من العرب، فأعطوه صنماً ليعبدوه، ويدعو أهل ناحيتهم لعبادته.

وهذا يدل على أن نوحا وقومه كانوا يقيمون بمكة ونواحيها، وإلا لما تدفّنت اصنامهم ببطحاء مكة.

ولهذا فإن السفينة أقلعت من مكة حتى استوت على الجودي، أي أنها قطعت ما يقارب ألف ميل.

وقوله: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ}. دعا لوالديه بالمغفرة، وقد يكون دعاء نوح لوالديه قبل أن يتوفيا، وقد يكونا ماتا على الإسلام، فدعا لهما بالمغفرة.

وأما ما روي من أن نوحا لما انتهى الطوفان، بعث الغراب، فلم يعد، ثم بعث الحمامة، فجاءت وفي رجليها طين، وفي فمها غصن زيتون، فهذا من أوضاع الرواة، فهذه الرواية توحي وكأن نوحا والذين معه، لا يستطيعون الخروج من السفينة، ولا يستطيعون رؤية الأرض، ومعرفة ما إذا جفّت من الماء أم لا! وهنا نتسائل: فكيف إذا استطاع أن يطلق الغراب والحمامة؟! وكيف استطاعتا أن تخرجا من السفينة؟! إن في هذا دليل قاطع، على كذب هذه الرواية، وأنها مختلقة.

والله أعلم وأحكم.

هل كان بين آدم ونوح أنبياء ؟ وكم المدّة بينهما ؟

والجواب: الله أعلم، فليس لهذه المسألة جواب جليّ، وإنما هي ظنون وتخرصات.

فمن زعم أن نوح هو أول نبي بعث إلى الناس، فقد احتج بقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}. [النساء]

فقال: بأن الله تعالى حصر النبوّة فيمن جاء بعد نوح عليه السلام، فدلّ هذا عنده على أنه لم يكن هناك نبيٌّ قبل نوح عليه السلام.

وهذه الآية ليست صريحة في أن نوح هو أوّل نبي، ولا أدل على ذلك، من أن آدم عليه السلام والد البشر جميعاً كان نبيّاً، نبيٌّ بُعث إلى بنيه وبني بنيه، بشريعة أُلزم بالعمل بها وبدعوة أبنائه إلى العمل بها.

فتبيّن بطلان الاحتجاج بهذه الآية.

ومن زعم أن نوح لم يكن أول نبي، وأنه لابد أنه بعث قبله أنبياء من أبناء آدم الآخرين، فقد احتج بقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}. [الحديد]

فقال: بأن الله ذكر في هذه الآية بأنه حصر النبوّة في ولد نوح، وهذا يعني أنه لا بد أن هناك أنبياء من أبناء آدم الآخرين، سبقوا نوحاً عليه السلام.

وهذه الآية أيضاً ليست صريحة في إثبات وجود أنبياء من قبل نوح عليه السلام، سوى آدم عليه السلام، لأنه قد لا يكون بينهما نبيّ، وأن نوحا عليه السلام، هو أول نبيّ بُعث إلى الناس بعد آدم عليه السلام.

والله أعلم بالصواب.

وأما بخصوص المدة التي تفصل بين آدم ونوح.

فقد روي عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح، عشرة قرون كلهم على الإسلام.

وزعم ابن كثير في تاريخه أن البخاري رواه في صحيحه، ولم أجده في صحيح البخاري، وإنما رواه بهذا اللفظ ابن تيمية في تلبيس الجهمية، ولم أجده في شيء من كتب الحديث،

إلا أن الحاكم النيسابوري روى نحوه في مستدركه، وزعم أنه على شرط البخاري.

حيث روى الحاكم عن عكرمة عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهُما، قالَ: كان بيْنَ آدمَ ونوحٍ عشرةُ قرونٍ كُلُّهم على شرائعِهِم مِنَ الحقِّ، فلمّا اختلفوا بَعَثَ اللهُ النَّبيِّينَ والمرسلينَ، وأَنزلَ كتابَهُ فكانوا أُمَّةً واحدةً.

قلت: وهذا خبر موقوف عن ابن عباس وهو كما يظهر نقله عن رواة أهل الكتاب، ولكن أضاف الإمام ابن عباس إليه قوله: "كلهم على شرائع الحق"

ولو كانوا على شرائع الحق ما بعث الله إليهم نبيّه نوح عليه السلام، ولا عبد قومه الأوثان.

فهذه الزيادة بيّنت بطلان هذا الخبر.

وقد حاول البعض تأويل هذا الخبر، بقوله أن مراد ابن عباس، أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون على الإسلام، ثم نشأت بعد ذلك قرون وقعت في الشرك، بعث في أخرها نوح عليه السلام.

وهذا رأي مرجوح، فإن ابن حبّان الجهمي روى في تقاسيمه، عن أبي أمامة، أن رجلًا قال: يا رسول الله: أنبي كان آدم؟ قال: نعم مُكلَّم. قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون.

فهذا الحديث يدل على الحصر في عشرة قرون.

وإن كان سند هذا الخبر صحيحاً، إلا أن تفرد ابن حبّان بروايته، يدعو إلى الشك في أن إسناده مركّب، وأنه لا يصح، وأنه ليس سوى خبر منقول عن أهل الكتاب.

فكيف أخطأ أئمة الحديث الأوائل هذا الحديث، وعثر عليه ابن حبّان؟!

وهذا كله حسبما يظهر لي إنما هو مأخوذ عن أهل الكتاب، فإنهم يزعمون أن بين آدم ونوح عشرة قرون، أي: أجيال، بل وذكروا أسماءهم اسماً اسماً.

ولكن ومن خلال معرفة سابقة بكتب أهل الكتاب، أستطيع الجزم بكذب ما ورد في كتبهم.

فالسؤال هنا: هل حقاً بين آدم ونوح عشرة قرون؟

والجواب: الله أعلم، فقد يكون هذا صحيحاً، وقد لا يكون صحيحاً، وقد تكون الأجيال التي بين آدم ونوح أقل وقد تكون أكثر.

وأما الادعاء بأنهم كلهم على الإسلام، فهذا باطل.

وأما أسماء الآباء الذين ذكرهم أهل الكتاب ونقلها عنهم مؤرخو المسلمين، فالأرجح أنها موضوعة، ولا حقيقة لها.

ذلك أن كتب الله المنزلة على عباده، ليس كتب تاريخ وأنساب، وإنما هي كتب شرائع ومواعظ وترغيب وترهيب، لا تخرج عن هذا المعنى، حتى ما يرد فيها من قصص الأمم الماضين، إنما يجاء به للوعظ والترهيب والترغيب، وهي قصص مقتضبة، لا يذكر منها إلا ما فيه فائدة دينيّة للقارئ والسامع،وليس في معرفة الأنساب ما يفيد شرعاً، فدلّ هذا على أن الأنساب المذكورة في كبت أهل الكتاب، إنما هي من إضافة قصاصهم، فكيف عرف قصاصهم هذه الأسماء، وأعدادها، بل قد ثبت كذبهم في مواضع منها، ككذبهم في اسم والد إبراهيم، وكذبهم في اسم والد موسى وكل هذا سوف ياتي معنا إن شاء الله في قابل الأيام.

والراجح في هذه المسألة، أن الأرض في زمن نوح عليه السلام، كانت قد عُمِرت ببني آدم، وانتشروا في مناكبها، وكانوا شعوباً وقبائل، وأن الشِرك فشى في هذه القبائل، حتى استحكم فيهم، حتى غلب على قوم نوح، ولهذا بعث الله الطوفان ليعُم جميع الأرض، ويغسلها من جميع المشركين ورِجسهم.

والله أعلم وأحكم.

بناء مدينة بابل

قال تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة]

لما كثر بنو نوح بسفح جبل الجودي، أخذوا يتفرقون في البلاد شيئاً فشيئاً، فمنهم من اتجه شمالاً، ومنهم من اتجه شرقاً، ومنهم من اتجه غرباً، ومنهم من اتجه جنوباً.

فنزلت طائفة من بني نوح عليه السلام بالعراق، وبنو لهم مدينة اسمها بابل.

وبابل اختصار لكلمة: باب إيل، أي: باب الله. فاختصر الاسم إلى: بابل، كما نقول في جبرائيل: جبريل، وفي ميكائيل، ميكال، ونحو ذلك.

ومن تسميتها يظهر وبجلاء، أن من قام ببنائها هم طائفة من المؤمنين بالله تعالى، وأنهم كانوا على دين أبيهم نوح عليه السلام.

وهي أوّل بلد تعلّم وعَلّم السحر، وكان السبب في ذلك، أن الله تعالى أنزل ملكين كريمين، أحدهما اسمه: هاروت، والأخر اسمه: ماروت. وأمرهما أن يعلما الناس السحر، فتنة وابتلاء من الله لخلقه، كما يبتليهم بصنوف من البلايا، ويفتنهم بصنوف من الفتن، والدليل على ذلك قوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ}. أي: إنما أنزلنا لنعلّم الناس السحر.

وأمرهما أن يعظا الناس قبل أن يعلموهم السحر، فيقولا لكل من قدم عليهما ليتعلم السحر: إنما نحن فتنة، أي: أنزلنا الله فتنة للناس، وأن هذا العلم لا يتعلمه أحد إلا كفر الكفر الأكبر، وخرج من الإسلام، فلا تكفر ولا تخرج من الإسلام، فإن أبى وأصر علّماه.

فهبطا في صورة بشر من بني آدم، واتخذا لهما منزلاً في بابل، والدليل على ذلك قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [الأنعام] أي: أن الله تعالى لا ينزل ملكاً للبشر، لأيّ أمرٍ كان، إلّا وهو في صورة بشر، ويعيش كما يعيش البشر، في الظاهر.

وأظهرا أن عندهما علمٌ ليس يعرفه إلّا هما، فتقاطر الناس عليهما، يتعلمون منهما السحر، فكان لا يأتيهما أحد إلا وعظاه وحذّراه، كما أمرهما ربهما، فإن أبى وأصرّ، علّماه، فهلك بسببهما أُمَّةٌ من الناس، وأقام هاروت وماروت في بابل ما شاء الله أن يقيما، ثم ارتفعا إلى السماء من حيث جاءا.

فما لبثوا زماناً، حتى صارت بابل جحراً للسحرة والمشعوذين والكهنة والمنجمين والعرافين والفلاسفة؛ الذين لم يكونوا سوى حفنة من الدجالين، الذين يمتهنون السحر والكهانة والتنجيم، ويسمونها: المعرفة والحكمة!

وقد انتقلت الفلسفة من بابل إلى مصر، ومن مصر إلى اليونان، حيث كان اليونان أوّل من دونها، وحرّرها في الكُتُب.

يقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون، في كتابه: حضارة بابل وآشور، ما نصّه: "وهكذا كان الإغريق الراسخون في المدنيّة، يقولون بأعلى صوتهم، أنهم أخذوا مدنيّتهم عن مدارس العِلم القديمة، التي أزهرت فوق مجرى الفرات الأدنى، في العصور القديمة". اهـ

ويقول: "ولذلك كان يقول ديودوروس وهيرودوتس وسترابون وأرسطو وآخرون — وهؤلاء من كبار فلاسفة اليونان – أن نمو العقل البشري، كان مترعرعاً وكاهلاً فوق ضفاف الفرات، قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل". اهـ

قلت: ولا شك أن من أبرز هذه العلوم، العلوم الفلسفية، وما تحتويه من شعوذة ودجل.

وكان ذلك قضاء قضاه الله تعالى، ليميز الخبيث من الطيّب، والمصلح من المفسد، والصادق من الكاذب، ومن يريد الأخرة ومن يريد الدنيا.

وأما الروايات المذكورة في كتب التاريخ والسِيَر عن هاروت وماروت، فهي روايات موضوعة مختلقة.

قال تعالى في سورة الأعراف: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ}.

قوله: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا}. أي: أنه أخوهم في النسب، فليس حليفاً لهم، ولا مولى، وأما النسب المذكور لهود وقومه عاد في التواريخ، فهي أنساب موضوعة، من وضع القصّاص، فلا يعرف لهود ولا لقومه عاد نسب.

وهو اسم عربيّ، مشتق من هاد، بمعنى آب ورجع، فمعنى هود: أي، العائد أو الراجع.

وكذلك اسم قومه عاد، مشتق من العود، وهو الأوب والرجوع، تقول العرب، هاد وعاد وآب ورجع، معانٍ مترادفة.

وقوله: {خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}. أي: أن هود هو أوّل نبي بعث بعد نوح عليه السلام، وبما أنه بعث بعد نوح عليه السلام، فهذا دليل على أن هود وقومه عاد، من ولد نبي الله نوح عليه السلام، لما قدمنا من أن الله تعالى، حصر النبوة في ولد نوح عليه السلام.

وهذا يفيدنا في أن المدة الزمنية التي كانت تفصل بين نوح وهود، كانت مدّة طويلة جداً، لأن سلالة الرجل الواحد، تحتاج إلى مدة طويلة جداً، لتصبح شعوباً وقبائل.

وقوله: {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}. أي: كانوا طويلي القامة، مفتولي العضلات، تامّي الأجساد، يفوقون غيرهم من البشر طولاً ولياقةً، وهذا لا يعني أنهم كانوا عمالقة في الطول، بل معنى هذا، أنهم كانوا بالنسبة لغيرهم من القبائل والشعوب أطول وأعرض وأكمل أجساماً، إذ كان قصر القامة، صفة شاذّة بين رجالهم ونسائهم.

وقوله: {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم}. أي: أتجادلونني في الأصنام، التي سمّيتموها أنتم وآبائكم بأسمائها، وادعيتم فيه الألوهية!

وقوله: {مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}. أي: لم يأمركم الله تعالى بعبادتها، إنما عبدتموها من تلقاء أنفسكم.

وقوله: {فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ}. ولم يخبرنا ربنا ولا رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أي أرض وقع، ولا ما جرى له بعد ذلك، إلا أنه لا شك أنه توجه إلى أرض عيّنها الله له، ليتخذها سكناً هو والمؤمنون معه، وبقي هنالك حتى وافاه أجله المحتوم.

وقال تعالى في سورة هود: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}.

قوله: {فَكِيدُونِي جَمِيعًا}. أي: خطِّطوا للخلاص منّي.

وقوله: {ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ}. أي: لا تؤخروني، ومعنى: لا تنظرون، أي: لا تؤخرون.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ}.

قوله: {رِيعٍ}. والريع هو الطريق في الجبل.

وقوله: {آيَةً}. أي: بناءً بديعاً غاية في الجمال.

وقوله: {تَعْبَثُونَ}. أي: تترفهون بشكل مفرط، وهذا من العبث.

وقوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ}. أي: تعملون مصانع، والمصانع هي كل بناء صنعه الإنسان، سواء كان قصراً أو ضريحاً أو حصناً أو مجاري للمياه، والراجح أن المراد به هنا القصور، وتشير الآية إلى أن مصانعهم كانت متينة أو قويّة، فكأن من بناها يظن أنه سوف يعيش إلى الأبد.

وقال تعالى فبي سورة فصّلت: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ}.

قوله: {رِيحًا صَرْصَرًا}. أي: ريحاً باردة، تسمع لها صرير من شدّة برودتها.

وقال تعالى في سورة الأحقاف: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ

مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون}.

قوله: {بِالأَحْقَافِ}. والأحقاف هي بلاد عاد، وقد اختلف في موضعها، فقيل بالشام، وقيل باليمن، ناحية الشحر.

قوله: {لِتَأْفِكَنَا}. أي: لتصرفنا.

وقوله: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ}. أي: مكناهم فيما مكناكم فيه، من الشرف والجاه والثروة والقوة.

وقال تعالى في سورة الذاريات: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}.

قوله:{الرِّيحَ الْعَقِيمَ}. أي: الريح التي لا خير فيها، بل هي شرٌ على من أرسلت عليهم، فهي عقيم من كل خير.

وقوله: {كَالرَّمِيمِ}. أي: كفتات العشب اليابس.

وقال تعالى في سورة القمر: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}.

قوله: {تَنزِعُ النَّاسَ}. أي: تجذبهم بقوة، وتطوّح بهم، وتلقيهم على الأرض.

وقال تعالى في سورة الحاقة: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ}.

قوله: {بِالْقَارِعَةِ}. أي: بيوم القيامة، والقارعة، اسم من أسماء يوم القيامة.

وقوله: {فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ}. أي: لم يبقى من عاد بقيّة، سوى هود والمؤمنون معه، ومما لا شك فيه، أن هذه الطائفة المؤمنة من قبيلة عاد، تناسلوا وتكاثروا، وربما شكّلوا قبيلة عاشت قروناً طويلة، وربما أن ذراريهم ارتكست إلى الكفر والشرك بالله تعالى، ولكن حتى هؤلاء ما تعاقب اللي والنهار، حتى تلاشوا شيئاً فشيئاً ولحقوا بالأمم البائدة، وذلك قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بمدّة الله أعلم بها.

وقال تعالى في سورة الفجر: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ}.

قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ}. سؤال تقريري.

واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى: {إرم ذات العماد}. على أقوال عديدة:

القول الأول: أن إرم اسم أبٍ من آباء عاد، وأخذوا هذا القول مما ورد في كتب أهل الكتاب، حيث ورد فيها: أن سام بن نوح، أعقب خمسة بنين، أحدهم يدعى: أرام. فرجّحوا أن يكون أرام خطأ في الترجمة، وأن صوابه: إرم، ثم أرادوا الجمع بين عاد وإرم، فلم يجدوا إلّا أن يقولوا: بأن عاد بن إرم.

ولكن أهل الكتاب ذكروا في كتبهم، أن أراماً هذا، أعقب أربعة بنين، وهم: عوص، وحول وجاثر وماش. ولم يذكروا أن لأرام ولد اسمه: عاد! وهنا يأتي دور القصّاص، الذين لهم دور بارز في اختلاق الأنساب والوقائع، ليزعموا لنا، بأن عاد بن عوص بن أرام — الذي هي عند أصحاب هذا القول: إرم – بن سام بن نوح! وهو نسب كما يظهر مكذوب.

لذلك قالوا في تفسير قوله تعالى: {ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد}. بأن الضمير في قوله: "ذات" وقوله: "التي لم يخلق مثلها" عائد إلى هذه القبيلة، التي تدعى: إرم، ثم اختلفوا في تأويل هذه الآية على قولين:

الأول: أن معناها أن أفرادها متّصفون بأنهم ذوو العماد، والتي فسّروها بأن المراد بها أنهم ذوو طول فارع، وأنهم لم يخلق مثلهم في البلاد، في طولهم وجسامتهم، أخذوا ذلك من قول العرب: رجل طويلُ العِماد، إذا كان مُعْمَداً، أي: طويلاً.

والثاني: أن معناها، أنهم أهل خيام، والخيام تقوم على العمد، أي: أنهم أهل حِلٍّ وترحال، كما تقول العرب عن أهل الخيام: أهل عِمَاد، وأهل عَمَد.

والثالث: أن معناها، أنهم أهل مجد وشرف، والعرب تقول: فلان رفيعُ العِمادِ؛ يريدون بذلك عِمادَ بيتِ شرفه، والعرب تضع البيت موضع الشرف في النسب والحسب.

وشذّ أخرون من أصحاب هذا القول، فقالوا: بأن إرم بن عاد، وأنه أشرف بطن في عاد! ولا أعلم لمن قال بذلك، دليل يعوّل عليه!

والعجيب أن محمد بن جرير الطبري، رجّح هذا القول، حيث قال في تفسيره: "وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندي أنها اسم قبيلة من عاد، ولذلك جاءت القراءة بترك إضافة عاد إليها، وترك إجرائها، كما يقال: ألم تر ما فعل ربك بتميم نهشل؟ فيترك إجراء نهشل، وهي قبيلة، فترك إجراؤها لذلك، وهي في موضع خفض بالردّ على تميم، ولو كانت إرم اسم بلدة، أو اسم جدّ لعاد لجاءت القراءة بإضافة عاد إليها، كما يقال: هذا عمروُ زبيدٍ وحاتمُ طيء، وأعشى هَمْدانَ، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى" اهـ

وهذا الذي قاله، خطأ فاحش، لأسباب:

أولها: أن العرب لا تقول: تميم نهشل. بل تقول: نهشل تميم. للتمّييز بينها وبين ما يشبهها في الاسم من البطون الأخرى في القبائل الأخرى. ولا أدري من أين جاء الطبري بأن العرب تقول: تميم نهشل! ولكن لا يستغرب هذا من كتب اللغة، إذا علمنا أن أكثر من ألفها، هم من الأعاجم، وكثير منهم يرضخ من رأسه، ويؤلف كلاما للعرب لا تعرفه!

وثانيها: أن احتجاجه بقول العرب: حاتم طيء، على أن العرب تقول: تميم نهشل، باطل، لأن قول العرب: حاتم طيء، يصحّ أن يكون مثالاً على قول العرب: نهشل تميم، وليس العكس!

لأن العرب تريد أن تميّز حاتماً عن غيره ممن يحمل نفس الاسم من الرجال المنتمين إلى القبائل الأخرى، بكونه حاتم طيء، مثلما أن العرب، تريد أن تميّز نهشل تميمٍ، عن غيره ممن يحمل نفس الاسم من البطون، بكونه نهشل تميم.

القول الثاني: أن المراد بـ "إرم" أي: القديمة، أخذوا ذلك من قول العرب: أرم، أي: لحقه البلاء، كما تقول العرب: أرمّت عظامه. أي: بليت.

القول الثالث: أن المراد بـ "إرم" أي: الهالكة، أخذوا ذلك من قول العرب: أرِم بنو فلان. أي: هلكوا.

ومراد أصحاب القولين الثالث والرابع، أن قوله {إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد}. هو وصف لعاد، ومضاف إليه، فهي: قبيلة أو مدينة قديمة هالكة، كانت ذات مجد وشرف، ولم يخلق مثلها في البلاد، قوةً وشجاعةً وربما طولاً وضخامةً في أجسامهم.

القول الرابع: أن إرم اسم مدينة، وهؤلاء يفسرون قوله تعالى: {ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد}. بأنه وصف لإرم، التي هي عندهم مدينة، أي: إرم المدينة ذات البناء الرفيع. والعرب تصف الأبنية الرفيعة، بالعِماد. والواحدة عمادة.

وقد يكون قوله تعالى: {ذات العماد}. المراد به، ذات المجد والشرف، فالعرب يصفون المدينة بذلك، كناية عن أن أهلها أهل مجد وشرف.

وربما كانت عاد اسم قبيلة ومدينة في آنٍ معاً، لأنه عرف عن العرب قديماً، أنهم قد يطلقون أسماء قبيلتهم على مدينتهم، فتحمل مدينتهم اسم قبيلتهم، وعلى هذا فإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، هو وصف لعاد القبيلة والمدينة.

إلا أن أصحاب هذا القول، تخبّطوا في تحديد مكان هذه المدينة، فبعضهم قال: هي دمشق. وبعضهم قال: هي الإسكندريّة. وبعضهم قال بأنها مدينة كانت بالرمال الواقعة جنوب الجزيرة العربية، بين حضرموت وعمان، وتعرف بالرملة، كما تعرف بالربع الخالي، ولا أعلم أن أحداً من

أصحاب هذه الأقوال، جاء بدليل بيّن على ما يدعيه، إنما هم يظنون ظناً، والظن لا يغني من الحق شيئا.

والراجح من هذه الأقوال، أن الوصف المذكور في الآية، يراد به مدينة، كانت قبيلة عاد تتخذها عاصمة لها، سواء كان اسم هذه المدينة عاد أو كان اسمها إرم، وقد بيّنت سابقاً أن القول بأن إرم اسم قبيلة، قولٌ ضعيف، يُرْغب عنه.

وزيادةً على ذلك، فإن في القرآن العظيم، ما يرجّح أنها مدينة، هو قوله تعالى: {أتبنون بكل ريع آية تعبثون}. من البناء، أي: أن عاد كانوا قوماً حاذقون في بناء الأبنية، فإذا نظرنا في هذه الآية، وتمعنّا في قوله تعالى: {ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد}. ترجّح عندنا أن ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، هي وصف لمدينة، بناها قوم حاذقون في بناء الأبنية.

فيكون معنى قوله تعالى: {ألم ترى كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد}. أي: ألم ترى كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم ذات العماد. أو قد يكون معناها: ألم ترى كيف فعل ربك بقبيلة عاد الذين يقيمون بمدينة إرم ذات العماد.

والله وحده أعلم بالصواب.

ولم يرد في الآيات وما صح عن النبي من الأخبار، ما يفيد الموضع الذي استقر فيه هود والمؤمنون معه، بعد خروجهم من ديارهم، ولكن لعلهم انحازوا إلى أرض قريبة من أرضهم، والله تعالى لا يأتي من قصص الأنبياء مع أقوامهم، إلا بما فيه عبرة وعظة.

وجميع الروايات التي رويت في خبر هود عليه السلام وقومه، مما لم أذكره هنا، قد ترجّح عندي، أنها من إفك القُصّاص ووضعهم، لذلك أعرضت عن ذكرها.

عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها، فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وبلال متقلد السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها، قال: فجلست، قال: فدخل منزله – أو قال: رحله – فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت، فسلمت فقال: "هل كان بينكم وبين بني تميم شيء؟ " قال: فقلت: نعم، قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزا، فاجعل الدهناء، فحميت العجوز، واستوفزت، قالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مضرك؟ قال: قلت: إنما مثلي، ما قال الأول: معزاة حملت حتفها، حملت هذه، ولا أشعر أنها كانت لي خصما أعوذ بالله، ورسوله أن أكون كوافد عاد قال: " هيه، وما وافد عاد؟ " وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عادا قحطوا فبعثوا وافدا لهم، يقال له: قيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج جبال تهامة، فنادى: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت مسقيه، فمرت به سحابات سود فنودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رمادا رمددا ولا تبق من عاد أحدا، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح، إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا، قال أبو وائل: وصدق قال: " فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدا لهم، قالوا: لا تكن كوافد عاد ".

رواه أحمد.

قلت: وهذا المتن أصحّ متن لهذا الخبر.

وهذا الخبر الذي رواه الحارث البكري عن قبيلة عاد، هو مما كانت العرب ترويه في أخبار عاد، وما أوقعه الله تتبارك وتعالى بهم، والقصَّاص كما اسلفت، قد يهمون ويخطؤون في نقل الخبر، ويخلطون في الخبر، فيزيدون أو ينقصون.

فمما وهموا فيه وأخطئوا وزادوه في خبر عاد، هو قولهم، أن عاد قحطوا، وقولهم: أن الله بعث عليهم ريحاً حارّة، وقال: خذوها راداً رمددا، أي: حارّة، شديدة الحرارة، تجعل كل شيء تمر عليه رماداً. وهذا خطأ، فالله تعالى وصف الريح التي بعثها على عاد، بأنها ريح صرصر، أي: ريحٌ باردة، شديدة البرودة، يُسمَع لها صرير من شِدَّة برودتها.

ومما زادوه في هذا الخبر، وخلطوا فيه، أن عاداً لما قحطوا، بعثوا وافدهم إلى جبال تهامة، يريدون بذلك أنهم بعثوه إلى الحرم، ليستغيث لهم هناك، يبتغون البركة، وأنه مرّ على معاوية بن بكر بن هوازن وأقام عنده شهراً .. إلى أخر الحديث. وهذا الخبر يفيد أن ما وقع لعاد، وقع بعد إسماعيل عليه السلام، وهذا فيه نظر، فإن الله تعالى دائماً ما يذكر عاداً وثمود، قبل إبراهيم وقومه، في إشارة واضحة إلى أن عاد وثمود كانوا قبل إبراهيم وقومه، ولذلك يستحيل أن يلتقي أحد أفرادهم بمعاوية بن بكر، بل يستحيل أن يلتقي بإبراهيم وابن إسماعيل، الذي يعتبر معاوية بن بكر، أحد ذريَّته البعيدين.

لذلك فخبر الحارث البكري، صحيح، ولكن ما رواه عن قبيلة عاد، ليس إلا من صنع الرواة، وأوهامهم وأخطائهم، وتخليطاتهم.

وقد روي هذا الخبر، باختلاف يسير، كقوله: "فانطلق حتى أتى على جبال مهرة" ويظهر أن هذا الراوي، استبدل جبال تهامة، بجبال مهرة، تأثراً بالدعاية التي تقول: بأن عاد كانوا يسكنون بجبال مهرة، بالشحر.

والحارث البكري، مختلف في اسمه، فقيل: هو الحارث بن حسان البكري، من بكر بن وائل، وقيل: هو الحارث بن يزيد، بالصواب.

الأحقاف، جمع: حقْف، وهو كل ما إعوجّ من جبل أو رمل أو جدار.

وقد اختلف العلماء في موضع الأحقاف، الذي كانت تنزله قبيلة عاد، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها بالشام، عن عبدالله بن عباس قال: الأحقاف: جبل بالشام.

رواه الطبري.

والقول الثاني: عن مجاهد بن جبر قال: حِشاف من حسْمى.

رواه الطبري.

وقوله: "حشّاف" أي: جبال في أرض سهلة، ومفردها: حشفة.

وحسمى هي الفلاة الواسعة، التي تقع فيها مدينة تبوك، في شمال غرب الجزيرة العربيّة.

والقول الثالث: أنها باليمن، عن عبدالله بن عباس قال: الأحقاف الذي أنذر هود قومه واد بين عمان ومهرة.

رواه الطبري.

والقول الرابع: أنهم باليمن، في مدينة تدعى: الشحر، على ساحل بحر العرب. عن قتاده بن دعامة قال: ذكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر، بأرض يقال لها الشّحْر.

رواه الطبري.

والقول الخامس: أنها الفلاة الواسعة التي تقع فيها مدينة الإسكندريّة بمصر، عن القرظي قال: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}. الإسكندرية.

فأما الجغرافيون، فزعموا أنها باليمن، ولكن اختلفوا في موضعها.

قال الحسن الهمداني (توفي سنة ٣٤٤هـ) في كتابه صفة جزيرة العرب: ثوبة قرية بسفلى حضرموت في واد ذي نخل، ويفيض وادي ثوبة إلى بلد مهرة، وحيث قبر هود النبي عليه السلام وقبره في الكثيب الأحمر، ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي الأحقاف وهو واد يأخذ من بلد حضرموت إلى بلد مهرة مسيرة أيام، وأهل حضرموت يزورونه هم وأهل مهرة في كل وقت.

فزعم الهمداني، أن الأحقاف، واد ينشأ من حضرموت، ويصبّ في بلاد مهرة، وبلاد مهرة مما يلي مدينة الشحر، على ساحل بحر العرب.

قلت: وهذا الادعاء منه باطل، فالأحقاف جمع، فكيف يسمّى الوادي وهو مفرد بالأحقاف!

وقال الإصطخري (توفي بعد سنة ٣٤٦هـ) في كتابه مسالك الممالك: وحضرموت في شرقي عدن بقرب البحر، وبها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وحضرموت في نفسها مدينة صغيرة ولها أعمال عريضة، وبها قبر هود النبي عليه السلام، وبقربها برهوت بئر عميقة لا يكاد يستطيع أحد أن ينزل إلى قعرها.

فزعم الإصطخري، أن الأحقاف رمال تقع في إقليم حضرموت.

وقول الاصطخري، بأن حضرموت موضع قرب البحر، وأن بها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، قول غير صحيح، فحضرموت إقليم واسع، يحده شمالا الرمال، التي تعرف بالرملة، ويحده جنوبا البحر، وشرقا عمان، وغربا سروات اليمن، والرمال الكثيرة، ليست في حضرموت، بل تقع شمالا عنها، حيث تفصل بينها وبين عالية نجد، وتحدّها من الشرق، تفصل بينها وبين عمان.

وقول الإصطخري بأن حضرموت مدينة صغيرة، فيه نظر، فالهمداني وهو من أهل اليمن، وأقدم منه، لم يذكر ذلك، بل كلّ ما ذكره عن حضرموت، أنها إقليم باليمن، وأن الأحقاف واد ينبع منها ويصب في بلاد مهرة بالشحر. والذي يظهر لي، أن الإصطخري إنما زار بعض مدن حضرموت، فظنّ أن اسم تلك المدينة حضرموت.

وقال ابن حوقل، في كتابه صورة الأرض، عن بلاد حضرموت: هي في شرق عدن بقرب البحر ومدينتها صغيرة، ولها أعمال عريضة، وبينها وبين عمان من الجهة الأخرى رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وكانت مواطن لعاد، وبها قبر هود عليه السلام.

قلت: وابن حوقل، يظهر أنه ناقل عن الاصطخري، وقد حاول ابن حوقل أن يستدرك الخطأ الذي وقع فيه الاصطخري، بخصوص الرمال الكثيرة، فذكر أن الرمال الكثيرة ليست في حضرموت، بل شرقا منها، والصواب أنها تحدها من الشرق والشمال أيضا، إلا أن ابن حوقل، أخطأ أيضا عندما قال، بان قبر هود في تلك الرمال، وقبر هود – المزعوم – في الحقيقة قرب تريم شرقا منه، بعيد جدا عن تلك الرمال.

وقال شمس الدين المقدسي (توفي ٣٨٠هـ) في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: وحضرموت هي قصبة الأحقاف موضوعة في الرمال عامرة نائية عن الساحل آهلة لهم في العلم والخير رغبة إلّا أنهم شراة شديد سمرتهم.

فزعم شمس الدين، أن الأحقاف إقليم واسع، وأن حضرموت قصبتها، أي: مدينتها الكبرى، وهذا قول من لا يدري ما حضرموت، فحضرموت قديما وحديثا إقليم واسع، يضم العديد من المدن والقرى، وقصبتها قديما مدينة شبام، وأما اليوم فقصبتها مدينة المكلا، فكيف تكون حضرموت قصبة للأحقاف!

وقال البكري (توفي سنة ٤٨٧هـ) في كتابه معجم ما استعجم: "الأحقاف، التى كانت منازل عاد، اختلف فيها، فقيل: هو جبل بالشام، عن الضّحّاك. وقال مجاهد: الأحقاف حشاف من حسمى؛ هكذا رواه الحربى عنه؛ والحشاف: الحجارة فى الموضع السهل. وروى أبو عبيد الهروىّ عن الأزهرىّ أنه قال: الأحقاف منازل عاد، رمال مستطيلة بشحر عمان، ويقال للرمل إذا عظم واستدار: حقف؛ وقيل إذا أشرف واعوجّ قال الهمدانى: الأحقاف بحضرموت".

ثم ساق البكري خبرا موضوعا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يسأل حضرميّا عن قبر هود عليه السلام، مما يؤكد أن الادعاء بأن الأحقاف موطن هود وقبيلته عاد بحضرموت، من فرى بعض الحضارمة.

وقال ياقوت الحموي (توفي ٦٢٦هـ) في كتابه معجم البلدان: وحضرموت ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود عليه السلام.

وهؤلاء الباحثون ينقل بعضهم عن بعض، وأن بعض الحضارمة، ادّعوا أن الأحقاف ببلادهم ليدعوا بذلك أن نبي الله هود وقومه عاد كانوا ببلادهم، ويحوزوا بذلك الشرف، ولا أدل على ذلك، من أن الكثبان الرمليّة لا وجود لها عند القبر المنسوب لنبي الله هود عليه السلام، ولا في الإقليم الذي تقع فيه، ولا الوادي الذي عناه الهمداني هو الأحقاف، لاستحالة تسمية واد باسم يحمل صيغة الجمع.

والحقيقة، أن سبب تخبّط الرواة والجغرافيين في تحديد موضع الأحقاف، أن العرب لم يكونوا يعرفون موضعا يعرف بهذا الاسم في جزيرة العرب، ولا حتى في الشام، ولكن بعض اليمنيين، استغل هذا الأمر، فادعى أن الأحقاف هو الوادي الذي يقبل من حضرموت حتى يلج في بلاد مهرة، ناحية الشحر، ومنه أخذ الهمداني، بينما أدعى بعضهم أن الأحقاف هي الرمال التي بين حضرموت وعمان، ومنهم أخذ الإصطخري، وتناقله الجغرافيّون بعده.

وأما الرمال التي بين حضرموت وعمان، فتعرف اليوم باسم: الرملة، كما تعرف بالربع الخالي، وهي ليست في حضرموت، بل تقع شمالا عنها، ثم تمتد هذه الرمال حتى تدخل عمان وتتجه إلى جنوب عمان الشرقي.

والأحقاف الواردة في القرآن ليست أحقافا رمليّة، بل أحقاف جبليّة، نجد ذلك وبصراحة في قوله تعالى: {أتبْنون بكلّ ريع آية تعْبثون}. والريع، وجمعه: ريعان، وصف لا يطلق في لغة العرب؛ إلا على المناقب التي تكون في المناطق الجبلية.

قال ابن منظور في لسان العرب: "والرّيعة والرّيع والرّيْع: المكان المرْتفع، وقيل: الرّيع مسيل الوادي من كل مكان مرْتفع .. والجمع أرْياع وريوع ورياع، الأخيرة نادرة .. والرّيع: الجبل، والجمع كالجمع، وقيل: الواحدة ريعة، والجمع رياع .. والرّيع: السّبيل، سلك أو لم يسْلك .. والرّيْع: الطريق المنْفرج عن الجبل؛ عن الزّجاج، وفي الصحاح: الطريق ولم يقيّد .. وقوله تعالى: أتبْنون بكل ريع آية، وقرئ: بكل ريْع؛ قيل في تفسيره: بكل مكان مرتفع. قال الأزهري: ومن ذلك كم ريْع

أرضك أي كم ارتفاع أرضك؛ وقيل: معناه بكل فج، والفجّ الطّريق المنْفرج في الجبال خاصّة، وقيل: بكل طريق" اهـ

مما يؤكد لنا، أن ما يشاع من أن الأحقاف التي كان يحلها بنو عاد هي الرمال الممتدة بين حضرموت وعمان، قول غير صحيح.

إلا أنه في المقابل، يدّعي بعض الباحثين، أنه تم العثور على نقوش حجريّة في منطقة مأرب باليمن، تحمل أسماء مثل: يهر عد، وذو عد، ويعتقد الباحثون أن عد تصحيف لكلمة عاد، وأما يهر، فتأتي بمعنى بيت، بينما تأتي كلمة ذو بمعنى جماعة أو قبيلة أو عشيرة.

كما يدّعي وورد ذكر لاسم مدينة تدعى إرم في النقوش المسنديّة في منطقة مأرب باليمن، حيث ورد النص "أهجر إرم". و أهجر تعني مُدُن، وهذا النقش يعدد المدن و من ضمنها "إرم" التي تقع بالقرب من مأرب عاصمة سبأ باليمن.

كل هذه البيانات، تجعل الباحث في حيرة من أجل تحديد الموضع الذي كانت تنزله قبيلة عاد قوم نبي الله هود عليه السلام، ويظهر أن تعدد المواضع التي تحمل اسم إرم، وتعدد القبائل التي تحمل اسم عاد، هو من أوقع الرواة قديماً في هذا الخلط.

ولكني أقول، إن وجود مدينة تحمل اسم إرم في منطقة مأرب، لا يعني بالضرورة أنها مدينة قبيلة عاد، خصوصاً وقد بلغنا الخبر من الله تعالى، بأنهم غلبوا أمم الأرض قوة، وما ذكر في النقش يشير إلى مدينة مغلوبة، ثم إن اسم عد الذي ورد في النقوش، ليس بالضرورة يراد به قبيلة عاد، فقد يكون المراد به عدي، أو عديّة، أو عادية.

والراجح، أن بلاد عاد في الجزء الشمالي الغربي من جزيرة العرب، حيث لا يزال يعرف موضع في حسمى باسم: إرم، وهو واد فسيح، تحف به جبال كثيرة، تعرف بجبال إرم، وبها بئر تعرف ببئر إرم، والعرب المتأخرون يسمونها: رمّ، على وجه الاختصار.

قال الهمداني في صفة جزيرة العرب: "وبحسمى بئر إرم من مناهل العرب المعروفة" اهـ

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان: "إرم: بالكسر، ثم الفتح .. وهو اسم علم لجبل من جبال حسمى من ديار جذام، بين أيلة وتيه بني إسرائيل، وهو جبل عال عظيم العلو، يزعم أهل البادية أنّ فيه كروما وصنوبرا. وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، قد كتب لبني جعال بن ربيعة بن زيد الجذاميين، أنّ لهم إرما" اهـ

فالأحقاف، هي المنطقة المحيطة بوادي إرم، لكثرة الأحقاف الجبليّة فيها.

لذلك، فإن ما ذهب إليه مجاهد بن جبر، في أن الأحقاف، هي حشاف بحسمى، هو الراجح بإذن الله تعالى.

ويظهر أن مدينة عاد كانت مبنيّة على جانبي وادي إرم، وحملت اسم الموضع الذي بنيت فيه، فالعرب تطلق على مدنهم، أسماء المواضع التي يبنون عليها مدنهم.

وقد ورد في نقش عثر عليه في جبال إرم، يشير إلى تواجد قبيلة تدعى عاد في هذه المنطقة، حيث جاء فيه ما نصّه: ل غث بن أسله بن ثكم وبنى بت الت ذأل عد. وترجمته حسب ما يرى الباحثون: لغيث بن أسلة بن ثكم، وبنى بيت اللات، ذي آل عاد.

ولكن ترجمة عد إلى عاد، هي الأخرى ظنيّة، إذ قد يكون معنى عد، أي: عدي، أو عديّة، أو عادية.

فإن كان هذا النصّ صحيحاً في الإشارة إلى قبيلة عاد، فهذا يعني أن اللات كانت تعبد منذ زمن طويل، وليس هذا بغريب، فقد ذكر مؤرخ اليونان، هيرودوست، وهو الذي يقدّر بأنه عاش قبل المسيح عيسى عليه السلام بخمسمائة سنة، في تاريخه، أن اللات كانت من معبودات المشركين في الشام، بينما كانت اللات من معبودات قريش في زمن النبي، وهذا يعني أن اللات عبدت على مدى ألف سنة، وإذا جاز هذا، جاز أن تعبد اللات لآلاف السنين، وليس لألفيّة واحدة، لأن هذه الآلهة الكاذبة، يتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل.

وقال تعالى: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ}. أي: أن مشركي قريش كانوا يرون أطلال منازل قبيلتي عاد وثمود، ولكن أطلال منازل عاد لا وجود لها اليوم، فقد أفنتها عوادي الزمان.

قال تعالى في سورة الأعراف: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}.

قوله: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا}. أي: أن صالحاً عليه السلام، كان نسيباً لثمود، وابن أبيهم، فليس بحليف لهم ولا مولى. وأما النسب المذكور في كتب التواريخ عن صالح وقبيلة ثمود، فهو نسب ملفّق موضوع.

وصالح اسم عربي، مشتق من الصلاح، وهو ضدّ الفساد.

وكذلك اسم قومه ثمود، اسم عربي، مشتق من الثمد، وهو القطع.

وقوله: {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ}. أي: أن نبي الله صالح بعث بعد نبي الله هود عليه السلام، ولم يبيّن الله تبارك وتعالى ولا نبيّه صلى الله عليه وسلّم كم كان بينهما من الأزمان.

وقوله: {وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ}. أي: أنزلكم ومكّن لكم في الأرض.

وقوله: {تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا}. أي: تبنون القصور من الطين في سهولها، والسهل هنا المراد به الأرض المنبسطة.

وقوله: {وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا}. أي: كانوا يصنعون تجاويف في الجبال، على هيئة الغُرَف، وكأنها كهوف أو مغارات، ويسكنون فيها.

وقوله: {الرَّجْفَةُ}. أي: شيء عظيم، رجفت له أجسادهم وأرضهم.

وقال تعالى فيسورة هود: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ}.

قوله: {قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا}. أي: كنا نرجو فيك الخير والعقل والحكمة، حتى ادعيت النبوّة، ودعوتنا إلى ترك عبادة ما كان يعبد أسلافنا.

وقوله: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ}. أي: أن الرجفة التي أخذتهم، كانت صيحة عظيمة، لم تحتملها أسماعهم وقلوبهم، فانفجرت لها أسماعهم، وانصدعت لها قلوبهم، فهلكوا.

وقال تعالى في سورة الحِجر: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}.

قوله: {أَصْحَابُ الحِجْرِ}. أي: قبيلة ثمود، وكان مساكنهم بوادي القرى، والحِجْر، مدينتهم.

عن عبدالله بن عمر قال:مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذرا، أن يصيبكم مثل ما أصابهم ثم زجر فأسرع حتى خلفها.

رواه البخاري ومسلم.

وعن عبدالله بن عمر قال: أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر، أرض ثمود، فاستقوا من آبارها، وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة. وفي رواية : فاستقوا من بئارها واعتجنوا به.

رواه البخاري ومسلم.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ}.

قوله: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ}. أي: تنحتون الجبال بيوتاً لرفاهيتكم، أي: زيادة في تنعّمكم.

وقوله: {فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}. أي: أنهم هم من بدأ بسؤال الآية، التي تدل على صدق ما ادعاه من النبوّة.

وقوله: {لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}. أي: قسّم ماء البئر بينهم وبين الناقة، فيشربون يوماً لا ترد معهم فيه، وتشرب يوماً لا يردون معها فيه، وهذا من الابتلاء والامتحان.

وقال تعالى في سورة النمل: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

قوله: {فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ}. أي: فريق آمن وفريق كفر، فهم يتخاصمون في شأن صالح ودعوته، هؤلاء يحاججون عن صالح ودعوته، وهؤلاء يطعنون فيه وفي دعوته.

وقوله: {قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}. خطابٌ موجّه من صالح إلى الكفار من قومه، لما طالبوه أن يوقع بهم العذاب إن كان صادقاً، فقال لهم: لما تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، أي: لماذا لم تسألوا الله الهداية بدل سؤالكم العقوبة!

وقوله: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ}. أي: تشائمنا بك وبمن معك.

وقوله: {قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ}. أي: شؤمكم عند الله، عندما يدخلكم النار.

وقوله: {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}. أي: تختبرون، والفتنة هي الاختبار، فمعنى الآية: بل أنتم قوم تختبرون، يختبركم ربكم إذ أرسلني إليكم، أتطيعونه، فتعملون بما أمركم به، فيجزيكم الجزيل من ثوابه؟ أم تعصونه بخلافه، فيحلّ بكم عقابه؟.

وقال تعالى في سورة فصلت: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}. إلى قوله: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

قوله: {فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ}. أي: الصيحة، وهي الصاعقة التي صعقتهم، وهي الراجفة، التي رجفت بهم.

والهون أي: المهين.

وقال تعالى في سورة الذاريات: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ}.

وقال تعالى في سورة القمر: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}.

قوله: {وَسُعُرٍ}. أي: عناء وشقاء.

وقوله: {كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ}. أي: يحضره من كانت نوبته، فإذا كان يومها حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم. وحضر واحتضر بمعنى واحد.

وقوله: {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}. والمحتظِر، هو صانع الحظيرة، والحظيرة، هي سورٌ يُعمَل من الشجر، يؤتى بقطعٍ من الشجر لها أغصان وأوراق، فيوضع بعضها فوق بعض، ويعمل منها سور مستدير، تُجمع فيه الدواب، من غنم أو بقر أو إبل أو خيل أو حمير أو بغال، ليقيها البرد، أو ليمنعها من الذهاب. فعندما يقوم المحتَظِر بصناعة الحظيرة، يتساقط شيء من عيدان الشجر وأوراقها، فتدوسه الدواب بأرجلها، فذاك هو هشيم المحتظِر، أي: ما يسقط من المحتظِر، أثناء عمله في الحظيرة.

وقال تعالى في سورة الحاقة: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}.

قوله: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}. والطاغية هي الصيحة التي رجفت بهم وصعقتهم، سمّيت طاغية، لأنها طغت عليهم، فأهلكتهم.

وقال تعالى في سورة النجم: {وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ}. أي: لم يبقى من أولئك الكفّار بقيّة، ولم يبقى من ثمود، سوى صالح والمؤمنون معه، ومما لا شك فيه، أن هذه الطائفة المؤمنة من قبيلة

ثمود، تناسلوا وتكاثروا، حتى صاروا قبيلة من الناس، ولكن حتى هؤلاء ما تعاقب الليل والنهار، حتى تلاشوا شيئاً فشيئاً ولحقوا بالأمم البائدة، فلم يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومنهم عين تطرف.

وقال تعالى في سورة الشمس: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا}.

قوله: {إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا}. أي: انطلق أشقى ثمود، وهو قاتل الناقة.

عن عبد الله بن زمعة، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب، وذكر الناقة والذي عقر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذ انبعث أشقاها، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه، مثل أبي زمعة".

رواه البخاري.

وقصّاص العرب يسمونه: قُدَار بن سالف، وهو على الأرجح اسم مُختلق.

وقوله: {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا}. أي: لا تقربوا ناقة الله ولا يوم سقياها بسوء فيقع عليكم العذاب.

وقوله: {فَدَمْدَمَ}. أي: أرجف.

وقوله: {فَسَوَّاهَا}. أي: جعل بلدتهم مستوية، أي: معتدلة لا حراك ولا حياة فيها، بعد أن كانت مضطربة بالحركة والحياة.

وقوله: {وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا}. أي: لا يخشى الله تعالى أحداً من خلقه، بسبب إيقاعه العقوبة بأحد من خلقه، ومن ذا الذي يجترئ على الله عز وجلّ!

وأما صالح عليه السلام والمؤمنون، فلم يرد في الآيات وما صح عن النبي من الأخبار، ما يفيد الموضع الذي استقر فيه بعد خروجهم من ديارهم، فكما قدمنا أن الله تبارك وتعالى، لا يأتي من قصص الأنبياء مع أقوامهم، إلا بما فيه عبرة وعظة.

وجميع الروايات التي رويت في خبر صالح عليه السلام وقومه، مما لم أذكره هنا، قد ترجّح عندي، أنها من إفك القُصّاص ووضعهم وزياداتهم، ولذلك أعرضت عن ذكرها.

بلاد قبيلة ثمود

الحِجْر هي منازل قبيلة ثمود، ولكن بعد ارتحال مسلمي ثمود من الحِجر، وهلاك كفارهم، توارثت بلادهم في الحِجر قبائل شتى.

وأقدم من ذكر أنه تملّك بلادهم من بعدهم، قومٌ يقال لهم: المعينيون، وهم شعب قدم من أقاصي اليمن، وكانت لهم دولة في اليمن تعرف بالدولة المعينية، ويظهر أن المعينيين، انتقلوا إلى الحجر ووادي القرى، بعد أن كثر البشر في جزيرة العرب، وامتلأت بهم، مما اضطر بعض من يقيم في أقاصيها، بالهجرة شمالاً طلباً للمتسع والمعاش، فخرجت هذه الطائفة من المعينيّين، واستقرّ بها القرار في الحجر ووادي القرى، حيث تركوا لهم آثاراً من النقوش، والتي هي عبارة عن خطوط معينيّة يمنيّة، عُرِفت بالخطّ المعيني، حيث توجد بكثرة في بلادهم باليمن.

ويذكر الخبراء، أن شعباً يقال لهم اللحيانيّون، استولوا على الحِجر ووادي القرى بعد المعينيّين، أو أن اللحيانيين استولوا على الحِجر ووادي القُرى، وأخضعوا المعينيّون لسلطانهم.

ويقدّر الخبراء أن هؤلاء اللحيانيين قدموا من اليمن، لأنهم عثروا في النقوش الخطيّة في اليمن، على اسم ملك يماني أسمه: أب يدع ذو لحيان. وذو لحيان، تشير إلى قبيلة يمنية تدعى: ذو لحيان. وقد يكون هؤلاء اللحيانيّون من قبيلة لحيان إحدى قبائل هذيل، أي: أنها قدمت من جهات مكة والطائف، لتتغلب على المعينيين وتستقر في الحجر ووادي القرى، وقد ترك اللحيانيون بدورهم آثاراً من النقوش، والتي هي عبارة عن خطوط عُرِفت بالخط اللحياني.

ثم لما عظمت مملكة الأنباط بالأردن، وتوسّعوا في البلاد، استولوا على الجزء الشمالي الغربي من جزيرة العرب، واستحوذوا بذلك على الحجر ووادي القرى وقبائلها، حيث تأثرت تلك القبائل بالثقافة النبطيّة، وكتبوا بالخط النبطي.

وظلّت الحجر بحوزة القبائل الخاضعة لسلطان الأنباط دهرا من الزمان، ثم تُرِكت بعد ذلك، فلم يعمرها بشر إلى اليوم.

ويذكر الخبراء، أن قصور الثموديين الحجريّة، قد تمّ تحويلها في زمن الأنباط إلى أضرحة لسادات تلك القبائل، حيث شاعت في المنطقة في تلك الحقبة عمليّة بناء الأضرحة على قبور السادات والأشراف، مما دفع تلك القبائل إلى تحويل تلك المنازل إلى أضرحة، من باب الفخر والمباهاة.

وتصميم تلك القصور الحجرية من الداخل، يدلّ على أنها أعدّت للسكنى، فعندما تلج إلى داخل تلك التجاويف، تفضي بك إلى غرفة فسيحة، وبعض تلك الغرف، لها تجاويف جانبيّة على جدران الكهف، هي أشبه بالرفوف التي توضع عليها الحاجات، كما هو الحال في البيوت المبنيّة باللبن، حيث كان بناتها يضعون رفوفاً في الجدران لرفع الأشياء التي لا ينبغي أن توضع على الأرض، كما يوجد في بعض تلك الكهوف تجاويف أكبر، هي أشبه بمخازن للطعام أو المال أو البضائع.

وقد شاعت أيضا في تلك الفترة النبطيّة، عملية توثيق ملكية العقارات لأصحابها، حيث كانوا ينقشون بالخط النبطي، أسماء من قام بإصلاح وتأهيل وإعداد تلك المباني للسكن أو القبر، أو اتخاذها مكاناً للعبادة. وكانت عادة تصدر بعبارة: "دنه كفر أدي عبّد – بصيغة المفرد المذكر إن كان رجلاً – أو عبّدت – بصيغة المفرد المؤنث إن كانت امرأة – أو عبّدو – بصيغة الجمع إن كان من قام بتجديد القصر مجموعة من الرجال أو مجموعة من النساء–.

ودنه، تعني: هذه. وكفر، تعني هنا: قبر، وأدي، تعني: الذي أو اللتي، وعبّد، تعني: أصلح وهيأ وأعدّ. وكلها يراد بها: التجديد والتأهيل، كون هذه المباني موجودة سلفاً قبل أن تستولي تلك القبائل على تلك المنحوتات.

وقد رجّح بعض الخبراء، أن يكون المعينيّون هم ثمود، وهذا رأيٌ مرجوح، إذ أن الثموديين، يعتبرون من أقرب الشعوب زمانا لنوح عليه السلام، بعد قبيلة عاد، وبالتالي فمن الراجح أنهم من أوائل الشعوب التي دخلت إلى جزيرة العرب قادمة من الشمال.

والذي دفع الخبراء إلى الاعتقاد بأن ثمود هم طائفة من المعينيّن، هو أنهم لم يجدوا أيّ أثر لشعب سكن هذه المنطقة قبل المعينيّين.

وتفسير ذلك، أن الثموديين لم يكونوا يحسنون القراءة والكتابة، ولم يبتدعوا رسم أحرف تخصّهم، أو يوثّقوا ملكيّتهم لهذه المنحوتات، إذ يظهر أن الاهتمام بالكتابة، وتوثيق الملكيّات، لم يكن شائعاً في ذلك الزمان، وإنما شاعت بعدهم، ولذلك لا نجد لهم خطوطاً ولا وثائق في جبال الحِجر.

وكون الثموديين لا يحسنون القراءة والكتابة، لا يتعارض مع كونهم يحسنون النحت والنقش، فلا تلازم بين هذا الفن وذاك، فكثيرٌ من الصُنّاع والحِرَفيّين، كانوا لا يجيدون القراءة والكتابة.

وما ذهب إليه الخبراء، هو ما دفع بعض الباحثين إلى القول بأن ثمود قدموا من اليمن، واحتج على ذلك بحجّتين:

الأولى: أنه يوجد في اليمن وفي حضرموت تحديداً، مدينة تسمى: ثمود. والجواب على ذلك: أن مدينة ثمود الموجودة اليوم في حضرموت، لم تعرف بهذا الاسم إلّا في وقتٍ متأخر، والدليل على ذلك، أن هذه المدينة لم يذكرها أحد من الجغرافيين العرب، بل إن لسان اليمن الحسن الهمداني، صاحب كتاب صفة جزيرة العرب، الذي لم يترك موضعاً من جزيرة العرب إلّا وذكر اسمه، لم يذكر مطلقاً أن في اليمن أو حضرموت مدينة أو إقليم أو جبل أو وادٍ يسمى ثمود، فتبيّن أن مسمّى هذه المدينة حادث.

والثانية: أنه عثر على نقوش بالخط الذي يسمى بالخط الثمودي في اليمن. والجواب على ذلك: أن ما عُثِر عليه من الخط الثمودي في اليمن، قليل جدّاً، إذ أن هذا الخطّ ينتشر بكثرة في الجزء الشمالي من جزيرة العرب، ثم إن الخبراء يؤكدون أنه لا علاقة لهذا الخط بقبيلة ثمود قوم نبي الله صالح، ولذلك يفضّلوا تسميته بالخطّ العربي الشمالي، ولهذا لا يعتبر وجود نقوش لهذا الخط في اليمن دليلاً على أن قبيلة ثمود قدمت من اليمن، وتفسير وجود هذا الخطّ في اليمن، أن بعض التجّار من عرب الشمال، نقشوا بهذا الخط في اليمن، عند قدومهم إلى اليمن للتجارة، أو قد يكون بطناً من عرب الشمال هاجروا إلى اليمن، لسبب من الأسباب التي تستدعي القبائل إلى الانتقال من بلادها إلى بلاد أخرى.

ويظهر أن الأنباط أعجبوا بالتصميم الذي أحدثه الثموديون في الحِجر، لذلك عملوا مثلها أو أفضل منها في عاصمتهم البتراء، وقد أثّر ذلك الفن في قبائل الشام، حيث أصبحوا يبنون قصورهم ومعابدهم على النمط المعماري النبطي، الذي يعتبر نسخة مطوّرة عن الطرازي المعماري الثمودي.

وعندما زار القائد الروماني بومبي البتراء سنة خمس وستين قبل الميلاد، أعجب بهذا الفن المعماري، مما دفعه إلى أن يطلب من الأنباط، أن يبنوا مثيلات لها في روما، ومن هنا انتقل هذا الفنّ المعماري إلى روما.

نقلت وكالة الأنباء الأردنية بتاريخ ٧ / ٥ / ٢٠١٢م عن الدكتور نبيل خيري، ما نصّه: "أن الباحثين الغربيين يرجعون الواجهات الصخرية المنحوتة مثل الخزنة داخل مدينة البتراء الى فترة ما بعد احتلال الرومان للبتراء في أواخر حكم آخر ملوك الأنباط رابيل الثاني عام ١٠٦م ، ويسندون هذه المنجزات الحضارية الى غير أهلها — أي: إلى الروما حيث يزعم الخبراء الغربيّين أن هذا الطراز المعماري ابتدعه الرومان – وأشار الخيري الى أنه في ضوء اعتماد ما ورد في نقوش نبطية في ثاني أكبر مدينة للأنباط وهي مدائن صالح فإن عشرين نقشاً ترجع الى عهد الملك النبطي الحارث الرابع — يقدّر أنه حكم بين سنتي ٩ قبل الميلاد إلى ٤٠ بعد الميلاد – وثمانية منها أرّخت لفترة الملك مالك الثاني — حكم بين سنتي ٤٠ ميلادية إلى ٧٠ ميلادية – ونقشين أرخا لآخر ملوك الأنباط — وهو الملك ربّ إيل الثاني والذي حكم بين سنتي ٧٠ ميلادية إلى ١٠٦ ميلادية –. وأوضح أن أسماء الآلهة الواردة في النقوش هي الآلهة التي كانت تعبد في الجزيرة العربية قبل الإسلام وهي مقترنة بأسماء الهة نبطية ولم يعثر على اسم أي الهة أعجمي أو روماني مبيناً أن مدائن صالح هي الشقيقة الكبرى للبتراء مما يؤكد بشكل قاطع عروبة هذه المدينة الأردنية الخالدة حضارياً" اهـ

فبحسب الدراسات التي قام بها الدكتور نبيل خيري وفريقه، فإن الجبال المنحوتة في الحِجر، أقدم إحداثاً من الجبال المنحوتة في البتراء، مع أن الأنباط عندما احتلوا مدينة الحِجر، كانوا في أوجّ قوتهم وثروتهم، وهذا يدل على أن الأنباط هم من تأثر بالطراز المعماري الثمودي، بمعنى أن الأنباط لم يستحدثوا هذا الطراز.

وتؤكد تلك الدراسة بناء على هذه النتائج، أن البتراء وجميع الآثار التي تحتضن ذات الطراز المعماري في الأردن وسوريا وفلسطين ولبنان، هي آثار نبطيّة وليست رومانيّة، وتستدل الدراسة على ذلك، بأن النقوش النبطيّة الموجودة في مدينة الحِجر بوادي القرى، أقدم تاريخياً من النقوش النبطية والرومانية الموجودة في البتراء، وهذا يعني أن مدينة الحِجر قطعاً بُنيت قبل مدينة البتراء، وأن بُناة مدينة البتراء، كانوا متأثرين بشدّة، بالفن المعماري في مدينة الحِجر، ولذلك وصف الدكتور خيري مدينة الحِجر، بأنها: الشقيقة الكُبرى لمدينة البتراء.

وهذا يدل على أن الطراز المعماري في الشام، طراز نبطي عربي محض، وليس رومانياً كما يشاع مؤخراً.

ومما يؤكد ذلك، ما ذكرته وكالة الأنباء الأردنية، حيث قالت: "وتناول الدكتور بجورن بيتر أندرسون، من جامعة مانيسوتا بالولايات المتحدة الأميركية، وجود الأنباط التجاري في إيطاليا، ومعبدهم الذي يقع في ميناء بيتولى، جنوبي مدينة روما، والذي يرجع حسب النقش النبطي الملحق بهذا المعبد، إلى عام ثمانية قبل الميلاد، أي بداية حكم الملك النبطي الحارث الرابع، الذي عرف باسم " اينياس"" اهـ

قلت: وقد عثر على بقايا هذا المعبد، غارقاً تحت الماء، قبالة الساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط لمدينة بوتسوولي، وهذا يعني، أن الأنباط كانوا قد بنو لهم معبداً على ضفاف الساحل الروماني، قبل الميلاد، وهذا يشير إلى أنهم هم من نقل هذا الفن المعماري إلى روما، ومن روما انتقل هذا الفن إلى مناطق متفرقة جنوب أوروبّا وشمال أفريقيا.

وخلاصة هذا البحث: أن الأنباط لم يكونوا هم من نحت جبال الحِجر أو قام بزخرفتها، فالنقوش الخطّيّة الموجودة في مدينة الحِجر، أقدم تاريخياً من النقوش الخطيّة الموجودة في مدينة البتراء، عاصمة دولة الأنباط، مع أن الأنباط عندما استولوا على مدينة الحِجر كانوا في أوجّ قوتهم وثروتهم، وهذا يعني، أن الأنباط تأثروا بالفن المعماري في مدينة الحِجر، مما دفعهم إلى بناء البتراء على غِرار الطراز المعماري في مدينة الحِجر وطوّروه أكثر، ويظهر وبجلاء، أن حواضر الشام أعجبوا بها الطراز النبطي المطوّر، لذلك قاموا باستحداث مدنهم على هذا الطراز، وعندما احتك الرومان

بدولة الأنباط، أعجبوا بدورهم بهذا الفن، ونقلوا الحرفيّين العرب من الأنباط إلى روما، ولعل هؤلاء الحرفيين الذين أقاموا بإيطاليا، هم من بنا المعبد الذي عُثِر عليه في ميناء بيتولي الإيطالي، ثم بعد أن استولى الرومان على دولة الأنباط، آلت ملكيّة بعض هذه الجبال المنحوتة إلى بعض كبار الرومان، والذين وثّقوا ملكيّتهم لها بالخط الروماني، كما آلت الجبال المنحوتة الثمودية إلى القبائل الوافدة على وادي القرى ومنطقة الحِجر، واستحوذوا على تلك الجبال، ووثّقوا ملكيتهم لها بالخط النبطي، بعد أن استولى الأنباط عليهم، وتعلموا منهم الكتابة بذلك الخطّ.

اتّصال أخبار قبيلة ثمود إلى القرن الثاني الميلادي

يؤكد الباحثون في الآثار التاريخية، أن قبيلة ثمود، بقيت مذكورة في التاريخ إلى قُبيل نهاية القرن الثاني الميلادي.

فقد ذكر منذر البكري، في كتابه: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، أن أول ذكرٍ لثمود في هذه المصادر هو ما ورد عنها في سجلات الملك الآشوري سرجون الثاني، فقد جاء فيها أنه شن حملة على بعض القبائل العربية في بادية الشام وشمال غربي الجزيرة العربية وهزمها، وكان من بينها قبيلة ثمود، وهذا يعني أن ثمودَ كانت موجودة في هذه المنطقة قبل هذا التاريخ بكثير أو قليل. ومن المحتمل أن يكون سرجون هذا قد أجلى بعض الثموديين وأسكنهم في السامرة في فلسطين مع من أجلى من هذه القبائل وأسكنهم هناك، بناء على الخبر الذي جاء في سجلاته، غير أن اللافت للنظر أن التوراة لم تذكر الثموديين مع من ذكرت من أقوام وقبائل، برغم أن بعضهم عاش في الشمال الغربي من الجزيرة العربية وأطراف الشام قروناً طويلة تزيد على ألف عام. وكذلك لم يذكرهم الملك نبونئيد (آخر ملوك الدولة الكلدية في بابل) الذي غزا هذه المنطقة (يقدر الباحثون أن ذلك وقع في حدود عام ٥٥١ ق. م. وهو رقم ظني لا حقيقة له) مع أنه فصَّل أخبار غزوته في مسلته التي عثر عليها في حران عام ١٩٥٦م، وذكر فيها أنه احتل واحة تيماء وقتل زعيمها مالك (ملكو) ثم احتل دومة الجندل، وتوغل بعدها في الجنوب فاحتل العلا وفدك والبدع وخيبر ويثرب ، وبنى له قصراً في تيماء (أقام فيه نحو عشر سنوات)، وكذلك شأن المؤلفين الكلاسيكيين المبكرين من اليونان والرومان الذين كتبوا عن العرب وذكروهم في مؤلفاتهم مثل: هيرودوتس وثيوفراستوس وإيراتوستينس، فهم لم يذكروهم مع من ذكروا فيها. وكان أول من ذكرهم أجاثريدس، وجاء ذكرهم عنده باسم Thamudenoi. وقال إنهم يسكنون عند شاطيء صخري يبلغ طوله نحو (١٠٠) ستاديون (الستاديون الواحد طوله ٤٠٠ ذراع) ويقع هذا الشاطئ عند ما سماه الخليج الطويل للبحر الأحمر، والواضح أنه يقصد ما يعرف اليوم باسم: خليج العقبة. وتكرر ما ذكره أجاثريدس عند ديودروس الصقلي في القرن الأول الميلادي مع اختلاف طفيف.

ثم ذكرهم أورانوس وقال إنهم يقطنون على حدود ما يعرف في الأدبيات الكلاسيكية بالمقاطعة العربية. وإلى مثل هذا ذهب بطليموس في القرن الثاني للميلاد. اهـ

ويقدّر الباحثون التاريخيون، حياة الملك سرجون الثاني ، بين عامي (٧٢١-٧٠٥ ق. م.) كما يقدرون زمن حربه التي شنها على القبائل العربية في حدود سنة (٧١٥ ق. م.) وهذه السنين، إنما هي مقدّرة تقديراً، ويغلب عليها الظن، كونها تعتمد على فحص الآثار بطرق لا يمكن الجزم بصحتها.

كما عُثِر على نقش في معبد بُني في موضع يقال له "روَّافة" كتب في زمن امبراطور روما أغسطس، أي: في بدايات القرن الثاني الميلادي، حيث جاء فيه ما نصّه: "من أجل البقاء الأبدي لسادة حكام العالم، الإلهين الكبار: العظيم أغسطس قاهر الأرمنيين، ماركوس أورليوس أنطونيوس ولوشيوس أورليوس فيروس، قام زعماء اتحاد الثموديين بإنشاء هذا المعبد تحت رعاية ودعم أنتيستيوس أدفنتوس، الحاكم المنتدب لأغسطس، الذي شجعهم". اهـ

وما ورد أعلاه، له تفسيران:

الأول: أن المؤمنين من قبيلة ثمود، تكاثروا وتناسلوا حتى عادوا قبيلة ذات عدد، حيث استقرت في الجزء الشمالي الغربي من جزيرة العرب، وأن هذه القبيلة استمرت في الوجود إلى ألاف السنين، حتى أدركوا القرن الثاني الميلادي، وكما قلت سابقاً، فإنه لا يستحيل بقاء قبيلة إلى ألاف السنين، حيث تظل القبيلة الأم محتفظة باسمها، وإن تغيّرت أسماء فروعها التي تتفرع منها.

والثاني: أن قبيلة ثمود التي حاربها الملك سرجون، وذكرت في كتب اليونان والنقوش الحجرية، ليس لها أي علاقة بقبيلة ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام، سوى تشابه اسم القبيلتين، فكثير من القبائل تحمل الأسماء نفسها، مع تباعدها زماناً ومكاناً، وهذا ما رجّحه بعض الباحثين.

والله أعلم.

قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}.

قوله: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}. أي: امتحنه الله تعالى بكلمات، وهذه الكلمات هي ما أمره الله به من الفرائض، ونهاه عنه من المحرّمات، فأتمهن، أي: قام بهنّ كلهنّ، على الوجه الذي يرضي الله تعالى.

وقوله: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}. أي: أنه سوف يكون في ذريّة إبراهيم عليه السلام، فسّاق وفجّار وكفّار، وهذه الأصناف، لا تستحق الإمامة.

وقال تعالى في سورة الأنعام: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}.

قوله: {لِأَبِيهِ آزَرَ}. أي: أن اسم أبي إبراهيم هو: آزر، فهو: إبراهيم بن آزر، ولا يعرف عن نسب إبراهيم عليه السلام أكثر من أنه ابن آزر، وأنه من ذريّة نوح عليه السلام، والنسب المذكور لإبراهيم في كتب التاريخ، منقول من كتب اليهود، وهو نسب ملفّق موضوع.

ولا أدل على كذبه، من تسميتهم لوالد النبي إبراهيم عليه السلام: تارح، بينما سمّاه الله تعالى في القرآن: آزر، فلا يقال بأن آزر لقبه، بل هو اسمه، لأنه هكذا سمّاه الله تعالى.

ولقد اشتدّ عجبي من مؤرخي الإسلام، عندما أرادوا الجمع بين ما ورد في القرآن الكريم، وما ورد في كتب اليهود، فزعموا أن تارح اسمه، وأن آزر لقبه! فقدّموا ما وجدوا في كتب اليهود، على ما ورد في القرآن!

واتّفق رواة اليهود والنصارى والصابئة، على أن إبراهيم من مدينة أور الواقعة جنوب العراق، وأنه من شعب يقال لهم: الكلدان.

واتفاقهم على أنه من شعب الكلدان، دليل أخر على بطلان سلسلة النسب التي ذكرها اليهود لإبراهيم، لأنه لم يرد فيها ذكر لِكَلَدَة، جَدُّ القبائل الكلدانيَّة.

فإن قيل: كيف قبلت قول أهل الكتاب فيما ذكروه عن قبيلة ومدينة إبراهيم عليه السلام، ولم تقبل قولهم فيما ذكروه عن نسبه إلى نوح، وما ذكروه عن نسب نوح إلى آدم؟

فالجواب: لسببين:

الأول: أن الناس عادة يحفظون الأنساب المجملة، وذلك لسهولة حفظها وتناقلها، وهذا بخلاف الأنساب المفصّلة، فإن الرواة يهمون فيها ويخطئون كثيرا، ويزيدون فيها وينقصون منها، ويبدّلون الأسماء، ويخترعون غيرها، وذلك لصعوبة حفظها وتناقلها.

والثاني: أن ما قبلته متّفق عليه بين رواة اليهود والنصارى والصابئة، وعادة الرواة إذا اتّفقوا على شيء، فالراجح أنه صحيح، بخلاف الأنساب المفصّلة الواردة في كتب اليهود والنصارى، فإن الصابئة لم يذكروها في كتبهم.

وإبراهيم، اسمٌ مركّب من شِقين، وهما: "إبرا" و "هيم". فأما إبرا، فيظهر أنها مشتقة من البراءة، كأن أصل الاسم: إبراء، وحذفت الهمزة للتخفيف، أو هو مشتق من البري، وهو النحت، وأما هيم، فتستخدم للمبالغة في الوصف، كقولنا: فلان هائم، وقولنا: إبلٌ هِيم، أي التي بلغت

مبلغا عظيما من العطش، ونحو ذلك، فيكون معنى الاسم: المبالغ في البراءة من الشيء، أو البليغ في البراءة من الشيء.

وأما آزر، فمشتق من المؤازرة، وهي: المعاونة.

وقوله: {مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}. وملكوت السموات، هو ملك الله في السماء، الشمس والقمر والنجوم والسحاب. وملكوت الأرض، هو ملك الله في الأرض، الجبال والبحار والأنهار والأشجار والرياح والدوابّ.

وقوله: {الآفِلِينَ}. أي: الغائبين، قال قتادة: علم أن ربّه دائم لا يزول. رواه الطبري في التفسير. أي: لا يغيب عن عباده، فهو معهم بعلمه، يراهم ببصره، ويرعاهم بحفظه. وهذا لا يعني أن الله تعالى لا يتحرك، بل هو يتحرك وينتقل من مكان إلى مكان، ولكن الله تعالى ليست صفاته كصفاته خلقه، فهو يدنو من خلقه كيف يشاء، وهو فوق سماواته مستوٍ على عرشه.

وقوله: {حَنِيفًا}. أي: مائلاً عن طريق المشركين، إلى طريق التوحيد والإسلام، والحنيف هو المائل.

وقوله: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}. والظلم المراد به هنا: الشرك، أي: لم يلبسوا إيمانهم بشرك، والمراد بالشرك هنا، هو الشرك الأكبر.

وقال تعالى في سورة مريم: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا}.

قوله: {مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ}. دليل على أن ما لا يسمع الأصوات، ولا يبصر المرئيات، ناقص الذات والصفات، وناقص الذات والصفات لا يمكن أن يكون إلهاً.

وقوله: {صِرَاطًا سَوِيًّا}. الصراط هو الطريق، والسويّ، أي: المعتدل، أي: طريقاً معتدلاً لا إعوجاج فيه.

وقوله: {أَرْجُمَنَّكَ}. أي: أرجمك بالحجارة، أي: أرميك بالحجارة، كناية عن الطرد والإبعاد.

وقوله: {وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}. أي: لا تكلمني زماناً. ومليّا، أي: زمناً أو حيناً.

وقوله: {وَأَعْتَزِلُكُمْ}. أي: أهاجر وانتقل عنكم إلى مكان أخر.

وقوله: {عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا}. أي: غير مجاب الدعوة.

وقوله: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ}. أي: هاجر وانتقل عنهم.

وقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا}. أي: وهبنا لإسحاق ويعقوب من رحمتنا، في الدنيا من الحكمة والعلم والرزق الحسن.

وقوله: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا}. أي: ورزقناهم الثناء الحسن، والذكر الجميل من الناس.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا

تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ}.

قوله: {الَّذِي فَطَرَهُنَّ}. أي: أوجدهنّ على غير مثال سابق.

وقوله: {وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}. أي: شاهدٌ على أن الله عز وجل هو الربّ المستحق للعبادة وحده لا شريك له، الذي فطر السماوات والأرض.

وقوله: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا}. أي: جعلهم حطاماً.

وقوله: {إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}. أي: ترك أكبر الأصنام حجماً فلم يعترض له ولم يحطمه، لعلهم يرجعون إليه ويسألونه من حطم أصنامهم.

وقوله: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ}. أي: يشهدون عليه، أنه هو من فعل هذا، وأنه يستحق أي عقوبة نوقعها به.

وقوله: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}. أي: بل فعله الصنم الكبير. وهي ثاني كذباته، التي كذبهنّ في الله تعالى.

وقوله: {فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ}. أي: اسألوا الأصنام المحطمة من حطمكم؟

وقوله: {فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ}. أي: أنهم انفردوا ببعضهم، وأقرّ بعضهم لبعض بأنهم ظالمون بعبادة أصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تتحرك.

وقوله: {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ}. أي: أنهم بدل أن يرجعوا إلى الحق، أخذتهم العزّة بالإثم، واستكبروا أن يقروا بالغلبة لإبراهيم، وأخذوا يحاجونه، بأنه قد علم أن أصنامهم لا تستطيع النطق، ومع ذلك يريدون منه أن يقر بأنه هو من حطمها، ليرو فيه رأيهم، وما يستحقه من العقوبة!

فلما وبخهم، غضبوا منه، وأرادوا أن يفرغوا غضبهم منه، في الانتصار لأصنامهم، فظاهر الأمر أنه انتصار لأصنامهم، وباطنه انتصار لأنفسهم، وأرادوا أن يعاقبوه بأشد عقوبة ليكون رادعاً له ولغيره ممن تسول نفسه المساس بأحجارهم الصماء البكماء العمياء الجامدة!

وقوله: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}. أي: نجاهما إلى صحراء النقب، نجّى إبراهيم بأمره بالهجرة إلى صحراء النقب بعد أن رفض قومه دعوته، ونجّى لوطاً عندما وقع العذاب بقومه، فكان إبراهيم ولوط، متجاورين حتى لحقا بربهما.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ}.

قوله: {عَاكِفِينَ}. أي: راكِعَين ساجِدَين.

وقوله: {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ}. أي: أن سماع الأصوات من صفات الإله، فمن لم يستطع سماع الأصوات بذاته، فهو ناقص في ذاته، والناقص في ذاته لا يكون إلهاً.

وقوله: {لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ}. أي: ذكراً حسناً في الأجيال القادمة.

وقوله: {وَاغْفِرْ لِأَبِي}. أي: دعا لأبيه، وذلك قبل أن يموت أبوه.

وقوله: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ}. أي: لا تذلّني بعقابك لي يوم تبعث عبادك يوم القيامة.

وقال تعالى في سورة الصافات: {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لا تنطِقُونَ

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ}.

قوله: {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ}. أي: من أنصار نوحٍ عليه السلام على الحق، وإن لم يكن من أهل زمانه، لاتفاق دعوتهما.

وقوله: {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}. أي: بقلب نقيّ من الكِبر والهوى.

وقوله: {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ}. والإفك معناه الكذب، أي، أتريدون آلهة مكذوبة من دون الله.

وقوله: {فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}. أي: ما ظنكم بربكم بعد أن اشركتم به تلك الآلهة.

وقوله: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}. أي: صرف نظره عنهم إلى النظر في النجوم، كأنه يفكّر في عذر يقدمه لهم حتى يقبلوا عذره في عدم خروجه معهم، فتفتّق ذهنه عن حيلة يتخلّص بها منهم، وهي أن يدّعي أنه سقيم، أي: مريض. وهي أوّل كذباته، التي كذبهنَّ في الله تعالى.

وقوله: {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ}. أي: ذهبوا وتركوه.

وقوله: {أَلا تَأْكُلُونَ}. أي: أنه استدل على عدم ألوهيتها، بعجزها عن الحركة، لأن الأكل حركة، لا أنه استدل بعدم أكلها على ذلك، لأن الأكل ليس من صفات الإله، كما قال تعالى: {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ}. [المائدة] فأوضح سبحانه وتعالى، على عدم ألوهيَّة عيسى وأمّه، بأكلهما للطعام، فدلّ هذا على أن الإله لا يأكل الطعام.

وقوله: {مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ}. أي: أنه استدل على عدم ألوهيتها، بعجزها عن الكلام بصوت بكلام مفهوم، وكان يريد منها أن تقول: بأنها آلهة، والآلهة لا تأكل الطعام، ولكنها لم تفعل.

وقوله: {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ}. أي: أقبل رسل ساداتهم ليأخذوه إلى حضرتهم، ليحققوا معه فيما فعل بأصنامهم.

وقوله: {يَزِفُّونَ}. أي: يمشون على عَجَل، حنقاً عليه، لما فعله بأصنامهم.

وقوله تعالى: {ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}. أي: بنو بنياناً من الحطب، بحيث وضعوا بعضه فوق بعض، وكانوا قد جمعوا له من الحطب ما يكفي لإحراقه، واحتملوه وألقوه في النار.

وقوله: {فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ}. أي: المغلوبين، والمغلوب سافل والغالب عالٍ.

وقال تعالى في سورة الممتحنة: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}.

قوله: {أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}. أي: قدوة صالحة، تقتدون بها.

وقوله: {وَالَّذِينَ مَعَهُ}. أي: الذين آمنوا معه، على قول من يقول بأن من قوم إبراهيم من آمن معه، وبهذا فالمعيّة هنا، معية زمانية مكانية، وقيل: الأنبياء، على قول من يقول بأنه لم يؤمن من قوم إبراهيم أحد، وبهذا تكون المعيّة هنا معيّة على الحقّ.

والذي أرجّحه وأميل إليه، أن المراد بهذه الآية، هم نفر من قوم إبراهيم آمنوا معه، وصدّقوا به وبرسالته، وبما جاء به من الحق، وأما الادعاء بأنه لم يؤمن مع غبراهيم أحد، قول مردود، فزوجته سارة، كانت فيمن آمن معه.

وقوله: {إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}. أي: أن على المؤمن أن يبرأ من الشرك والمشركين، وأن يكفروا بهم وبدينهم، وأن يظهروا لهم العداوة والبغضاء أبداً حتى يؤمنوا بالله وحده، وهذا لا يعني أن يبقى المسلم كل وقته وهو مشغول بذلك، ولكن يكفي منه ما يعلم منه المشرك أنه يعاديه ويبغضه، ويلتهي المسلم بشأنه.

وقوله: {إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}. أي: أن إبراهيم أراد أن يستغفر لأبيه، لعل الله أن يهديه إلى الحق.

وقوله: {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ}. دليل على أن الأنبياء لا يملكون لأحدٍ هداية ولا ضلالة، إنما هم دعاة للحق، وبهذا نعلم أن الأنبياء لا يملكون نفعاً ولا ضرّاً، وأنه لا يجوز دعاءهم، وطلب الحوائج منهم، من دون الله تعالى.

قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

قوله: {لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}. أي: لأزداد إيماناً، كما تقول العرب: ليس من رأى كمن سمع، فمن رأى أقوى يقيناً وإيماناً ممن سمع.

وقوله: {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ}. أي: الصرّ، هو الجمع، أي: أجمعهن إليك.

وقوله: {ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا}. أي: اذبحهن، ومزقهن، واخلط لحمهن وعظامهن وجلدهن وريشهن، واجعل على كل جبل، والجبل المراد هنا على الأرجح هو الحجارة البارزة، لا أن المراد أنه تسلق ثلاث جبال كبار، ليفرق أجزاء الطيور عليها.

وقوله: {يَأْتِينَكَ سَعْيًا}. أي: سوف تجتمع كل عظمة ولحمة وجلدة وريشة إلى صاحبتها، حتى تعود طيراً كما كانت.

قلت: ولم يخبرنا الله عز وجل، ولا رسوله صلى الله عليه وسلم، متى وقع ذلك، وهل كان قبل هجرة إبراهيم أم بعدها.

خبر الذي حاج إبراهيم في ربّه عز وجل

قال تعالى في سورة البقرة: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ}. والخطاب هنا موجّه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: {إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ}. أي: يجادله في ربه، وصفاته.

وقوله: {أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}. أي: بعد أن أكرمه الله تعالى وأنعم عليه بالملك، وكان ملكاً من ملوك القرى، جبّاراً متكبراً عاتياً مغروراً.

وقوله: {قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}. أي: أَقْتُل من شِئت، واَستَحيي من شئت، أي: أدعه حيّاً فلا أقتله.

ولم يذكر الله تبارك وتعالى ما حصل بعد ذلك بينهما، وهل تاب ذلك الملك أم لا، وهل أوقع به العقوبة أم لا.

ولا يدرى أين وقعت هذه المحاجة، ومن هو الملك الذي حاج إبراهيم في ربه، وهل وقعت المحاجة قبل هجرة إبراهيم من العراق أم بعدها، كل هذا لا أحد يعلمه، إلا الله تعالى.

وأما ما يزعمه القُصّاص من أن هذا الملك اسمه: نمرود، وأنه كان ملك بابل، فهذا من أوضاع قصّاص المسلمين، وذلك أن اليهود، ذكروا في تواريخهم أنه مَلَك على بابل، مَلِك يدعى نمرود، وأنه كان جبّاراً في الأرض، فنظر قصّاص المسلمين، فوجدوا أن هناك توافق بين صفة نمرود المذكور في كتب اليهود، وبين صفة الملك الذي حاج إبراهيم في ربه، في التجبر والتكبُّر، فجعلوا نمرود هذا، هو الملك الذي حاج إبراهيم في ربّه، وهذا تلفيق بين الروايات لا أكثر، ثم بدأوا في نسج الأخبار على هذا الظنّ.

فجميع الروايات التي رويت في خبر هذا الطاغية، قد ترجّح عندي، أنها من إفك القُصّاص ووضعهم، ولذلك أعرضت عن ذكرها هنا.

وقد يقول قائلٌ: كيف أثبت إبراهيم لذلك الطاغية أن الله تعالى هو من يأتي بالشمس من المشرق؟

والجواب على ذلك: أن من البديهي عقلاً أن للشمس خالقاً ومحرّكاً، أوجدها بعد أن لم تكن موجوده، وحرّكها بعد أن لم تكن متحركة، وأجراها من المشرق إلى المغرب، فأخبره إبراهيم أن من قام بذلك هو ربّه، فلم يعترض ذلك الطاغية على ما قاله إبراهيم لدلالة العقل الصحيح والفطرة السليمة عليه، من وجود رَبٍّ، أوجد الشمس وحركها وأجراها من المشرق إلى المغرب، ولكنه زعم أنه يضاهي هذا الرب قوة وقدرة، عندئذٍ طلب منه إبراهيم، أن يثبت ما ادعاه من كونه ندّا للرب الذي خلق الشمس وأجراها من المشرق إلى المغرب، فلم يستطع ذلك الطاغية أن يفعل، فعندئذ بُهت الطاغية.

فإبراهيم عليه السلام، ليس في صدد إثباته نبوّته، أو تحديد اسم ووصف هذا الإله، بل في الرد على من أدعى أنه ندّ للرب الذي خلق الكون، فطالبه بإثبات ما يدعيه فقط.

خبر سارة عليها السلام مع الجبّار

عن أبي هريرة، قال: مر إبراهيم وسارة بجبَّار من الجبابرة، فأُخبِر الجبَّار بهما، فأرسل إلى إبراهيم، فقال: من هذه معك؟ قال: أختي، قال أبو هريرة: فلم يكذب إبراهيم قط إلا ثلاث مرات مرتين في الله، وواحدة في امرأته، قوله: إني سقيم ، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله للجبار في امرأته: هي أختي، فلما خرج من عند الجبار دخل على سارة، فقال لها: إن الجبار سألني عنك فأخبرته أنكِ أختي، وأنت أختي في الله، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فأرسل إليها الجبار، فلما دخلت عليه دعت الله أن يكفه عنها، فأُخِذَ أخذة شديدة فعاهدها لئن خلي عنه لا يقربها، فدعت الله فخلي عنه، ثم هم الثانية فأُخِذَ أخذة أشد من الأولى فعاهدها أيضا لئن خلي عنه لا يقربها، فدعت الله فخلي عنه، ثم هم بها الثالثة فأُخِذَ أخذة هي أشد من الأوليين فعاهدها أيضا لئن خلي عنه لا يقربها فدعت الله فخلي عنه، فقال للذي أدخلها عليه: أخرجها عني فإنك إنما أدخلت علي شيطانا، ولم تدخل علي إنسانا، وأخدمها هاجر، فرجعت إلى إبراهيم وهو يصلي ويدعو الله، فقالت: أبشر فقد كف الله يد الفاجر الكافر، وأخدم هاجر ثم صارت هاجر لإبراهيم بعدُ فولدت له إسماعيل.

رواه عبدالرزاق في تفسيره.

وقوله: "فأُخِذَ أَخذَة شديدة". أي: أنها لما هَمّ بها، وأراد أن يمسكها، أصابه شيء منعه من الحركة، وكأن شيئاً يضغط على جسده بقوّة.

وقد وراه البخاري وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً، بزياداتٍ منكرة.

كقوله إن إبراهيم قال لسارة: "فإني أخبرتهم أنك أختي، والله إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك" اهـ

فهذه زيادة باطلة، فإبراهيم لم يكن هو وسارة المؤمنان وحدهما، بل آمن معه نفر قليل من قومه، وهاجروا معه.

قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}. [الممتحنة]

فقوله: {وَالَّذِينَ مَعَهُ}. دليل على أنه كان مع إبراهيم نفر مؤمنون.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى القول بأن معنى قوله: {وَالَّذِينَ مَعَهُ}. أي: الأنبياء، أي: أنهم معه على الحق، وهذا تأويل بعيد، وخلاف ظاهر النص.

وورد في رواية البخاري أيضاً قوله: "قامت توضأ وتصلي" وهذا لا يكون، فإن سارة أدخلت على الجبّار في مخدعه، فقام ليتناولها، يريد بها السوء، فمن أين لها الوقت لتخرج وتتوضأ وتقوم تصلي!

والصواب أن سارة لما أرادت الخروج مع أعوان الجبّار، توضأت في بيتها، وأخذت تدعو الله عز وجل في مسيرها إليها، فلما أدخلت عليه في مخدعه زاد تضرعها وابتهالها بصوت خفيّ إلى ربها، فأعانها عليه، وقذف في قلبه الرعب منها.

ولم يرد في الأحاديث الصحيحة، اسم هذا الجبّار، ولا موضعه، وإنما وردت إشارة عند رواة اليهود، أن هذا الجبّار هو ملك مصر، وأن هاجر كانت فتاة مصريَّة، ومنهم أخذ رواة المسلمون هذا القول.

فإن صحّ ما ذكره اليهود، فهذا يعني أن ما وقع لسارة مع الجبّار كان بعد هجرة إبراهيم إلى صحراء النقب، وأنه هبط مصراً لبعض حاجته ومعه سارة، فوقع لهما مع الجبار ما وقع.

واسم سارة، بتشديد الراء، اسم فاعل، مشتق من سرّ، وخفِّفَت الراء بعد ذلك، فهو اسم عربي، وهذه دلائل تشير كُلُّها، إلى عربيّة إبراهيم وقومه.

عن عبدالله بن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء. ثم قفّى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذًا لا يضيعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}. [إبراهيم] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يلتوي، أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه. ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا. ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فلذلك سعى الناس بينهما". فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه – أو قال بجناحه – حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم". أو قال: "لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا". فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية،

تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا. فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال عبد الله بن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تَرِكته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك أقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى. ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه" قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلًا له تحت دوحة، قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد. ثم قال: يا

إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}. [البقرة] قال: وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}. [البقرة]

رواه البخاري.

والحجر الذي جاء به إسماعيل عليه السلام لأبيه إبراهيم، هو الذي يدعى: مقام إبراهيم، وذلك أن إبراهيم كان يبني البيت، حتى إذا عجز أن يصل إلى أعلى سوره، جاءه إسماعيل بحجر ليصعد عليه، فصعد عليه، فألان الله الحجر، حتى طبعت أثر قدمه في الحجر، فكان ارتفاع السور قامة ونصف فقط، فكان ذلك الحجر يدعى مقام إبراهيم.

وإسماعيل، اسم مُركَّب من: إسماع، وتعني: إسمع، والألف للتأكيد، وإيل، هو الله تعالى وتقدّس، فيكون معنى الاسم: إسمع لله.

وقوله: "أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة" فيه إشارة لما ورد في تاريخ اليهود ما نصّه: "وَأَمَّا سَارَايُ ٱمْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ ٱسْمُهَا هَاجَرُ، فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبْرَامَ: «هُوَذَا ٱلرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ ٱلْوِلَادَةِ. ٱدْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. فَأَخَذَتْ سَارَايُ ٱمْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ ٱلْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشَرِ سِنِينَ لِإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لِأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ. فَدَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبِلَتْ. وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرَتْ مَوْلَاتُهَا فِي عَيْنَيْهَا. فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ! أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرْتُ فِي عَيْنَيْهَا. يَقْضِي ٱلرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». فَقَالَ أَبْرَامُ لِسَارَايَ: «هُوَذَا جَارِيَتُكِ فِي يَدِكِ. ٱفْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكِ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهِهَا. فَوَجَدَهَا مَلَاكُ ٱلرَّبِّ عَلَى عَيْنِ ٱلْمَاءِ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ، عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلَّتِي فِي طَرِيقِ شُورَ. وَقَالَ: «يَا هَاجَرُ جَارِيَةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ

تَذْهَبِينَ؟». فَقَالَتْ: «أَنَا هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ مَوْلَاتِي سَارَايَ». فَقَالَ لَهَا مَلَاكُ ٱلرَّبِّ: «ٱرْجِعِي إِلَى مَوْلَاتِكِ وَٱخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا». وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ ٱلرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْكَثْرَةِ». وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ ٱلرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ٱبْنًا وَتَدْعِينَ ٱسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لِأَنَّ ٱلرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ. وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ». فَدَعَتِ ٱسْمَ ٱلرَّبِّ ٱلَّذِي تَكَلَّمَ مَعَهَا: «أَنْتَ إِيلُ رُئِي». لِأَنَّهَا قَالَتْ: «أَهَهُنَا أَيْضًا رَأَيْتُ بَعْدَ رُؤْيَةٍ؟». لِذَلِكَ دُعِيَتِ ٱلْبِئْرُ «بِئْرَ لَحَيْ رُئِي». هَا هِيَ بَيْنَ قَادِشَ وَبَارَدَ. فَوَلَدَتْ هَاجَرُ لِأَبْرَامَ ٱبْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ ٱسْمَ ٱبْنِهِ ٱلَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ «إِسْمَاعِيلَ». كَانَ أَبْرَامُ ٱبْنَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ لِأَبْرَامَ".

قوله: "وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ ٱلرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْكَثْرَةِ»" أي: أن الله هو قائل ذلك، والملاك بلّغها ما قاله الله تعالى، ولكن الراوي صاغ الخبر وكأن القول قول الملاك، وكان الصواب أن يقول: يقول الله لكِ.

وقوله: "وَتَدْعِينَ ٱسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لِأَنَّ ٱلرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ" هنا يتبيّن وبجلاء، اشتقاق اسم إسماعيل العربي، وأنه مشتق من المصادر العربيّة، بلفظتها الصحيحة، وهذا يثبت بطلان من ادعى أن أسماء الأنبياء ليست عربيّة!

وقوله: "وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا" أي: يعيش في البادية.

وقوله: "يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ". أي: أنه يغير على الناس، وتغير الناس عليه.

وقوله: "وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ" أي: يسكن في جزيرة العرب، ويملؤها بذُرِّيَّته.

وقوله: "فَدَعَتِ ٱسْمَ ٱلرَّبِّ ٱلَّذِي تَكَلَّمَ مَعَهَا: «أَنْتَ إِيلُ رُئِي»" قلت: هذا من تحريف رواتهم، وإلا فالمتكلم معها ملاك، كما صرّح الراوي في أوّل الخبر، وليس الربّ، ولا يُدعى الملاك ربّاً، إلّا أن يكون المراد بذلك أنه ربّها الذي يلي أمرها ويعتني بها وبصغيرها، ولكن أيضاً هذا غير وارد، لأنه لم يرد في السنة المرفوعة عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يفيد كل ما سبق، مما يجعل القول بأن هذا الخبر كلّه من وضع قصّاص اليهود، هو الأرجح.

وقول عبدالله بن عباس: "ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت". فيه ردٌّ على ما زعمه رواة اليهود، من أن إبراهيم لم ينقل إسماعيل وأمه إلى بادية فاران – وهو الاسم الذي يطلقونه على بادية الحجاز – إلّا عندما صار صبيّاً يافعاً، فقد ورد في تاريخ اليهود ما نصّه: "وَرَأَتْ سَارَةُ ٱبْنَ هَاجَرَ ٱلْمِصْرِيَّةِ ٱلَّذِي وَلَدَتْهُ لِإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ، فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: «ٱطْرُدْ هَذِهِ ٱلْجَارِيَةَ وَٱبْنَهَا، لِأَنَّ ٱبْنَ هَذِهِ ٱلْجَارِيَةِ لَا يَرِثُ مَعَ ٱبْنِي إِسْحَاقَ». فَقَبُحَ ٱلْكَلَامُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ٱبْنِهِ. فَقَالَ ٱللهُ لِإِبْرَاهِيمَ: «لَا يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغُلَامِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ ٱسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لِأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَٱبْنُ ٱلْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لِأَنَّهُ نَسْلُكَ». فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَٱلْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. وَلَمَّا فَرَغَ ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْقِرْبَةِ طَرَحَتِ ٱلْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى ٱلْأَشْجَارِ، وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ، لِأَنَّهَا قَالَتْ: «لَا أَنْظُرُ مَوْتَ ٱلْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. فَسَمِعَ ٱللهُ صَوْتَ ٱلْغُلَامِ، وَنَادَى مَلَاكُ ٱللهِ هَاجَرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لَا تَخَافِي، لِأَنَّ ٱللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ ٱلْغُلَامِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي ٱحْمِلِي ٱلْغُلَامَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لِأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». وَفَتَحَ ٱللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلَأَتِ ٱلْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ ٱلْغُلَامَ. وَكَانَ ٱللهُ مَعَ ٱلْغُلَامِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ".

وقولهم: "فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَٱلْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ" قولٌ باطل، وهو من تحريف وتخليط رواتهم، فهاجر وابنها أقاما في مكة، وليس في بادية النقب، ثم إن إبراهيم، هو من نقل هاجر وابنها إلى مكة، ولم ينقلها بسبب أن سارة تريد إبعادها وابنها عنها وعن ابنها إسحاق، بل لأن الله تعالى هو من أمره بذلك، لما أراد الله تعالى أن يكرم إسماعيل به من النبوة والرسالة، وبعثه إلى قبائل الحجاز.

وأما قولهم: "وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ" فهذا من تحريف وتخليط رواة اليهود أيضاً، إذ جعلوها ترتحل إلى مصر، لتأخذ له زوجة من هناك! والصواب، أنها أخذت له زوجة من القوم الذين حلّوا عليها، ونزلوا بجوارها في مكة.

وقوله: "فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فيه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في سورة إبراهيم في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}.

قوله: {اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}. أي: بكّة، والعرب صارت فيما بعد تبدل الباء ميماً، لتقارب مخرجها، فيقولون: مكة.

وقوله: {بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ}. أي: وادي بكة.

وقوله: {عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ}. أي: عند الكعبة، وهي بيت الله المحرّم.

وقوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}. فيه دليل على أن إبراهيم لما نقل هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة، كان قد بُشِّر بإسحاق، او أنه قد وُلِد له، وهذا يدل على أنه ليس هناك فارق كبير في السنّ بين إسماعيل وإسحاق، وهذا يعني أيضاً أن إبراهيم لم ينقل إسماعيل وأمه إلى مكة، فور ولادة إسماعيل، بل مكثا عنده وقتاً ليس بالطويل، حيث نقلهما

إلى مكة، وإسماعيل لا يزال رضيعاً، وفي هذا دليل أيضاً، على أن هلاك قوم لوط، كان قبل أن ينقل هاجر وابنها إلى مكة.

وقوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ}. ودعاء إبراهيم لوالديه قبل أن يموتا على الشرك، فلما ماتا على الشرك ترك الدعاء لهما بالمغفرة، وفي هذا إشارة إلى أن والدي إبراهيم كانا على قيد الحياة في ذلك الوقت الذي دعا فيه إبراهيم هذه الدعوات، وهناك احتمال أخر، وهو أن إبراهيم، كان يدعو لوالديه حتى بعد وفاتهما على الشرك، حتى ورد النهي من الله تعالى له عن ذلك.

قلت: وادعاء رواة اليهود، أن سارة لما غارت من هاجر، أذلّتها حتى اضطرت هاجر إلى الهروب منها في البريَّة، وادعائهم أنها أنِفَت من أن يلعب إسماعيل ابن الجارية مع ابنها، كلّ ذلك من تحريفهم وتخليطهم، فقد جعلوا سارة المرأة الصالحة، امرأة حسوداً مُتكبِّرَةً، وحاشاها من ذلك عليها السلام، ولعلّ ابن عباس رضي الله تعالى عنه، تأثر بروايات اليهود في هذا الشأن، ومنهم أخذ أن هاجر، هي أوّل من اتخذت المنطق لتُعفي أثرها من سارة، لكي لا تقتص أثرها، وتلحق بها، وتعيدها، لتستمر في إذلالها، وكيف لا يقول اليهود عن سارة ذلك، وقد قالوا في أنبياء الله تعالى ما هو أعظم من ذلك!

وقال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}.

قوله: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً}. أي: البيت الحرام، وهو الكعبة المشرّفة، مثابة، أي: محلاً ليثوب الناس إليه، ومعنى يثوب: أي: يفد إليه الناس للحج والعمرة، وأمناً، أي: مكان يأمن الناس فيه، فلا يجوز لمن كان يؤمن بالله واليوم الأخر، أن يخيف فيه أحدا.

وقوله: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}. أي: الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام وهو يبني الكعبة، أمر الله تعالى المسلمون، أن يستقبلوه في صلاتهم إن استطاعوا، لذلك يستحب للمصلي أن يجعل مقام إبراهيم بينه وبين الكعبة، فيصلّي إليهما جميعاً، عند القدرة، وليس هذا بواجب، وإنما هو مستحب.

وقوله: {قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً}. أي: أن الله تعالى سوف يرزق الكفّار كما يرزق المسلمين.

وقال تعالى في سورة الصافات: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}.

قوله: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}. أي: أنه دعا الله عز وجل أن يهبه ولداً ذكراً صالحاً.

وقوله: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}. أي: بلغ مبلغاً يستطيع فيه السعي لمرضات الله تعالى، ولطلب الرزق، أي: أنه بلغ مبلغ الرجال.

وقوله: {إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}. هذه رؤيا منام، رآها إبراهيم عليه السلام، ورؤيا الأنبياء وحي، لذلك علم إبراهيم أن الله أمره بذبح ابنه بكره، وذلك بعدما فرغ إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام من بناء البيت العتيق، وهو في مكة، قبل أن يعود إلى الشام.

وقوله: {فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ}. أراد إبراهيم أن يطيعه إسماعيل بمحض إرادته، دون إكراه، ليكون له في ذلك أجر.

وقوله: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}. فيه دليل على قوَّة إيمان إسماعيل عليه السلام.

وقوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا}. أي: استسلما لله تعالى ولأمره.

وقوله: {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ}. أي: أمسك بجبينه، وشدّ بها رأسه، لتبرز رقبته، استعداداً للذبح.

وقوله: {وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ}. أي: بعث الله له ملكاً، ليوقفه عن اتمام عملية الذبح.

وقوله: {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}. أي: آمنت وأطعت ربك، حتى في لما أمرك بذبح ابنك، وهذا دليل على شِدَّة حب إبراهيم عليه السلام لربه عز وجل، مع شِدَّة خوفه منه، وشِدَّة طاعته له.

وقوله: {نَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ}. أي: امتحان عظيم، لا يقدر على طاعة الله فيه، إلا من بلغ مبلغاً عظيماً من الإيمان بالله تعالى.

وقوله: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}. أي: كبش كبير سمين، بعثه الله تعالى مع الملك، ليذبحه إبراهيم، بدلاً من ابنه.

وأهل الكتاب يزعمون أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل، وهذا من تحريفهم وكذبهم، لأن الله تعالى قال في محكم التنزيل: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}. [الصافات]

ثم لما حكى قصّة الذبيح، قال بعد ذلك: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}. [الصافات]

فجاء بخبر البشارة بميلاد إسحاق، بعد ما قصّ لنا قصّة الغلام الذبيح، فتبيّن بجلاء، أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، لأنه بالإجماع لم يكن لإبراهيم ولد قبل إسحاق، سوى إسماعيل.

وقال تعالى في سورة مريم: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا}.

وفيه دليل على أن إسماعيل كان رسولاً.

والرسول هو من أُوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه.

أي: أن الله تعالى بعثه رسولاً إلى أصهاره وحلفائه من جرهم.

فإن قيل: أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: "وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة".

رواه البخاري ومسلم.

فالجواب: إن قوم الرجل لا تقتصر على أقاربه في النسب، بل هي أوسع من ذلك، فقوم الرجل حلفاءه، وقوم الرجل مواليه، وابن أختِ القوم منهم.

وإسماعيل عليه السلام، كانت جرهم حلفاءه، وأصهاره، فهم بهذا الاعتبار قومه وعشيرته، وإليهم بُعِث.

فإن قيل: ما بال الأنبياء يبعثون من علياء قومهم، وأوسطهم حسباً ونسباً، ويبعث إسماعيل إلى جرهم، وهو ليس من أنفسهم؟

فالجواب: أن هذا الشرط الذي ذكرتموه، ليس شرطاً منصوصاً عليه في كتاب ولا سنّة، وإنما استظهر من تاريخ بعض الأنبياء، أنهم بعثوا من أوسط قبائلهم نسباً وحسباً لعلّة، وهي لكي لا يقول قومهم أنهم إنما ادعو النبوّة ليحوزوا بذلك المجد والشرف، فإما إذا أُمِن هذا الجانب، فلا بأس في أن يبعث النبي إلى قوم ليسوا بنُسباء له.

وإسماعيل عليه السلام، كان هو صاحب الدار والماء، وجرهم إنما نزلوا عليه، وجاوروه، وحالفوه، ثم زوّجوه، فهم جيرانه وحلفاءه وأصهاره، فهو صاحب المجد والشرف والسؤدد فيهم، كونهم لا يملكون معه شيئاً، إلّا أنه تفضّل عليهم هو ووالدته بأن يقيموا في داره، ويشربوا من ماءه، فأي شرف يبتغيه إسماعيل من ادعاءه النبوّة، مع أنه ما هنالك في جرهم أشرف منه، فلمكانته بينهم، ومجده وشرفهم وسؤدده بينهم، بعثه الله إليهم، كونهم يعرفون منزلته ومكانته من قبل أن يبعثه الله نبيّاً لهم.

والله أعلم وأحكم.

قال تعالى في سورة الأنعام: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا}.

وإسحاق، مشتق من، سحق، أي: حطّم، فالسحق، هو التحطيم، فهو اسم عربي.

وقال تعالى في سورة هود: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}.

قوله: {بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}. العجل هو صغير البقر، والحنيذ، هو المطهو على الحجر المحمّى.

وقوله: {فَضَحِكَتْ}. أي: ضحكت من غير قهقهة ولا استغراق في الضحك، والمراد به هنا الضحك المعهود، وإنما ضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط، لشدة فسقهم وفجورهم وكفرهم. وأما من زعم أن معنى ضحكت، أي: حاضت، فهذا معنى لا تعرفه العرب، وإنما أحدثه المحدثون من أهل الأهواء، قال الفراء: وأما قولهم – أي: قول بعض المفسّرين – : "فضحكت حاضت" فلم أسمعه من ثقة. قال أبو عمرو: وسمعت أبا موسى الحامض يسأل أبا العباس – وهو ثعلب – عن قوله: "فضحكت أي حاضت" وقال إنه قد جاء في التفسير؟ فقال: ليس في كلام العرب.

وقوله: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}. وهذه البشارة خاصة بسارة عليها السلام، بعد البشارة التي بشّر بها الملائكة إبراهيم عليه السلام، كما سوف يأتي معنا في سورة الحجر والذاريات.

وقال تعالى في سورة الحجر: {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ

تُبَشِّرُونَ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ}.

وقال تعالى في سورة مريم: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا}.

قوله: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}. والمراد بالاعتزال هنا: الابتعاد، أي: أنه هاجر وابتعد عنهم.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ}.

وقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}. أي: وهبنا له إسحاق، وبعده حفيده يعقوب، وكأن إبراهيم عليه السلام، أدرك ميلاد حفيده يعقوب، أو أنه بشّر به دون أن يراه.

وقوله: {نَافِلَةً}. والنافلة، ما كان زيادة على الأصل، أي: وهبنا له ابنه إسحاق، ثم زدناه، ووهبنا له حفيده يعقوب.

وقال تعالى في سورة العنكبوت: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}.

وقال تعالى في سورة الذاريات: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ}.

قوله: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}. أي: أن الملائكة لما بشّرت إبراهيم بولادة ابنه إسحاق من زوجه سارة، كانت سارة قريبة منهم، في ناحية من الخيمة، منحرفة عنهم، فأقبلت إليهم بوجهها، وقد صرخت ولطمت وجهها، على عادة النساء في الصراخ ولطم وجوههن، عندما يسمعن خبراً يفجعهن، وقالت لهم: أنا عجوز عقيم، فكيف ألد؟!

ولكنهم لم يردّوا عليها، فسألهم إبراهيم عن شأنهم بعد البشارة، أخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، ولعل هذا هو السبب في عدم ردّ الملائكة على سارة لما سألتهم، وهو أن إبراهيم بادرهم بسؤاله، وهنا ضحكت سارة كما أخبر الله تعالى في سورة هود، فبشّرها الملائكة بولادة ابنها إسحاق، وهذه بشارة خاصة منهم لها، عليها السلام.

وقد أعقب إسحاق ولدين.

جاء في تاريخ اليهود: "وَهَذِهِ مَوَالِيدُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: وَلَدَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ. وَكَانَ إِسْحَاقُ ٱبْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا ٱتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، رِفْقَةَ بِنْتَ بَتُوئِيلَ ٱلْأَرَامِيِّ، أُخْتَ لَابَانَ ٱلْأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانِ أَرَامَ. وَصَلَّى إِسْحَاقُ إِلَى ٱلرَّبِّ لِأَجْلِ ٱمْرَأَتِهِ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا، فَٱسْتَجَابَ لَهُ ٱلرَّبُّ، فَحَبِلَتْ رِفْقَةُ ٱمْرَأَتُهُ .. فَلَمَّا كَمُلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. فَخَرَجَ ٱلْأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ، فَدَعَوْا ٱسْمَهُ «عِيسُوَ». وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو، فَدُعِيَ ٱسْمُهُ «يَعْقُوبَ»". اهـ

وقولهم إن إسحاق لما تزوّج زوجته كان عمره أربعين سنة، قولٌ فيه نظر، ويظهر أنه بعيد كل البعد عن الصواب، في بيئة جرت العادة أن يتزوّج الرجال والنساء في وقتٍ مبكّرٍ جدّاً من عُمُرهم.

كما أن تحديدهم لاسم وشعب زوجة إسحاق، هو الأخر لا يمكن الوثوق به، ولكنه رواية شعبيّة الله أعلم بصحّتها.

وقولهم، أن إسحاق سَمَّى ابنه عيسو، هذا الاسم تحريف في العبريِّة، وصوابه: عيسى، ولكن لما تغيّرت ألسن بني إسرائيل واستعجمت، لم يحسنوا لفظ هذا الاسم بصيغته العربيّة، فقالوا: عيسو، وأما مؤرخي العرب، فقد حرّفوا الاسم إلى عيص، أو العيص، وهذا باطل.

وعيسو أو عيسى، مشتق من الأعيس، وهو الأبيض، شديد البياض، ويُصدِّق ذلك، ما ورد في كتب أهل الكتاب، حيث ورد ما نصّه في ذكر ميلاد عيسو ويعقوب: "فَخَرَجَ الأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ، فَدَعَوْا اسْمَهُ عِيسُوَ" اهـ وقوله: "أحمر" أي: أبيض شديد البياض، لأن العرب تسمي الأبيض شديد البياض أحمراً، وهذا يؤكد على أن اسم عيسو اسم عربي، مشتق من ألفاظ عربيّة.

ويذكر رواة اليهود، أنه كان له ولد كثير، وأنهم انتقلوا ونزلوا بجبل سعير، وتعرف المنطقة التي يقع الجبل فيها، باسم: أدوم، لذلك غلب على ولد عيسو، اسم المكان الذي نزلوا به، فيقال لعقبه: أدوم، والأدوميون.

أبناء إبراهيم عليه السلام غير إسماعيل وإسحاق

ولم يذكر الله تعالى في القرآن الكريم سوى ابنين لإبراهيم، هما: إسماعيل وإسحاق، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}. [إبراهيم] إلّا أن أهل الكتاب، يزعمون أن سارة عليها السلام، توفّيت قبل زوجها إبراهيم، فتسرّى بعد وفاتها بجارية تدعى: قطورة، فأنجبت له ستة أبناء.

جاء في تاريخ اليهود ما نصّه: "وَمَاتَتْ سَارَةُ فِي قَرْيَةِ أَرْبَعَ، ٱلَّتِي هِيَ حَبْرُونُ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ .. وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً ٱسْمُهَا قَطُورَةُ، فَوَلَدَتْ لَهُ: زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا. وَوَلَدَ يَقْشَانُ: شَبَا وَدَدَانَ. وَكَانَ بَنُو دَدَانَ: أَشُّورِيمَ وَلَطُوشِيمَ وَلَأُمِّيمَ. وَبَنُو مِدْيَانَ: عَيْفَةُ وَعِفْرُ وَحَنُوكُ وَأَبِيدَاعُ وَأَلْدَعَةُ. جَمِيعُ هَؤُلَاءِ بَنُو قَطُورَةَ". اهـ

قلت: وهذه الأسماء كما يظهر محرّفة في العِبريَّة عن لفظها العربيّ، ولا يمكننا معرفة لفظها العربيّ الصحيح، إلا بالظن والتخمين، حاشا مديان، والتي ورد ذكر لفظ اسمها الصحيح في القرآن، وهو: مدين..

فزَمْرَان، يظهر أنه لفظة صحيحة، وأنه مشتق من: زَمِر. والزَمِر، معناه: القليل. والألف والنون للمبالغة في الوصف.

ويقشان، قد تكون اللفظة الصحيحة، هي: وقشان، اشتق له اسم من الوقش، والوقش عند العرب، نوعٌ من المشي.

ومَدَان، قد يكون الاسم مشتق من: دان. أي: قرُب. وقد تكون اللفظة الصحيحة للاسم: مُدَان، بضم الميم، فيكون مشتقاً من الدينونة، وهي المحاسبة.

ويشباق، قد تكون اللفظة الصحيحة للاسم: يسبق، بإبدال الشين سيناً، وحذف الألف بالفتحة. ويكون الاسم مشتقاص من السبق.

وشوحا، قد تكون اللفظة الصحيحة للاسم: وشّاح، فقدم الراوي في الأحرف وأخّر، اشتق من التوشُّح، وهو: الارتداء، او التغطية، وقد تكون اللفظ الصحيحة هي: شوّاح، أو شائح، من الإشاحة، وهي المجانبة.

ومديان، هم قبيلة مدين، قوم نبي الله شعيب عليه السلام.

وبناء على ما ورد في كتب اليهود، فما ورد في كتاب الله تعالى، من الاقتصار على ذكر إسماعيل وإسحاق، له تأويلان:

الأول: أن ما ورد في كتب أهل الكتاب كذب، وأنه ليس لإبراهيم سوى إسماعيل وإسحاق. وأن مدين، إمّا أن يكونوا من ولد عيسى بن إسحاق، أو من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

والثاني: أن الله اقتصر في كتابه على ذكر إسماعيل وإسحاق، تنويها بذكرهما، لما أكرمهما الله تعالى به من النبوة.

ولا شك أن من آمن مع إبراهيم من قومه، كانوا رفقاءه في الهجرة، حيث صاروا قبيلا من البادية، فلما توفي إبراهيم عليه السلام، تزعَّم ابنه إسحاق تلك الطائفة المؤمنة، فلما توفي إسحاق تزعمهم ابنه يعقوب، حتى انتقل يعقوب وبنيه إلى مصر، وأيضا لا بُدّ أن لهؤلاء المؤمنين ذريّة، فقد ورد في تاريخ النصارى، في كتاب أعمال الرسل، ما يفيد ذلك، حيث ورد فيه ما نصه: "فَأَرْسَلَ يُوسُفُ وَاسْتَدْعَى أَبَاهُ يَعْقُوبَ وَجَمِيعَ عَشِيرَتِهِ، خَمْسَةً وَسَبْعِينَ نَفْسًا" اهـ فنجد أن رواة النصارى يذكرون أن يعقوب لم يكن لوحده عندما انتقل إلى مصر، بل كان معه خمسة وسبعون نفسا، مما يؤكد أن إبراهيم عندما انتقل إلى صحراء النقب، وما جاورها، لم يكن لوحده، بل كان معه أفراد من قبيلته، آمنوا به، وصدقوا برسالته، إذا يستحيل أن يقيم إبراهيم لوحده في البادية، في بيئة يتخطف الناس فيها بعضهم بعضا، ما لم يكن له عشيرة يستند إليها ويحتمي بها بعد الله عز وجل.

وأما أعقابهم، فقد انقطع خبرهم، وتلاشى ذكرهم، إلا أنني أرجح أن بعضهم ذهب مع عيسى وولده إلى سعير، وربما بعضهم رافق يعقوب وبنيه إلى مصر، بينما تفرق البقية في البلاد.

وكما أن آثار النبوة انمحت من ولد إسماعيل وإسحاق فيما بعد، فقد انمحت آثار النبوة من ولد النفر الذين هاجروا مع إبراهيم عليه السلام، ولحقوا بالقبائل الوثنية، وكما أنه لم يعد هناك وجود لذرية عيسى بن إسحاق، ولحقوا بالأمم البائدة، فكذلك أصاب ذراري النفر الذين آمنوا مع إبراهيم، حيث درجت أعقابهم، وانقطعت أخبارهم.

قال تعالى في سورة الأعراف: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}.

قوله: {الْفَاحِشَةَ}. هي إتيان الذكران.

وقوله: {مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ}. دليل على أن أول من عمل هذا العمل القبيح هم قلوم لوط عليهم لعنة الله.

وقوله: {مُّسْرِفُونَ}. أي: مسرفون في المعاصي، أي: مكثرون منها.

وقوله: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ}. أي: إنما همّوا بذلك ولم يفعلوا.

وقوله: {مِنَ الْغَابِرِينَ}. أي: من الهالكين، كونها كانت على ملة قومها، وراضية بما يفعلون.

وقوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا}. أي: جاءهم العذاب كالمطر.

وقال تعالى في سورة هود: {وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}.

قوله: {سِيءَ بِهِمْ}. أي: استاء من قدومهم عليه.

وقوله: {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا}. ضرب الله مثلاً بالضيق الذي أصاب لوط بسبب قدوم الضيوف عليه، بضيق الذِرع، والمراد به هنا ذَرْع الثياب، حيث كانوا يقيسون الثياب بأذرعهم، فإذا نقص الذَرْع، كان الثوب ضيّقاً على لابسه، فضربت العرب به المثل، فيمن يضيق بأمر، فيقولون: ضاق به ذرعاً.

وقوله: {يَوْمٌ عَصِيبٌ}. أي: يوم شديد.

وقوله: {يُهْرَعُونَ}. أي: يسيرون سيراً شديداً.

وقوله: {وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ}. أي: لا نريد سوى أضيافك.

وقوله: {إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ}. لعل المراد أنها لن تسير معهم، وسوف يصبحها العذاب مع قومها، وقد يكون المراد، أنها سوف تخرج مع زوجها وبانتها، وأنها سوف تلتفت فيقع العذاب عليها. وفي كتب اليهود، جاء ما نصُّه: "وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ" اهـ وهذا يعني أن اليهود يعتقدون أن زوجة لوط خرجت معه، فلما سمعت وقع العذاب التفتت، ورأت ما هالها وأذهلها، فصرخت، فمسخها الله عمود مِلح، ولكن هذه الرواية فيها نظر، والأرجح، أنه خرج من القرية وهي على فراشها، فصبّحها العذاب مع قومها، ورجمت بحجارة من سجين مسومة باسمها، والله وحده أعلم.

وقوله: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ}. أي: أن العذاب سوف يقع عليهم في الصباح.

وقوله: {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا}. أي: دمرها تدميراً وجعل أعلاها على أسفلها، وهو مثل، كما تقول العرب: "جعلنا عاليهم سافلهم" كناية عن تدمير أعدائهم وفتكهم بهم، وجعل عاليهم، وهم ساداتهم كبرائهم أسافلهم من الذل الذي وقع بهم والمهانة، وهدم دورهم وخيامهم، بحيث جعل عاليها، وهي أسقفها تهبط إلى الأسفل إلى الأرض.

وأما ما يروى من أن جبريل اقتلع قراهم بطرف جناحه، ورفع أرضهم إلى السماء، حتى سمع ملائكة السماء الدنيا نباح كلابهم، ثم قلبها، فهذا من أوضاع القُصَّاص.

وقوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً}. أي: أنزلنا عليهم حجارة، والواو هنا، واو عطف، وواو العطف، لا تدل على ترتيب بينهما ولا تعقيب، لذلك قَدَّم ذكر نكبة قوم لوط، بجعل عاليهم سافلهم، على ذكر إنزال الحجارة عليهم، مع أن جعل عاليهم سافلهم، لم يقع إلا بعد إنزال الحجارة.

وقوله: {سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ}. أي: من حجر مخلوق من طين محمّى، شديد السخونة، وهذا شبيه بالحجارة التي تلقيها البراكين.

وقوله: {مُّسَوَّمَةً}. أي: قد وسمت كل حجارة منها باسم صاحبها التي أُعِدّت له.

وقوله: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}. أي: ليست عن أن يقع مثلها بالظالمين الآخرين، ببعيد، أي: أن الله تعالى يهدد كل ظالم بأنه قد يقع عليه ما وقع بقوم لوط.

وقال تعالى في سورة الحجر: {فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}.

قوله: {قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ}. أي: أنه استنكرهم، ولعل ذلك، كان بعد أن لم يستطع قومه الوصول إليهم.

وقوله: {قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}. أي: أنهم كشفوا عن حقيقة أمرهم، وأنهم ملائكة قدموا لعذاب قومه.

وقوله: {وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ}. أي: أمر أن يكون خلف أهله، يتبع أدبارهم في آخرهم إذا مشوا.

وقوله: {وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ}. أي: نهاه الملائكة عن أن يلتفت لوط أو أحد من أهله ورائهم، لينظروا ما يقع لقومهم من العذاب.

وقوله: {وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ}. أي: سيروا إلى حيث أمركم الله تعالى، إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام.

وقوله: {مُّصْبِحِينَ}. أي: مع شروق الشمس صباحا.

وقوله: {وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ}. هذا وقع قبل أن يستنكرهم لوط، ويخبروه أنهم ملائكة، ولكن الله يقدم في الخبر ويؤخر، بحسب ما يرى سبحانه.

وقوله: {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ}. أي: أنهم كانوا قد نهوه عن استقبال الضيوف في داره، وأنه إن فعل، فسوف يغتصبونهم.

وقوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ}. أي: أن الحجارة التي أمطرت عليهم، كان معها صيحة عظيمة، أرعبتهم.

وقوله: {مُشْرِقِينَ}. أي: مع شروق الشمس.

وقوله: {لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}. أي: للمتمعّنين، إذا تمعّنوا في قرية قوم لوط، وما أصابها من الخراب.

وقوله: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ}. السبيل هو الطريق السالك، أي: أن قرية قوم لوط، على طريق من يريد الشام من أهل الحجاز، مقيمة أطلالها وخرائبها، لم تندثر بعد، وهذا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وأما بعد ذلك، فقد اندثرت هذه القرية تماماً.

وقال تعالى في سورة الأنبياء، وهو يتحدث عن نبيّه إبراهيم: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}.

أي: نجّى الله تعالى إبراهيم عليه السلام إلى صحراء النقب، وهي الأرض التي بارك فيها، ثم أمر لوطاً بالهجرة إلى إبراهيم، والإقامة معه، وذلك بعد أن وقع العذاب بقومه.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ}.

قوله: {أَخُوهُمْ لُوطٌ}. أي: أنه منهم نسباً وابن أبيهم، فليس حليفاً لهم ولا مولى، وهذا يرد على ما زعمه رواة اليهود في كتبهم، من أن لوطاً كان ابن أخي إبراهيم عليه السلام.

وقوله: {الْقَالِينَ}. أي: التاركين، المباعدين، وقَلَى، معناها: ترك وباعد.

وقوله: {أَجْمَعِينَ}. أي: هو وبناته.

وقوله: {إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}. أي: امرأته.

وقال تعالى في سورة النمل: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ}.

قوله: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}. أي: أن بعض قوم لوط قال ذلك، ولكنهم لم يُجمِعوا على ذلك، ولم يخرجوهم.

وقال تعالى في سورة العنكبوت: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

قوله: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}. أي: آمن لوط بنبوّة إبراهيم عليه السلام، وما جاء به من الحق.

وقوله: {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}. الضمير يقال أنه عائد إلى إبراهيم عليه السلام، أي: أن الله تعالى أمره بالهجرة، أي: بالنُقْلة عن دار قومه، إلى دار يعبد الله فيها، وهو الراجح. وقيل عائد إلى لوط عليه السلام، أي: أن الله أمره بالهجرة من دار قومه إلى البلد التي أمر الله تعالى إبراهيم أن يهاجر إليها.

وقال تعالى في سورة العنكبوت: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

قوله: {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}. أي: تعترضون المسافرين وتنهبون ما معهم، وربما قتلوهم إذا حاولوا المقاومة.

وقوله: {نَادِيكُمُ}. أي: أماكِنكم العامة، التي تجتمعون فيها، وكانوا يسمون المكان العام نادي، لأنهم كانوا إذا أرادوا أن يجمعوا قومهم لأمر، نادى فيهم المنادي أن يجتمعوا في ذلك المكان.

وقوله: {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}. دليل على أن لوط هو من دعا على قومه، فاستجاب الله دعاءه.

وقوله: {رِجْزًا}. أي: عذاباً.

وقوله: {وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً}. أي: أن الناس كانوا يرون بقايا منازلهم، وأطلالها، وكون الناس كانوا يرون بقايا أطلال قرية قوم لوط، فهذا دليل واضح، على كذب الرواية التي جاء فيها أن الله تعالى أمر جبريل بأن يرفعهم بطرف جناحه، حتى سمع الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها رأساً

على عقب، لأنه لو كان هذا كذلك، لم يكن الناس ليرون أطلال قريتهم المهدمة، وإنما تم تأليف هذه الرواية من بعض القصّاص، ليتأول بها قوله تعالى: {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا}. فاختلق تلك القصة لتناسب ظاهر الآية.

وقال تعالى في سورة الصافات: {وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}.

قوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ}. هذا خطاب موجّه لقريش خاصّة، ومن يسلك طريقهم في أسفارهم إلى الشام، فيقول الله تعالى لهم: إنكم يا معشر قريش، تمرّون بقرية قوم لوط أحياناً في الصباح، وأحياناً في الليل.

وقال تعالى في سورة القمر: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}.

قوله: {حَاصِبًا}. هي الحجارة المحمَّاة.

وقوله: {نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ}. أي: نجيناهم قبل الفجر، والسحر هو أخر الليل، قبل الفجر.

وقوله: {فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ}. أي: أنهم لما أرادوا ضيفه بسوء، طمس الله على أعينهم، وقيل في طمس أعين قوم لوط روايتان:

الأولى: أن أحد الملائكة خرج عليهم وضربهم بالعمى، فرجعوا إلى بيوتهم وهم لا يبصرون، وهكذا ورد في كتب اليهود، حيث جاء ما نصّه: "فَأَلَحُّوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطٍ جِدًّا وَتَقَدَّمُوا لِيُكَسِّرُوا الْبَابَ، فَمَدَّ الرَّجُلاَنِ أَيْدِيَهُمَا وَأَدْخَلاَ لُوطًا إِلَيْهِمَا إِلَى الْبَيْتِ وَأَغْلَقَا الْبَابَ. وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضَرَبَاهُمْ بِالْعَمَى، مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، فَعَجِزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ" اهـ

والثاني: أنهم غلبوا لوطاً، واقتحموا داره، ودخلوا إلى مجلسه، ولكنهم لم يرو شيئاً، مع أن الملائكة كانوا جلوساً، إلا أنهم لم يروهم.

عن عبدالله بن عباس قال: عمى الله عليهم الملائكة حين دخلوا على لوط.

رواه الطبري.

وعن الضحاك بن مزاحم قال: جاءت الملائكة في صور الرجال، وكذلك كانت تجيء، فرآهم قوم لوط حين دخلوا القرية. وقيل: إنهم نزلوا بلوط، فأقبلوا إليهم يريدونهم، فتلقّاهم لوط يناشدهم الله أن لا يخزوه في ضيفه، فأبوا عليه وجاءوا ليدخلوا عليه، فقالت الرسل للوط خلّ بينهم وبين الدخول، فإنا رسل ربك، لن يصلوا إليك، فدخلوا البيت، وطمس الله على أبصارهم، فلم يروهم؛ وقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت، فأين ذهبوا؟ فلم يروهم ورجعوا.

رواه الطبري.

وأياً يكن ذلك، فإن لوط لما رأى ما فعل هؤلاء الملائكة، وهو يظنهم رجالاً من الإنس، استنكر أمرهم، لذلك قال لهم، كما ورد في سورة الحجر: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ}.

وهذا يعني، أن الملائكة، لم تقل للوط: "إنّا رُسُل ربِك لن يصلوا إليك" وقع بعد أن اقتحم قوم نوحٍ الدار، ودخلوا إلى مجلسه، فلم يجدوا شيئاً وخرجوا، وهذا يدل على خطأ الضحَّاك رحمه الله عندما قال: "فقالت الرسل للوط خلّ بينهم وبين الدخول" لأنه لو قالوا له ذلك قبل أن يقتحم عليه قومه داره، لم يستنكر أمرهم، لأنهم قد أخبروه بأنهم ملائكة أرسلهم الله تعالى، ولكن إخبارهم له، بأنهم ملائكة، إنما وقع بعد أن أفصح لهم، عن استنكاره لأمرهم وشأنهم.

وقال تعالى في سورة التحريم: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}.

قال تعالى في سورة الأنبياء: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ}.

وقوله: {وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}. أي: وهبنا له إسحاق، وبعده حفيده يعقوب، وكأن إبراهيم عليه السلام، أدرك ميلاد حفيده يعقوب، أو أنه بشّر به دون أن يراه.

وقوله: {نَافِلَةً}. والنافلة، ما كان زيادة على الأصل، أي: وهبنا له ابنه إسحاق، ثم زدناه، ووهبنا له حفيده يعقوب.

قلت: وأهل الكتاب، يزعمون أن إسحاق أعقب ولدين توأمين، هما: عيسى ويعقوب، جاء في كتب اليهود، ما نصّه: "فَلَمَّا كَمُلَتْ ايَّامُهَا لِتَلِدَ اذَا فِي بَطْنِهَا تَوْامَانِ، فَخَرَجَ الاوَّلُ احْمَرَ كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ فَدَعُوا اسْمَهُ عِيسُوَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ اخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو فَدُعِيَ اسْمُهُ يَعْقُوبَ". اهـ

وعيسو، هي اللفظة العبرانية لاسم: عيسى.

وقولهم: "فَخَرَجَ الاوَّلُ احْمَرَ" أي: أبيض اللون، والعرب تطلق على الإنسان الأبيض اللون: أحمر. كما تطلق على من كان لونه أبيضاً: أعيس، ولذلك أسماه والده: عيسى، كون لونه أبيضاً.

وأما مؤرخوا المسلمين، فقد حرّفوا ترجمة الاسم إلى العيس، والعيص، لكيلا يشتبه اسمه باسم عيسى بن مريم عليهما السلام.

وقوله: "وَبَعْدَ ذلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو، فَدُعِيَ اسْمُهُ يَعْقُوبَ" وفي هذا الخبر، دلالة على أن عيسى سبق يعقوب في الخروج من بطن أمه، وأن يعقوب جاء عقِبَه، لذلك سمّاه أبوه: يعقوب.

وهذا تصريح من أهل الكتاب، بأن اسم يعقوب مشتق من الإعقاب، وهذا يعني، أن اسم يعقوب اسم عربي محض، وهذا خلاف ما يدّعيه الجهلة من المتفقِّهَة المتعالمين، من المفسّرين واللغويين، من أن اسم يعقوب، اسم أعجمي، وأنه لا يجوز البحث عن اشتقاق له في العربيَّة.

فإن كان هذا حقّاً — أي أن يعقوب له أخٌ توأم، اسمه: عيسى - فهذا يعني، أن الله تعالى بشّر إبراهيم وسارة، بولادة ابنهما يعقوب، من ابنهما إسحاق، تخصيصاً دون عيسى، لما سوف يكرمه به من النبوّة.

وسمّاه الله تعالى إسرائيل، فكان من عقبه بنو إسرائيل. وإسرائيل كلمة مركبة من شِقّين، هما: إسراء، وتعني: الساري، وإيل، وتعني: الله عز وجل، فيكون معنى الاسم الإجمالي: الساري إلى الله، ويظهر أنه سُمّي بهذا الاسم، لأنه سرى ليلاً في سبيل الله، فسمّاه الله تعالى بهذا الاسم تكريماً له.

ويزعم رواة اليهود، أن يعقوب تزوج بامرأتين:

الأولى: اسمها لينة، وأنجبت له: رأوبَيْن وهو أكبر أبنائه ويهودا ولاوي وشمعون وزبولون وياسَّاكر وبنتاً واحدة اسمها دينه.

والثانية راحيل، وأنجبت له ولدان هما: يوسف وبنيامين.

ثم يذكرون أنه تسرّى بجاريتين:

الأولى: اسمها بيلهة، وأنجبت له ولدان هما: دان ونفتال.

والثانية: اسمها زيلفة، وأنجبت له ولدان هما: جاد وأشير.

وهذه الأسماء حُرِّفت ألفاظها العربيَّة، بعد أن استعجمت ألسنت بني إسرائيل، وقد نقلت في ترجمتها العربية، بصيغتها الأعجمية المحرَّفة، ولا يمكننا معرفة الألفاظ العربيّة لأسماء أبناء يعقوب إلا بالظنّ والتخمين.

فأول أبناء يعقوب هو: راوبين، وأصل الاسم روبين، ولكنه رسم في التوراة المترجمة بالألف، وإذا علمنا أنه في العبرية الأعجمية يتم استبدال حرف الألف بحرف الياء، يظهر لنا أن أصل الاسم: روبّان. وأما الواو، فقد تبدو أنها ليست سوى ضمّة على حرف الألف، تم إشباعها في العبرية الأعجمية لتصبح واواً، فيكون الاسم: رُبَّان. إذا اسم ابن يعقوب، قد يكون: رُبَّان.

ويظهر أنه مشتق من "رَبِنْ" ومعناه: "شيء حديث أو جديد أو طري" قال ابن فارس في معجمه: "الراء والباء والنون إن* جُعِلت النونُ فيه أصليّةً فكلمةٌ واحدة، وهي الرُّبَّان. يقال: أخَذْتُ الشّيء برُبَّانِهِ، أي بجميعه. وقال آخَرون: رُبّان كُلِّ شيءٍ: حِدْثانُه. وقال ابنُ أحمر: وإنّما العَيْش برُبّانِهِ * وأنتَ من أفْنَانِه مُعْتَصِرْ. يريد برُبّانِه: بجِدَّتِه وطَرَاءَته." اهـ

فيكون اسم روبين، مشتق من الحّدّثان والجِدَّة والطراوة، ويثبت ذلك ويدلّ عليه، أنه ورد في كتب أهل الكتاب، أن روبين، هو الابن البِكر ليعقوب عليه السلام، أي أحد أبناءه وأجدّهم وأطراهم، ولذلك سمّاه: رُبَّان، وحُرِّف في العبريّة إلى رُوبين.

والابن الثاني هو: يهودا، والذي يتضح بجلاء أنه محرّف عن اللفظة العربيّة لاسم: هود.

والابن الثالث هو: لاوي، وهو في العربية مشتق من اللوي، وهو اللفّ والدوران، ويظهر لي أنه محرّف عن اللفظة العربيّة لاسم: لؤي.

والابن الرابع هو: شمعون، فإذا علمنا أنه في العبرية الأعجمية قد يتم استبدال السين بالشين، واستبدال الألف بالواو، يظهر لنا أن شمعون، محرّف عن اللفظة العربيّة لاسم: سمعان.

والابن الخامس هو: زبولون، ويظهر أن هذا لاسم، محرّف عن اللفظة العربيّة لاسم: زُبْلان أو زُبالة، وقد سمّت العرب زُبَالة، منهم زُبالة بن عمرو بن تميم، وهي هنا إما تعني الرجل الذي يحمل الأشياء، فهو كالزبيل، أو الرجل القصير، قال ابن منظور: " والزَّبِيل والزِّنْبيل: الجِراب، وقيل الوِعاء يُحْمل فيه، فإِذا جَمَعوا قالوا زَنابيل، وقيل: الزِّنْبِيل خطأ وإِنما هو زَبِيل، وجمعه زُبُل وزُبْلان. والزَّأْبَل: القصير؛ قال: حَزَنْبَل الحِضْنَيْن فَدْم زَأْبَل.

والابن السادس هو: ياساكر، وإذا علمنا أنه في العبرية الأعجمية قد يُستبدل حرف الشين بحرف السين، وأن الألف زائدة، فيكون الاسم محرّف عن اللفظة العربيّة لاسم: يشكر.

والابن السابع هو: دان، وهو اسم عربي، ويظهر أنه مشتق من الداني، وهو الهيِن.

والابن الثامن هو: نفتالي، ولم اهتد إلى ما يقاربه من الألفاظ العربيّة، إلّا أن تكون النون هنا زائدة، ويكون الاسم محرّف عن اللفظة العربيّة لاسم: فتَّال، وهو مشتق من الفتل. والعرب في بعض الأحيان قد يزيدون في الأسماء أو الألقاب أحرف لا معنى لها. فقد يكون هذا من ذاك.

والابن التاسع هو: جاد، وهو اسم عربي، مشتقٌ من الجِدّ.

والابن العاشر هو: أُشير، ويتّضح أنه محرّف عن اللفظة العربيّة لاسم: عشير، وهو اسم عربي، مشتق من العِشرة، وقد يكون صوابه: عسير، لأنه في العبرية الأعجمية، يبدلون السين شيناً والعكس.

والابن الحادي عشر هو: يوسف، وهو مشتق من الأسف، وهو الغضب، قال تعالى: {فلما آسَفُونا انْتَقَمْنا منهم}. وقد تكون مشتقة من الأسف وهو الحزن على أمر مضى. والأول أرجح، لأنه معنىً يدل على القوة، بينما المعنى الأخر يدل على الضعف، وليس الأنبياء بضعفاء.

والابن الثاني عشر هو: بنيامين، وهو اسم مركب من شِقيّن: "ابن" و "يامين" وابن تعني: ولد. ويامين تعني: اليمين، فاسم بنيامين، مشتق من ابن اليمين. ويراد باليمين هنا: اليُمن، وهو التوفيق، ويراد به: البركة، أي: ابن البركة.

ويزعم رواة اليهود، أن راحيل لم تلد ابنيها، إلا في وقتٍ متأخِّر، وكانت أخر من أنجب من زوجات وسراري يعقوب عليه السلام.

ويذكرون أن يوسف كان أكبر من شقيقه بنيامين، وعلى هذا، فيوسف يعتبر الابن الحادي عشر، في قائمة أبناء يعقوب، وهذا ما أشارت إليه الآيات القرآنية، الواردة في قصة يوسف.

وزعم رواة اليهود، أن لينة وراحيل أختان، وأن راحيل أم يوسف وبنيامين ماتت ويوسف وأخوه صغيران، وهذا من وضعهم.

فأما قولهم إن لينة وراحيل أختان: فإن الله تعالى، حرم الجمع بين الأخوات، فلم يحرمه في شرعنا ويبيحه في شرعهم.

وما حرم الله تعالى الجمع بين الأخوات، أو بين المرأة وعمتها، أو المرأة وخالتها، إلّا لما قد يقع بسبب ذلك من البغضاء وقطيعة الأرحام، وهذه العلّة لا تزول، فتبيّن أنها محرّمة في شرعنا وشرع من قبلنا.

وما حرّم الله عزّ وجلّ نكاح الأمهات والأخوات وبنات الأخوات وبنات الإخوان والخالات والعمات، إلّا لأنه يستقبحه، فهو حرام منذ زمن آدم وإلى أن تقوم الساعة.

ولم يحلّ الله سوى نكاح الأخوات، ولم يحلّه إلّا لضرورة عدم وجود نساء غيرهن، إن صحّ ما يزعمه القصّاص من أن الله أباح لأبناء آدم لصلبه نكاح أخواتهم، وإلّا فهو زعم لم يثبت، ثم حرّمه الله تعالى بعدُ، فهو حرام إلى يوم القيامة.

والصواب عندي، أنه إن كانت لينة وراحيل أُختان حقاً، فهذا يعني، أن يعقوب تزوّج لينة أولاً، ثم توفيت، ثم تزوج راحيل، كونها أمّ بنيه الصِغار.

قال تعالى في سورة يوسف: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

قوله: {وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ}. أي: لم تكن تعلم عن قصص الأنبياء السابقين.

وقوله: {إِنِّي رَأَيْتُ}. أي: رؤيا منام.

وقوله: {رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}. لا يُدرى كيف سجدوا له، ولن يدرك ذلك، إلا من سأل يوسف عن ذلك، أو رأى ما رأى يوسف.

وقوله: {يَجْتَبِيكَ}. أي: يدنيك ويقربك.

وقوله: {وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ}. أي: يعلمك تأويل الرؤى بإلهام منه سبحانه.

ثم قال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}.

قوله: {لِّلسَّائِلِينَ}. أي: لمن يسأل عن خبرهم.

وقوله: {عُصْبَةٌ}. أي: جماعة.

وقوله: {اطْرَحُوهُ أَرْضًا}. أي: ألقوه في أرض بعيدة لا يرجع منها.

وقوله: {غَيَابَةِ الْجُبِّ}. والغيابة، هي القاع، والجُبّ، هو البئر.

وقوله: {السَّيَّارَةِ}. السيّارة، جمع سائر، وهم الذين يسيرون في الأرض.

وقوله: {إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}. أي: مصممين على التخلّص من يوسف.

ثم قال تعالى: {قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}.

قوله: {وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ}. أي: ناصحون له في الخروج معنا إلى المرعى، لأنه هناك سوف يرتع ويلعب.

وقوله: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. أي: نحفظه من كل سوء يريد أن يناله.

وقوله: {وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ}. قال: يأكله الذئب، ولم يقل: يفترسه الذئب، والأكل، أن يلتهمه كلّه، وإنما قال ذلك، لأن يوسف في ذلك الوقت كان صغيراً جدّاً، ربما لم يبلغ حتى تلك الفترة سنة العاشرة، فيكون عظمه رقيقاً، ويسهل على الذئب أن يلتهمه كله.

وقوله: {إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ}. أي: لا خير في جماعتنا وقوتنا.

وقوله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ}. أي: أنهم لما همّوا بفعل ما أجمعوا عليه، بعث الله له ملكاً ليواسيه ويطمئنه، ويخبره، أنه سوف يأتي اليوم الذي يخبرهم فيه بما صنعوه به.

وقوله: {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}. أي: لا يعلمون بأن هناك ملكاً يخبر يوسف، بأنه سوف ينبئهم بما فعلوه به، من إلقائهم له في غيابة الجُبّ، لأنه لم يكن يراه ويسمعه سوى يوسف.

وقوله: {وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ}. أي: جاءوه عشاء، وهو الوقت الذي يعودون فيه بأنعامهم من المرعى، وجاءوا وهم يتظاهرون بالبكاء.

وقوله: {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}. أرادوا التأكيد على صحة قولهم، بأن هذا شيء لا يصدّق، إذ حصل الاتّفاق بوقوع ما سبق أن حَذِروا وقوعه.

وقوله: {وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ}. أي: ذبحوا جدياً، ولطّخوا قميص يوسف به.

وقوله: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا}. أي: أنه لم يصدقهم، وعلم أنها كانت حيلة منهم للتخلّص من يوسف. ولقد علموا أن أباهم لم يصدقهم، ولكنهم أصروا على أنهم صادقون فيما يقولون له.

ثم قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ}.

قوله: {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ}. أي: جاء قوم مسافرون.

وقوله: {فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ}. أي: أرسلوا أحدهم ليرد البئر التي فيها يوسف ليستقي لهم الماء.

وقوله: {قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ}. أي: أن يوسف تعلّق بالدلو، فجذبه الرجل مع الدلو وهو لا يشعر، لخِفَّة وزن يوسف، فلما خرج فرح به وأخذه إلى أصحابه، وبشرهم بأنه وجد غلاماً.

وقوله: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً}. هذا له معنيان: الأول أن هؤلاء المسافرون، لم يكونوا وحدهم، بل كانوا جماعة من الناس، وأن من عثر على الغلام جاء به إلى أصحابه وقد أخفاه عن البقيَّة، وبشرهم بأنه وجده في البئر، فأخفوه بين بضائعهم، لكي لا ينتبه بقية الناس له، إذ قد ينتزعوه منهم، أو يشاركوهم في قيمته، أو يسعون إلى رده إلى أهله. والثاني: أنهم لم يكن معهم أحد سواهم، ولم يكن معهم أحد من غيرهم، وأنهم لما أخرجوا يوسف من الجُبّ، سألوه عن سبب وقوعه في قاع البئر، فأخبرهم بما جرى له، عندئذ أخفوه بين بضائعهم، خشيت أن يأتي أبوه للبحث عنه، فينتزعه منهم.

وقوله: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ}. أي: أنهم لما هبطوا مصر، توجهوا به إلى سوق العبيد، وعرضوه للبيع بسعر زهيد، لكي تكون فرصة بيعه أكبر.

وقوله: {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ}. أي: أنهم كانوا فيه زاهدين، فهو طفل صغير، لا يصلح لأعمالهم الشاقة.

ثم قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}.

قوله: {مِن مِّصْرَ}. فيه بيان بأن من باعه باعه في سوق مصر.

وقوله: {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}. أي: أنه لم يكن له ولد ذكر.

وقوله: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ}. أي: جعلنا له مأوى يأوي إليه، ورجلاً ينفق عليه.

وقوله: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}. أي: أن الله مستولٍ على أمر يوسف، يسوسه ويدبّره ويحوطه.

ثم قال تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}.

قوله: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ}. أي: بلغ ثمانية عشر سنة، وهو بداية سنّ الأشدّ. ولكنه لم يبلغ سنّ الأشدّ إلّا وقد أعطي شطر الحُسْن.

جاء في حديث المعراج، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير".

رواه مسلم.

وقوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}. أي: الذين يحسنون أعمالهم وأخلاقهم.

وقوله: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ}. أي: زوجة سيّده، وراودته، أي: طلبت منه فعل الفاحشة بها، من المراودة، وهي المحاولة.

وقوله: {وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ}. أي: أنها أغلقت الباب الرئيسي، وباب غرفتها.

وقوله: {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}. وهيت في اللغة يراد بها المناداة من بعيد صوت عالٍ، فإذا نادى شخصٌ شخصاً بعيداً بصوت عالٍ، قالوا: هَيّت له. ولذلك يفسّرها بعض علماء اللغة بهلُمَّ. فإن كان ما تأولوه صحيحاً، فهذا يعني أنه وقع في الجملة حذف تقديره: هيت فأنا لك. ولكن لم يذكر عبارة "فأنا" لأنها لم تلفظها، وإنما اكتفت بالإشارة إلى نفسها عن التلفّظ بها. وقد تكون هيت هنا، بمعنى: هذه، كأنها تقول: هذه، وتشير إلى نفسها، لك، أي: وهبت نفسي لك لتفعل بي المنكر!

وقوله: {قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}. أي: سيّدي، عاملني معاملة حسنة، أي: أنه أواه وأنفق عليه.

وقوله: {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}. أي: الذين يعملون السوء فيمن أحسن إليهم.

وقوله: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا}. أي: كاد يوسف أن يطيعها، وشرعت هي للاستعداد لفعل ذلك.

وقوله: {لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}. أي: أن الله تعالى أراه آية ذكّرته بالله تعالى، ونبهته، أن يحذر في الوقوع في المنكر، ولم يبيّن لنا ربنا عزّ وجل ولا رسوله صلى الله عليه وسلم، ما هو

البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام، وما رواه المفسرون والمؤرخون لا يعوّل عليه، ولا يلتفت إليه، كونه على الأرجح من وضع القصاص، وكل ما هنالك أن يوسف رأى من الله عز وجل برهاناً صرفه عن التمادي في الفهم، وقبل وقوع الفعل.

وقوله: {الْمُخْلَصِينَ}. أي: الذين استخلصهم الله تعالى.

وقوله: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ}. أي: أنه فتح باب الغرفة وخرج منها، ثم أراد أن يخرج من الباب الرئيسي، ولكنها حاولت أن تمنعه، فهرب منها يجري، فلحقته، فلما خشيت أن يفوتها مدت يدها وجذبت قميصه من الخلف، فانقدّ، أي: انشق.

وقوله: {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ}. وسيّدها، أي: زوجها، فالزوج سيّد على زوجته، ومعنى الآية: أن يوسف استطاع أن يفتح الباب الرئيسي، فإذ بسيّده زوج المرأة واقف عند الباب يستعد للدخول إلى منزله، إلا أن يوسف سبقه في فتح الباب.

وقوله: {قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}. أي: أنها لما رأت زوجها، خافت وتظاهرت بالغضب، وزعمت أن يوسف أرادها عن نفسها.

وقوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا}. أي: بما أنه لا يوجد في المنزل سوى يوسف والمرأة، ثم دخل عليهما عزيز مصر، وهما على تلك الحالة التي وصف الله تعالى، فهذا يدل على أن عزيز مصر اضطر إلى الخروج من بيته، ليسأل هذا الشاهد، وهو رجل قطعاً، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ فهو شاهد وليس شاهدة، فيظهر أن عزيز مصر، خرج ليسأل رجلاً حكيماً من أهل زوجته كان يثق به. مما يدل على أن ما زعمه القصّاص من أن الشاهد كان طفلاً رضيعاً، أنطقه الله في المهد، وشهد ليوسف، قصة موضوعة، والطفل لا بد أن تكون معه أمه، فمن أين جاء هذا الطفل وأمه، وليس في الدار أحدٌ سوى المرأة والرجل وخادمهما يوسف؟!

وقوله: {قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}. والكيد، هو الحيلة والمكر والخداع. أي: عندما تظاهرت بأنها مظلومة، وأن يوسف هو من أرادها عن نفسها.

وقوله: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}. الخطاب هنا موجه من العزيز إلى يوسف، أي: لا تخبر بذلك أحداً.

وقوله: {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}. الخطاب هنا موجه من العزيز إلى امرأته، أي: طلب منها أن تستغفر له عمّا أرادت من خيانته، فتظاهرت بالندم والتوبة. واستدل بعض أهل العلم من قوله لها، على أنه كان قليل الغيرة، إذ لم يبطش بها أو يعاقبها على فعلتها، واكتفى بتوبيخها وحسب!

ثم قال تعالى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

قوله: {فَتَاهَا}. الفتى في اللغة، هو الولد الشاب، لذلك كانوا يطلقون وصف الفتى، على الخادم الولد الشاب.

وقوله: {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِي}. وهذا لومٌ منهن لها، إذ كيف تطمع سيدة مثلها، في مكانتها وشرفها، فهي زوجة عزيز مصر، في خادمها، واستنكرن ذلك واستبشعنه!

وقوله: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ}. أي: بلومهنّ لها.

وقوله: {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً}. أي: أعدّت لهن المجلس، ووضعت المتاكئ، التي يتوكأ عليها الجالسون بظهورهم.

وقوله: {وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ}. أي: لما شرعن في تقطيع الفاكهة، أمرته بالخروج عليهن، فلما رأينه ذهلن من شدّة جماله، فلم ينتبهن، حتى غرست كل واحدة منهن السكين في يدها وهي تقطع الفاكهة.

وقوله: {إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ}. وهذه الآية، تدل على أن أهل مصر، كانوا يؤمنون بوجود الملائكة، مع أنهم قوم مشركون، وهذا يدل على أن لديهم شيء من إرث النبوّة السابق، ولكن ديانتهم تحرفت إلى الشرك والكفر مع مرور الزمن.

وقوله: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}. يظهر أن تلك النسوة بعد أن رأين يوسف، عذرن سيدته فيما طمحت نفسها إليه، ويظهر أنهن أخذن يحثثنه على طاعة سيدته، بدليل قوله: {يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}. وربما دعينه لأنفسهن أيضاً.

ثم قال تعالى: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}.

قوله: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ}. لما افتضح أمر امرأة العزيز ومراودتها ليوسف، أرادت أن تبرئ نفسها أمام الناس، فطلبت من زوجها أن يسجنه بدعوى أنه راود زوجته، فقام بسجنه.

وقوله: {فَتَيَان}. أي: خادمان.

وقوله: {أَرَانِي}. أي: أنهما رأيا ذلك رؤيا منام.

وقوله: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا}. .. الآية. أي: أنه فبدأ بإخبارهم أنه قادر على تأويل رؤياهما، وأن هذا من فضل الله تبارك وتعالى عليه، الذي ألهمه معرفة تأويل الرؤى، فنسب الفضل لله تعالى، لأنه هو من وهبه هذه المعرفة، ولم ينسبها إلى نفسه، إقراراً منه بكامل عجزه وضعفه، وأن القدرة والقوة لله وحده لا شريك له، وهو المانح الوحيد لهذه الصفات، لمن يشاء من خلقه. ثم بيّن لهم أن الشرك بالله تعالى باطل، وأن على جميع الناس أن يعبدوا الله تبارك وتعالى وحده، بأن لا يدعو غير الله، ولا يستغيثوا ولا يستعينوا ولا يستعيذوا بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وأنه لا يستغاث ولا يستعاذ ولا يستعان بالمخلوقات، إلا فيما تقدر عليه المخلوقات عادة من أمور الدنيا، وهي حيّة حاضرة قادرة على غوثك واعانتك واعاذتك، فالمخلوق إذا لم يكن حيا حاضرا قادراً فكيف يغيثك أو كيف يعينك أو كيف يعيذك، إنه لا يقدر على ذلك إلا إذا كان حياً حاضراً وقادراً، يشترك في ذلك كل الناس، الأنبياء فمن دونهم، فما لا يقدر عليه آحاد الناس، فإن الأنبياء لا يقدرون عليه، إنما كل ما يملكه الأنبياء هو الدعاء لك، كما يدعو لك أي شخص تريد منه الدعاء لك بالخير، ولكن لما كان الأنبياء أقرب إلى الله تعالى مكانة ومنزلة، كانت إجابة الله لدعائهم أقوى وأسرع، وقد لا يجيب الله دعاء الأنبياء لسبب يعلمه سبحانه، وكذلك الأنبياء لا يقدرون على اغاثتك واعانتك واعاذتك إلا فيما يقدر عليه عامة الناس، فهم لا يملكون جنة أو نارا أو سعادة أو شقاء أو نصرا أو هزيمة أو صحة أو مرضا أو عافية أو بلوى، إنه لا يملكون شيئاً من ذلك، لذلك من أراد أن يجلب لنفسه منفعة أو يدفع عن نفسه ضُرّاً، فعليه أن يدعو الله وحده لا شريك له، ويعمل من الأسباب ما يجعل الله تبارك وتعالى يعطف عليه ويرحمه ويجيب دعائه، من أداء ما فرضه عليه واجتناب ما نهاه عنه، ومن صلاة تطوع وصيام تطوع وصدقة تطوع وحجّ تطوع وعمرة تطوع، ويتقرب إلى الله بالصدقة على الفقراء والمساكين، وذبح القرابين وتقديم لحومها صدقات للفقراء، وليأكل منها هو وأهل بيته، وليكرم بها أضيافه، ويكون داعية للخير مفتاح له، مغلاقاً للشر منفراً عنه.

وقوله: {أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا}. والمراد بالربّ هنا هو السيّد، أي: أنه سوف يخرج من السجن، ويقوم بعصر الخمر لسيّده، وسقايته إيّاه، وكانوا قوماً لا يحرمون ما حرم الله من الخمر، لجهلهم، ولكونهم قوم مشركون.

وقوله: {وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ}. أي: أن الأخر سوف يعاقب، ويقتل، ويصلب على خشبة، فتأتي الطيور وتأكل من لحم رأسه.

وقوله: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}. أي: وقال للذي سوف ينجو منهما، أذكرني عند ربك، أي: عند سيّدك، لكي يخرجني من الحبس.

وقوله: {فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}. أي: أن الشيطان أنسى الناجي من الفتيان أن يذكر يوسف عند ربّه، أي: سيّده.

وقوله: {بِضْعَ سِنِينَ}. والبضع من ثلاث سنوات إلى تسع سنوات، فالله أعلم كم لبث يوسف عليه السلام في السجن.

ثم قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}.

قوله: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى}. أي: رؤيا منام.

وقوله: {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ}. أي: بعد برهة من الزمن، والأمّة هنا، معناها: البرهة من الزمن، كم مدتها.

وقوله: {أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ}. أي: أنا سوف أخبركم بتأويل هذه الرؤيا، ولكن أطلب من الملك وحاشيته أن يرسلني، أي: يتركني، لأحضر له تأويل رؤياه. فعلم الملك أنه إنما أراد أن يسأل رجلاً عالماً بتأويل الرؤى، لذلك أذن له في الذهاب.

وقوله: {فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ}. أي: احفظوه في خزائنه، فلا تبذروه ولا تبيعوه، حتى يكون لكم عوناً على ما سوف تبتلون به من السبع الشداد، التي يقل فيها المطر، وتقلّ فيها المحاصيل، وكانت هذه نصيحة من يوسف لملك مصر وأهلها.

وقوله: {فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}. أي: ينزل المطر، وتكثر الثمار، ويعصر فيه الناس الخمر.

ثم قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

قوله: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ}. أي: طلب أن يحضروا يوسف إليه.

وقوله: {فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ}. أي: جاء رسول الملك إلى يوسف بالخروج من السجن.

وقوله: {قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ}. أي: لم يرد الخروج من السجن حتى تظهر براءته.

وقثوله: {قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ}. .. الآية. أي: أن الملك أحضرهن، واعترفن عنده بأنهن لم يرين عليه سوءاً.

وقوله: {حَصْحَصَ الْحَقُّ}. أي: تبيّن الحق.

وقوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}. هذا من قول يوسف، بعد أن أقرَّت امرأة العزيز بأنها هي من راودته عن نفسه، وأنها كانت ظالمة له بسجنها إيّاه، بجريرة لم يرتكبها، فقال: ليعلم

زوج المرأة أني لم أخنه في مغيبه، ولم أقرب زوجه، ثم تذكّر ما همّت نفسه به من الوقوع في الفاحشة، فقال: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

ثم قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}.

قوله: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي}. أي: أنه عَظُم في عين الملك، فأمر أن يأتوه به ليستخلصه لنفسه، لما رأى من عفّته وأمانته.

وقوله: {فَلَمَّا كَلَّمَهُ}. أي: الملك كلّم يوسف.

وقوله: {مَكِينٌ أَمِينٌ}. أي: سوف نمكّنك من أيّ عمل تريدنا أن نضعك عليه، ومؤتمن على أيّ عملٍ سوف نكِلَه إليك.

وقوله: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}. أي: اجعلني على خزينة مصر، من الطعام ونحوه. كأن الملك خيّره أيَّ عمل يريد أن يقلّده إيّاه، فاختار أن يكون على خزينة مصر.

وقوله: {يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء}. أي: يتنقل في مصر حيث يشاء، بعد الحبس والضيق.

ثم قال تعالى: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا

وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}.

وقوله: {وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ}. أي: لم يعرفوه، لأنه كبُر وتغيّرت ملامحه، إذ قد يكون في ذلك الوقت في أواخر العقد الثالث من عمره، وكان القاطنون في صحراء النقب وسيناء والمناطق القريبة من مصر، إذا أرادوا أن يشتروا الحنطة، يذهبون إلى مصر، لأن الحنطة بها وفيرة، فأرضها تصلح لزراعة الحنطة، فكان يعقوب وبنيه، كما كان إبراهيم وإسحاق عليهم السلام من قبل، إذا أرادوا شراء الحنطة، ذهبوا إلى مصر، فلما كبُرت سِن يعقوب، كان يرسل بنيه عوضاً عنه، فيشترون ما يكفيهم من الحنطة شهراً أو شهرين أو ثلاثة، وكان عزيز مصر وخدامه، هم من ينوبون الملك في قبض الأموال والعروض من الناس، واعطائهم الحنطة بدلاً منها.

وقوله: {ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ}. كأن يوسف لما ملأ أوعيتهم من الحنطة، اظهر لهم أنه ارتاح لهم واطمأن إليهم، فاستضافهم، وأكرم نزلهم، وأخذ يسألهم عن المكان الذي قدموا منه، وعن أهلهم، وهو يرجوا من خلال ذلك أن يأتوا على ذكر اسم أخيه بنيامين، لأنه لم يكن معهم، فقد كان أبوه يمنعه من الذهاب معهم خشية منهم عليه، فما زال يسألهم ويحادثهم حتى أخبروه أن لهم أخاً عند أبيهم، عندئذ استغل يوسف الفرصة، وقال لهم: كيف لم تأتوا به معكم لتزدادوا حمل بعير من الحنطة!

وقوله: {فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ}. قال هذا القول على هيئة الناصح لهم المشفق عليهم.

وقوله: {وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. أمر خدامه أن يردوا إليهم ما دفعوه من فضة أو عروض مقابل الحنطة، من حيث لا يشعرون، فتكون الحنطة لهم بالمجّان، مما يجعلهم يفرحون ويعودون مرة أخرى بأخيهم.

وقوله: { يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ}. أي: منع منا الكيل فوق الكيل الذي كِيلَ لنا، ولم يكل لكل رجُلٍ منّا إلا كيل بعير

وقوله: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. أي: بنيامين يكتلَ لنفسه كيلَ بعير آخر زيادة على كيل أباعِرِنا {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. من أن يناله مكروه في سفره.

وقوله: {قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي}. أي: ماذا نريد، لقد أُعْطِينا الحنطة بالمجّان، وفرحوا بذلك أشد الفرح.

وقوله: {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ}. أي: مقدار يسير.

وقوله: {إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ}. أي: إلّا أن يُقضى عليكم جميعاً.

ثم قال تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}.

قوله: {وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ}. قال ذلك خشية عليه من العين.

وقوله: {مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ}. أي: إنما هذا سببٌ قام به يعقوب، ولو شاء الله ما نفعهم.

وقوله: {إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا}. أي: أنما أراد أن يقوم بالسبب، ليطمئن أنه لم يقصّر في الأخذ بالأسباب التي وضعها الله تعالى لعباده ليتسببوا بها.

وقوله: {لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ}. أي: أنه عليمٌ بما علمناه، من وجوب الأخذ بالأسباب، عارفٌ بما ينفعه وما يضرّه.

ثم قال تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء

أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}.

قوله: {آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ}. أي: انفرد بأخيه بنيامين في موضع لوحدهما.

وقوله: {فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}. أي: أنهم كانوا يسيئون لبنيامين، لأنه شقيق يوسف، ولأن أباه صار يحبه أكثر منهم أيضاً.

وقوله: {السِّقَايَةَ}. وهي الصاع الذي يكيل به الشعير.

وقوله: {فِي رَحْلِ أَخِيهِ}. أي: في الوعاء الذي أعده أبوه له ليملأه قمحاً، وكان الوعاء موضوعاً على بعير، وهي راحلة بنيامين.

وقوله: {وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم}. أي: أقبل إخوة يوسف ورفاقهم ومن حضر للميرة.

وقوله: {وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ}. أي: كفيل، أن أعطيه حمل بعير من القمح.

وقوله: {فَهُوَ جَزَاؤُهُ}. أي: فهو، أي: السارق، يسترق ويستعبد جزاء سرقته.

وقوله: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}. أي: لم يكن هذا في شريعة ملك مصر، أن يستعبد السارق بسرقته، وإنما جعل الله تعالى إخوة يوسف يقولون ذلك، ليتسنى ليوسف انتزاع أخيه من بين أيديهم.

ثم قال تعالى: {قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا بِمَا تَصِفُونَ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}.

قوله: {قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ}. أي: أنهم كانوا قد اتهموا يوسف وهو صغير بالسرقة، ولم يكن سرق.

وقوله: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ}. أي: قال ذلك في نفسه.

وقوله: {وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ}. أي: الله أعلم بأنكم ظالمون لي بتلك التهمة.

وقوله: {خَلَصُواْ نَجِيًّا}. أي: انفردوا يتناجون بينهم.

وقوله: {فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي}. أي: لن أغادر مصر، حتى يأذن لي أبي بالعودة إليه.

وقوله: {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}. أي: لم نكن نعلم الغيب.

وقوله: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ}. أي: أهل القرية.

وقوله: {وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا}. أي: أهل العِيْر.

وحُذِفت كلمة "أهل" لأن سياق الجُملَة يدلّ عليه، والعرب تحذف ما تستغني عن ذكره من الكلمات اختصاراً، إذا كان سياق الجُملة يدلّ عليه، فالقرية لا تتكلم، والعِيْر لا تتكلم بكلام تفهمه البشر، فدلّ هذا على وقوع الحذف في الجملة، وأن المراد هو أهل القرية، وأهل العِيْر.

ثم قال تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُواْ تَاللَّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.

قوله: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا}. أي: أنه شك في أمرهم، ولم يصدقهم، وظن أنهم كادوا ببنيامين كما كادوا بيوسف.

وقوله: {يَا أَسَفِي}. كلمة تندّم، أي: ياندمي.

وقوله: {وَابْيَضَّت عَيْنَاه}. أي: عميت.

وقوله: {كَظِيْم}. أي: لا يستطيع أن يتخلّص من حزنه.

وقوله: {حَرَضَاً}. أي: تسقم ويضعف جسدك.

ثم قال تعالى: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ}.

قوله: { رَّوْحِ اللَّهِ}. أي: فرج الله وغوثه.

وقوله: {لاَ تَثْرِيبَ}. أي: لا توبيخ ولا شماتة.

ثم قال تعالى: {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ}.

قوله: {تُفَنِّدُوْن}. أي: تتهمونني بالكِبَر والخَرَف.

وقوله: {قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ}. أي: على ما كنت عليه من تذكّر يوسف ورجاء لقياه.

وقوله: {فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ}. البشير، هو أحد أبناءه.

وقوله: { آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ}. أي: أباه وأمه، وفي هذا ردٌ على رواة اليهود، الذي يزعمون أن أم يوسف كانت قد ماتت، وأن خالته هي المعنيّة بالسجود هنا، لأن وصف الأبوة، إنما يطلق على الأب والأم، للتغليب.

وقوله: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ}. أي: رفعهم إلى أمام عرشه الذي يجلس عليه.

وقوله: {وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا}. أي: والديه وإخوته، وكانوا ثلاثة عشر نفساً.

وفي هذه الآية، ردٌّ على رواة اليهود، الذين يزعمون أن راحيل ماتت ويوسف وأخوه صغيران، فقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أبوي يوسف سجدا له على العرش، والأبوين يطلق في لغة العرب على الأب والأم، كما يطلق على الأب والعمّ، لأن العمّ في مقام الأب، ولم يرد أن العرب يطلقون على الأب والخال أو على الأب والخالة أبوين، فدل على أن من سجد ليوسف هو أبوه وأمه على الحقيقة.

ثم إنه لا يقال للأم على انفراد بأنها أب، كما لا يقال للعمّ على انفراد بأنه أب، إنما ينعتان بالأبوة إذا أضيفا إلى الأب الوالد تغليباً.

وقوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}. يدلّ على أن لينة وبيلهة وزيلفة، لم يكُنَّ حاضرات، ولا يمكن القول بأنهن لم يقدمن مع يعقوب وأبنائهن إلى مصر، فالأظهر، أنهن كُنَّ قد توفِيْنَ قبل هجرة يعقوب إلى مصر.

قال تعال في سورة الأعراف: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ}.

قوله: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}. أي: أن شعيباً من مدين نسباً، فليس بحليف لهم ولا مولى. وقد تقدّم في سيرة إبراهيم، أن مدين بن إبراهيم، من جاريته قطورة.

وقوله: {وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}. أي: لا تنقصوا الناس أشياءهم، ويراد بالأشياء هنا، ما يشترونه من حنطة أو شعير أو تمر أو نحو ذلك من الأطعمة التي تكال وتوزن.

وقوله: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا}. أخبر الله تعالى أن بخس الناس أشياءهم إفساد في الأرض. وأنهم كانوا على أمر حسن، وحال صالحة، يصلح عليها أمر أهل الأرض، حتى جاء من أفسدهم.

وقوله: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ}. أي: أنهم كانوا ينهون الناس عن اتباع شعيب.

وقوله: {وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا}. أي: تريدون الأمر على ما تهواه أنفسكم من ظلم الناس وعبادة الأوثان، وهو الطريق المعوجّ.

وقوله: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}. فيه بيان أن شعيباً هو من دعى على قومه.

وقوله: {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ}. أي: سوف تخسرون ما تجنونه من غش الناس وخداعهم وبخسهم في المكاييل والموازين.

وقوله: {الرَّجْفَةُ}. أي: العذاب.

وقال تعالى في سورة هود: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}.

قوله: {بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ }. أي: إبقاء الله لكم على طاعته، خير لكم من عذابه.

وقوله: {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ}. أي: ما أنا عليكم، أيها الناس، برقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم، هل توفون الناس حقوقهم أم تظلمونهم؟ وإنما عليّ أن أبلغكم رسالة ربّي، وقد أبلغتكموها.

وقوله: {إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}. قالوا ذلك سخرية به.

وقوله: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}. أي: لا أريد أن أعمل بعمل أنهاكم عنه.

وقوله: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ}. أي: أن الرجفة التي أصابتهم، كانت صيحة عظيمة نزلت عليهم من السماء.

وقال تعالى في سورة الحجر: {وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ}.

قوله: {الأَيْكَةِ}. والأيكة هي الشجرة العظيمة، وكان بنو مدين قد اتخذوا من أيكة عظيمة آلهة لهم، يعبدونها ويحجون إليها.

وقوله: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ}. الإمام هو الطريق السالك، مبين، أي: بيّن وضاح، فمعنى الآية، أن منازل مدين، على طريق المسافرين من الحجاز إلى الشام، بيّنة واضحة. وقوله: {وَإِنَّهُمَا}. مثنى، فكأن مدين لهم قريتان، دمّرتا معاً.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ}.

قوله: {وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ}. أي: الأمم السابقة.

وقوله: {كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء}. أي: قِطعاً من السماء، يريدون بذلك السُخريَة منه، أي: إن كنت يا شعيب صادقاً فيما تقول، فأسقط علينا قطعاً من السماء لتهلكنا، بسبب تكذيبنا لك.

وقوله: {يَوْمِ الظُّلَّةِ}. هو ما يظل من أشعة الشمس.

عن زيد بن معاوية قال: أصابهم حرّ أقلقهم في بيوتهم، فنشأت لهم سحابة كهيئة الظلة، فابتدروها، فلما تتاموا تحتها أخذتهم الرجفة.

رواه الطبري.

وقال تعالى في سورة العنكبوت: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}.

قال تعالى في سورة القصص: {طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.

قوله: {وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا}. أي: ميّز بين أهل مصر، وهم قومه، وبين بني إسرائيل.

وقوله: {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ}. أي: يستضعف الطائفة الأخرى، وهم بنو إسرائيل.

وقوله: {يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ}. أي: يقتل مواليدهم الذكور، ويترك المواليد الإناث أحياءً.

عن عبدالله بن عباس، قال: قالت الكهنة لفرعون: إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكك. قال: فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل، وعلى كل مائة عشرة، وعلى كل عشرة رجلا فقال: انظروا كل امرأة حامل في المدينة، فإذا وضعت حملها فانظروا إليه، فإن كان ذكرا فاذبحوه، وإن كان أنثى فخلوا عنها.

رواه الطبري.

قوله: {وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً}. والإمام هو القائد المتّبع، أي: نجلعهم قوّاداً ومتبوعين، بعد أن كانوا عبيداً تابعين، وأيضاً يشمل معنى الآية، أن الله تعالى يريد أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم، فيما أصابهم من اللأواء، وما أعقبه من الفرج.

قوله: {وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}. أي: يرثون الأرض، كون الله تعالى أراد أن يملّكهم على الجزء الغربي من بلاد الشام، ويمكن لهم فيه.

قوله: {وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ}. أي: نجعل لهم أرضاً يمتلكونها.

قوله: {اَلْيَم}. اليمّ، المراد به هنا نهر النيل، وكانت منازل بني إسرائيل في جنوب المدينة، وكان من عادة المصريين أنهم يبنون مدنهم شرق النيل، لاعتقادهم بأن الحياة تبدأ من الشرق، بينما يبنون معابدهم الوثنية ومقابرهم غرب النيل، لاعتقادهم أن الحياة تنتهي إلى الغرب، يذهبون في ذلك إلى شروق الشمس والذي يعتبرونه بداية الحياة، وغروبها الذي يعتبرونه نهاية الحياة، وكانت الشمس معبودهم الأكبر، بإزاء غيرها من المعبودات التي يصورونها بالتماثيل، ويعبدونها في بيوتهم ومعابدهم. وكان قصر فرعون، تطل واجهته الرئيسية إلى جهة الشرق، جهة المدينة، بينما تطل واجهته الخلفية، من جهة قسم النساء، إلى النهر، وهذا تصميم متعمّد، حتى يتسنّى لجواري فرعون، إذا أردن غسل الأواني أو الملابس أو الاستحمام، أن يخرجن من خلف القصر إلى النهر.

وقوله: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ}. أي: التقطنه الخادمات.

وقوله: {لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}. أي: عدوّاً لهم، وسبباً لحزنهم.

قوله: {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}. دليل على أن فرعون وزوجه، لم يكن لهما ولد ذكر.

قوله: {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}. أي: لا يشعرون بأنه سوف يكون لهم عدوّاً وحزنا.

قوله: {إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ}. أي: أنها لشدّة وجدها على ابنها، كادت أن تكشف أمرها، وتخبر الناس بأنها ألقت ابنها في اليمّ خشية عليه من القتل، وترجو أن يبحثوا عنه ويعيدوه لها.

قوله: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ}. أي: أمّه، قالت لأبنتها أخت موسى، قصّيه، أي: ابحثي عنه، ولم يُذكَر كم كان عمر الفتاة في ذلك الوقت، ولم يذكر الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم اسم أخت موسى، ورواة اليهود والنصارى يسمونها مريم، ويزعمون أن أباها وأبا موسى وهارون اسمه عمران، ويظهر أن هذا من تحريفهم وتخليطهم، ففي كتبهم يسمون مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام: مريم المجدلية، وهم بهذا يعتبرون اسم أبيها مجهولا، بينما نجدهم يسمون أخت موسى: مريم، ثم يزعمون أن أباها هو عمران، أي: أنهم يقولون: بأن مريم بنت عمران هي مريم أخت موسى وليست مريم أم عيسى، وهذا كاف في بيان بطلان قولهم، ونقض دعواهم، وأنهم عندهم تخليط بين الأسماء كعادتهم، فجعلوا مريم أم عيسى، هي أخت موسى عليه السلام، وجعلوا عمران والد مريم أم عيسى وأخاها هارون، هو والد موسى وهارون النبيين عليهما السلام، ووضعوا لهما سلسلة نسب ملفقة من طرفهم، ليجبروا بها النقص الذي يقع في القصص. وعلى هذا أقول: بأن ما ادعاه رواة اليهود من أن اسم والد موسى وهارون هو: عمران. قول باطل، وأنه لا يعرف اسم والدهما على الحقيقة، وما ورد في كتب السنن من أن اسم والد موسى وهارون هو: عمران. فإنما هو من إضافات الرواة، مما أخذوه عن رواة اليهود والنصارى.

إلّا أن رواة اليهود، يزعمون أن موسى من سبط لاوي بن يعقوب، وهذا من الأنساب المحملة، التي يمكن قبولها.

وموسى وهارون ومريم أسماء عربيّة، فموسى مشتق من الوَسي، وهو الحلق، ولذلك سمّيت آلة الحلق: الموس، فكأن معنى موسى: الحالق.

بينما هارون اسم مركب من شقين: الشق الأول: هار، وأما الواو والنون، فتستخدم للتصغير، كقولنا في سعد: سعدون، وفي حفص: حفصون. ونحو ذلك. وهارّ في لغة العرب، أساساً، وصف لفعل، وهو التوبيخ أو المشاتمة. فيكون معنى اسم هارون: الموبِّخ. وهار، هو اسم الجبل في اللغة العبرية، فقد يكون هار اسم من أسماء الجبل في اللغة العربيّة، ولكن العرب أهملوه حتى جهلوه، وبقيت العبريّة محتفظة به، فيكون العرب أسموا الجبل: هار، لأنه يهرّ في وجوه الناس، أي: يظهر في طريقهم، ويصدهم عنه، كما لو أنه هرّ في وجوهم.

بينما مريم على وزن مَفْعَل، من رامَ يريم إذا بَرِحَ، يُقال: ما يَرِيمُ يفعل ذلك، أي: ما يَبْرحُ، ويُقال ما رِمْتُ أفعله، وما رِمْتُ المكان، وما رِمْتُ منه.

قوله: {فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}. أي: لا يشعرون بأنها أخته.

وقوله: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ}. أي: أنهم كل ما جاءوا بمرضعة له، يأبى أن يرضع من ثديها.

ثم قال تعالى في سورة مريم: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}.

قوله: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ}. لم يبيّن لنا ربنا عزّ وجلّ ولا نبيّه صلى الله عليه وسلم، أين يقع جانب الطور الأيمن، إلا أنه من المفترض، أن يكون جانب الطور الأيمن، هي الجهة الشمالية من الجبل، كونها تمر بالطريق المحتمل، الذي سلكه موسى للعودة إلى مصر.

قوله: {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}. أي: أن موسى هو النبي الوحيد الذي أكرمه الله تعالى بأن يناجي الله تعالى بدون واسطة، ويسمع كلام وصوت الله تعالى المنبعث من ذاته.

وقال تعالى في سورة طه: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ

فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى}.

قوله: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}. أي: يخبرونني عن الطريق إلى مصر، وكأن موسى كان غير متيقنٍ من الطريق الذي سلكه.

قوله: {فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ}. كان كعب الأحبار يقول: إن نعل موسى كانت مصنوعة من جلد حمار غير ذكيّ، أي: لم يذكّى، أي: ميْتَة، لذلك أمره الله تعالى بخلعها.

رواه الطبري.

قوله: {إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}. طوى اسم الوادي، وهو يمر بإزاء الجبل، وقد نال قداسته بهبوط الله تعالى فيه، ولا يعرف اليوم، أين يقع هذا الوادي، فاسم الوادي قد تغيّر، ولم يعد يهتد أحدٌ إلى موضعه.

قوله: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}. أي: أمره أن يدخل يده من فتحت الرأس، ويضعها بين جنبه وعضده، ويضمهم إلى بعض، ثم يخرجها، وإذا أراد أن تعود كما كانت، يضمها إلى جناحه مرة أخرى، ثم يخرجها، فيجدها قد عادت كما كانت.

قوله: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي}. أي: أن موسى كان في لسانه ثقلاً، فربما لم يكن يحسن نطق بعض الكلام.

قوله: {قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}. أي: بعد أن بلغ موسى أهله، واستقبلهم واستقبلوه كما يستقبل الأهل غائبهم، وبعد أن فرغ من الحديث معهم وارتاح، أخبر أخاه بما أمرهم الله به، وهنا تحدثا إلى بعض، حول ما قد يفعله فرعون بهما، وهنا عرض موسى ما جرى بينه وبين أخيه على الله تعالى، وهنا طمأنهم الله تعالى.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}.

وقال تعالى في سورة النمل: {إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

قوله: {أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ}. أي: بارك الله نفسه، لأن النار التي رآها موسى كانت حجاب الله، والله في وسط حجابه.

قوله: {ومَنْ حَوْلَهَا}. أي: موسى عليه السلام، ومن يحيط بالنار من ملائكته، ولم يكن موسى يراهم.

وقوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ}. أي: الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والعصا واليد ونقص من الثمرات والسنون.

رواه الطبري عن عبدالله بن عباس.

وقال تعالى في سورة القصص: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}.

قوله: {فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ}. أي: أن الله لما هبط إلى الأرض، هبط على شاطئ وادي طوى الأيمن، في بقعة مباركة، وإنما تباركت لأن الله تعالى هبط عليها، وكان بجوار تلك البقعة المباركة شجرة.

وقال تعالى في سورة النازعات: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}.

ثم قال تعالى في سورة القصص: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا

يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ}.

قوله: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا}. كان ذلك وقت القائلة، في الظهيرة، منتصف النهار، والناس غافلون في بيوتهم، أي: قائلون. لأن حركة الناس وانتشارهم في المدينة عادة يقع بعد الصبح إلى وقت الظهيرة، ووقت العصر إلى قريب المغرب، وليس صحيحاً ما روي أن ذلك كان بين المغرب والعشاء.

قوله: {هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ}. أي: هذا من قومه بني إسرائيل، وهذا من أعدائهم المصريين.

قوله: {فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}. أي: ضربه بجمع يده على صدره من ناحية قلبه ضربة أوقفت قلبه فمات لوقته.

عن مجاهد بن جبر قال: بجمع كفه.

رواه الطبري وابن أبي حاتم.

قوله: {ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ}. أي: لن أكون معيناً للمجرمين، ربما المراد بذلك، أنه لن يكون معيناً لمصريين، فيعترف بأنه قاتل المصريّ، وربما كان المراد بذلك، أنه نذر أن لا يكون معيناً لأحد في قتل نفسٍ لم يؤمر بقتلها.

وقوله: {لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ}. أي: ضال، بيّنُ الضلالة.

قوله: {قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ}. .. الآية. قال الإسرائيلي ذلك وقد غضب غضبة الخوف.

وقول الإسرائيلي: {بِالأَمس}. دليل على ما قدمنا، أن ذلك كان منتصف النهار، والناس قائلون، لأنه لو كان هذا الحدث وقع بين المغرب والعشاء، أو بعد العشاء، لقال: "البارحة".

قوله: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى}. .. الآية. كان رجلاً صالحاً من المصريين، صديقٌ لموسى.

قوله: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ}. لم يكن نبي الله موسى يدري أين سوف يتوجه، إنما أشار الله تعالى إلى الجهة التي توجه إليها، وهي تلقاء مدين، لأنه سوف ينتهي به المسير إليهم، ولذلك دعا بتلك الدعوات، فهداه الله تعالى إلى مدين.

قوله: {قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}. أي: لعفافهن وحشمتهن، لم يكنّ يردن أن يزاحمن الرعاة، واعتذرن لأبيهن، بأنه شيخ كبير لا يستطيع سقيا الغنم، وهذا فيه دليل على أنه لم يكن لهن إخوة يقومون بسقيا الغنم عنهن.

والسؤال هنا: كيف استطاع موسى عليه السلام التحدث إلى الفتاتين المديانيتين، وهما عربيّتان، وهو عبراني؟

والجواب على ذلك: أن اللغة العبرية، كانت قريبة من اللغة العربيّة، والفروق بينها يسيرة، بحيث يستطيع العربي أن يفهم كلام العبراني، ويستطيع العبراني أن يفهم كلام العربي، إذ أن العبرانيّة متولّدة أصلاً من اللغة العربيّة، لذلك استطاع موسى أن يتكلّم معهما، دون أن يحاج إلى مترجم يترجم بينهم.

قوله: {عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}. أي: أنه زوجه إحدى بناته وكان المهر أن يعمل عنده في رعي الأغنام ثمان سنين، فإن أتمها عشر سنين، فله أن يعود إلى قومه في مصر.

ثم قال تعالى في سورة الأعراف: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ

مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ}.

قوله: {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}. أي: أنهم آمنوا برسالة موسى عليه السلام، لأن ما شاهدوه لم يكن سحراً، فالسحر لا يحيل الأشياء عن حقيقتها، لتستحيل إلى حقيقة أخرى، بينما عصا موسى التهمت عصيّهم، وهذا لا يمكن أن يكون سحراً.

وقال تعالى في سورة يونس: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}.

قوله: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ}. أي: لم يصدقه فيما ادعاه من النبوّة، إلّا النزر اليسير من قومه بني إسرائيل.

وقوله: {تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا}. أي: حدّدوا مواضع، كل حيّ من أحياء بني إسرائيل، يحدّد فيه موضع لبناء هذه البيوت.

وقوله: {بُيُوتًا}. أي: بيوتاً للعبادة، وهي: المساجد. وليس المقصود بيوت السُكنى، لأن بني إسرائيل كانت لهم بيوتٌ يسكنونها.

وقوله: {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً}. أي: أمرهم أن يستقبلوا قبلة إبراهيم عليه السلام.

واختلف في قبلة إبراهيم التي كان يصلّي إليها، فقيل إلى الصخرة ببيت المقدس، وقيل بل الكعبة بمكة المكرمة، والراجح أن المراد بذلك، هو الصخرة ببيت المقدس، ولا أدل على ذلك من أن الله تعالى لما أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالصلاة، أمره باستقبال الصخرة أول الأمر، فدلّ هذا على أن الصخرة هي قبلة إبراهيم عليه السلام، وهي القبلة التي أُمِر موسى باستقبالها.

وقوله: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}. قال ذلك لما عاين الموت.

وقوله:{آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}. أي: لم يتقبّل الله تعالى توبته، لأنه توبته جاءت بعد أن عاين الموت.

وقوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً}. أي: ألقى جثّته إلى البرّ، ناحية بني إسرائيل، حتى عاينوا جثّته، وأيقنوا هلاكه، ليطمئنوا بذلك، وكان لهم فيه آية، أي: عظة وعبرة، لكل متكبر جبّار.

وقال تعالى في سورة هود: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ}.

قوله: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ}. وذلك يوم القيامة، عندما يأمر الله المشركين بأن يتّبع كل طائفة ما كانت تعبد، فيؤتى بفرعون ويؤمر من كان يعبده من قومه أن يتبعوه، فيتبعونه إلى النار.

وقوله: {ويوم القيامة}. أي: كما لعنوا في الدنيا، فسوف يلعنون في الأخرة.

وقال تعالى في سورة طه: {قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لّا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى

مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}.

قوله: {يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}. أي: أن هذا هو الموعد الذي عقده موسى مع فرعون لمغالبة سحرة فرعون، وكان لهم عيد يُزيِّنون فيه مدينتهم، ويجتمعون فيه للمرح، وكان يبدأ من أوّل اليوم، وربما استمر إلى أخره، فطلب موسى أن يجمعهم له وقت الضحى.

وقال تعالى في سورة المؤمنين: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}.

قوله: {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ}. أي: أن فرعون وقومه، قالوا: كيف نؤمن لموسى وهارون وهما بشرين مثلنا، وقومهما بنو إسرائيل عبيدٌ لنا، فمنعهم التكبر والتجبر عن قبول الحق.

وقال تعالى في سورة الشعراء: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ

وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ}.

قوله: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}. يُذكِّره فرعون أفضاله عليه، وكيف أنه كَفرَهَا بقيامه بقتل رجل من قوم الرجل الذي أحسن إليه.

وقوله: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}. أي: كيف تَمُنّ عليّ بذلك، مع ما فعلته بقومي بني إسرائيل، من العبودية والسُخرة والذلة والمهانة، وقتلك لأطفالهم بغير وجه حق.

وقوله: {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ}. أي: حذرون منهم، أن تكون لهم نيّة في العود على مصر، والاستيلاء عليها.

وقال تعالى في سورة النمل: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

قوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}. أي: أن فرعون وكبراء قومه، كانوا يعتقدون صدق موسى في قرارة أنفسهم، ولكنهم رفضوا قبول الحق علوّاً عليه، تكبراً وتجبراً، فظلموا بذلك أنفسهم وقومهم.

وقال تعالى في سورة القصص: { فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن

تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}.

قوله: {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}. أي: أن موسى كان يقول له: بأن ربّه الله في السماء، فقال فرعون لهامان ساخراً: أوقد لي على الطين، أي: إصنع طوباً، وكانوا يوقدون النار على الطوب ليزداد صلابة، وابن لي بهذا الطوب صرحاً يبلغ السماء، لكي أصعد عليه، وأشاهد إله موسى الذي يزعم!

قلت: وما أشبه ما قام به فرعون، بما يقوم به المتكلمون، الذين إذا قيل لهم: بأن الله في السماء. سخروا من ذلك، وقالوا: ليس في السماء إله، فلم يبقى إلّا أن يقولوا، كما قال سلفهم فرعون.

وقوله: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}. كأن الله تعالى يعني بذلك سائر الطواغيت، الذين يدعون الناس إلى عبادتهم، والمشركين الذين يدعون إلى عبادة غير الله تعالى، والمتكلمون الذين ينكرون أن الله تعالى في السماء، فقد جعل الله تعالى فرعون وصحبه أئمة لهؤلاء في الشرّ.

وقال تعالى في سورة غافر: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي

الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}.

وقال تعالى في سورة الزخرف: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلْآخِرِينَ}.

قوله: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ}. أي: مهين في قدره، فليس بملك ولا وزير ولا مشير ولا مدير، وقوله: {ولا يكاد يُبِين}. أي: لا يكاد يفصح الكلام، لثقل لسانه.

وقال تعالى في سورة الذاريات: {وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ}.

قوله: {بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}. هي الآيات التسع.

وقال تعالى في سورة النازعات: {فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى}.

ثم قال تعالى في سورة الأعراف: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}.

وقوله: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ}. فيه دليل على أن هذه الحادثة وقعت فور تجاوز بني إسرائيل للبحر، حيث سار بهم موسى يريد أن يرتاد لهم موضعاً يقيمون فيه، حتى يأتيه الأمر من الله تعالى بما يجب عليه فعله، فمرّ بهؤلاء القوم الوثنيين.

ثم قال تعالى في سورة الأعراف: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي

فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}.

قوله: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ}. أي: أن موسى لما وجد موضعاً يقيم فيه، أخذ ينتظر ما يأمره ربه به، فأمره الله تعالى أن يقدم بقومه إلى الجانب الأيمن من جبل الطور، كما ذكر في سورة مريم، بعد ثلاثين ليلة، فلما تمّت الثلاثين ليلة، زادها الله عشر ليال، ولا أحد يعلم على وجه الحقيقة لماذا واعده الله بعد ثلاثين ليلة، ولماذا زادها عشر ليال، خصوصاً وأن المسافة من الموضع الذي جاوز منه موسى وقومه البحر إلى الجانب الأيمن من جبل الطور، لا تحتمل كل هذا الوقت.

وقوله: {وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}. أي: أن موسى عليه السلام، لما استعجل للقدوم إلى الجانب الأيمن من جبل الطور، كما أمره الله تعالى، خلّف أخاه هارون في بني إسرائيل، وأمره أن يقودهم للّحاق به.

وقوله: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ}. أي: كل شيء افترضه الله عليهم من العبادات والمعاملات والمحرمات والحدود والكفارات والقصص ونحو ذلك.

وقوله: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ}. أي: بجدّ وحزم وعزم.

وقوله: {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا}. أي: يقوموا بأوامر الله ونواهيه، على أحسن وجه.

وقوله: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}. في هذه الآية، دليل على أن الكفر أو العصيان نابع من نفس العبد أولاً، وأن الله تعالى يعامل عباده بما في أنفسهم، فمن أراد الحق هداه إليه، ومن أراد الكفر أو العصيان أضله.

ثم قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.

قوله: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}. أي: أن الله تعالى، جعل علامة صدق توبة بني إسرائيل في عبادتهم للعجل، أن يقتل بعضهم بعضا، فأخذ كل واحد منهم سلاحه، وشرع يقتل بعضهم بعضا، القوي أو الأسرع، يقتل الضعيف أو الأبطأ، حتى رضي الله تعالى، فأمرهم بالكف عن بعض، فمن مات أُعطي أجر شهيد، ومن بقي حياً أُمِر باستئناف العمل.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}.

قوله: { وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}. دليل على أن موسى كان أكبر سنّاً من هارون، بخلاف ما يدعيه رواة اليهود، من أن هارون كان أسن من موسى، فلو كان كذلك، لما تجرأ موسى على جذب أخيه الكبير برأسه، وإهانته هذه الإهانة.

وقوله: {إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي}. دليل على أن هارون كان قد نهاهم عن الشرك، وألحّ عليهم في ذلك، حتى غضبوا منه، وكادوا أن يقتلوه.

قوله: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا}. أي: أن موسى لما سأل الله أن يتوب عليهم، أمره أن يأتي إلى موضع حدّده له، في أشراف قومه، ليتوبوا إلى الله تعالى، فاختار سبعين رجلاً من أشراف بني إسرائيل، وقدم بهم إلى ذلك الموضع، فلما بلغوه صعقوا.

قوله: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}. الهود، معناه العودة، أي: عدنا إليك، بمعنى: تبنا إليك.

ثم أمرهم الله تعالى بأن يعودوا لقومهم، وأن يقتلوا أنفسهم كما تقدم.

وقال تعالى في سورة طه: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

قوله: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}. في هذه الآية إشارة إلى أن موسى كان يسير بقومه، قادماً إلى الجانب الأيمن من جبل الطور، وذلك في العشر الأواخر من الأربعين يوماً، بمعنى أنه أراد أن يكون هو وقومه في الجانب الأيمن من جبل الطور، صبيحة اليوم الأربعين، أو الواحد والأربعين. لكن موسى استعجل ليصل الموضع قبل قومه، فأمر أخاه هارون أن يلحق به، ويخلفه في بني إسرائيل بخير، فأثناء ذهاب موسى، سار بنو إسرائيل خلفه ثم أقاموا للراحة، وهناك عبدو العجل. ولم يخبر الله تعالى موسى بعبادة قومه للعجل، إلّا بعد أن سأله موسى الرؤية، وبعد أن أعطى موسى الألواح، فسأل الله تعالى موسى بعد ذلك عن سبب استعجاله عن قومه، وهو أعلم منه، ولكن على وجه التقرير، وتمهيداً لإخباره بأن قومه عبدو العجل، ثم أخبره بعبادتهم للعجل.

وقوله: {قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}. أي: أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة.

قوله: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ}. أي: أنهم استعاروا ذهباً من المصريين، لما أرادوا الخروج، وخرجوا به معهم، ظناً منهم أنهم بذلك يسترجعون شيئاً من أموالهم التي تركوها بمصر.

وقوله: {فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}. أي: أن السامري، أمرهم بجمع ما معهم من ذهب، فقذفوها في مكان واحد، فتلا عليها المشؤوم شيئاً من تعاويذه السحرية، وكان السامري رجلاً ساحراً من بني إسرائيل، فصهرت أولياءه من الجن الذهب، وشكّلوه في هيئة عجل، يدخل الهواءِ من دُبُرِهِ ويخرج من فِيِّه، فيصدر منه صوت كخوار العِجل.

وقوله: {أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا}. أي: لا يتكلم معهم بكلام مفهوم، وفي هذا دليل على أن عدم القدرة على الكلام بصوت يسمع، وحرف ينطق، وكلمات تفهم، صفة عجز، والعاجز لا يكون إلهاً.

وقوله: {لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي}. أي: أن موسى لما غضب بسبب عبادة قومه للعِجل، ظن أن هارون قصّر في واجبه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقبض على لحيته ورأسه بيديه، وجذبه وهو يبخه، فقال له كما ورد في سورة الأعراف: {ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي

وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}. ثم أردف هارون قائلاً كما ورد في سورة طه: {يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}.

قلت: وفي هذه الآية، دليل قاطع، على أن موسى كان أسنّ من هارون، وفي هذا ردٌّ على رواة اليهود، لأنهم يزعمون أن هارون كان أسنّ من موسى، لأنه لو كان هارون أسنّ من موسى، ما اجترأ موسى على القبض على رأس ولحية أخيه الأكبر سناً منه، ووبخه بهذه الطريقة، وما من شكٍّ أن الأنبياء، من أكمل الناس أدباً وأخلاقاً، فمحالٌ أن يفعل موسى بأخيه هارون ذلك لو كان هارون حقّاً أسَنَّ منه، أما وقد فعل موسى ذلك، فهذا يعني أنه كان أسنّ من هارون.

وقوله: {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا}. أي: رأيت ما لم يرى بنو إسرائيل، وهو جبريل عندما عرض أمام فرعون على فرس وكان فرعون على حصان، ولم يكن فرعون يرى شيئاً، إنما رأى الحصان الفرس وعليها جبريل، فتقدم الحصان يريد الفرس، وجمح بفرعون حتى دخل في الشق، فلما خرج جبريل من الشق، بصُر به السامري، فقبض قبضة من أثر فرسه، فهي القبضة التي ألقاها على الذهب.

عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليْثي، قال: حُدّثت أنه لما دخلتْ بنو إسرائيل فلم يبق منهم أحدٌ أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن يتقدم، فعَرض له جبرئيل على فرس أنثى وديق، فقرّبها منه فشمّها الفحل، ولما شمّها قدَّمها، فتقدم معه الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون أن فرعون قد دخل، دخلوا معه، وجبرئيل أمامه، فهم يتبعون فرعون، وميكائيل على فرس خلف القوم يشحذهم يقول: الحقوا بصاحبكم، حتى إذا فصل جبرئيل من البحر ليس أمامه أحدٌ، ووقف ميكائيل على الناحية الأخرى ليس خلفه أحد، طبّق عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله وقدرته ما رأى، وعرف ذلّه وخذلته نفسه، نادى: أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين.

رواه الطبري.

وقوله: {لا مِسَاسَ}. أي: لا يمسك سوء في هذه الحياة الدنيا، تعيش فيها كيفما تشاء، وأما في الأخرة فمآلك إلى النّار.

وقوله: {ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}. يفهم من هذه الآية أمران: الأول: أن بني إسرائيل كانوا يسيرون متجهين لجبل الطور بمحاذاة الساحل، والثاني: أنهم لم يكونوا يسيرون بمحاذاة الساحل، وإنما كان بالقرب من موضعهم الذي أقاموا فيه غدير ماء، أو وادٍ يجري بفعل الأمطار، فأراد أن ينسف الصنم فيه، والثاني أرجح، لأن جبل الطور بعيد من الساحل،.

ثم قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

والراجح أن هذه الواقعة، وقعت بعد توبة الله تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، بمدة. فإنهم كانوا يرون موسى يذهب ويلاقي الله تعالى بعيداً عن بني إسرائيل، ثم يعود إليهم، ويقول: قال الله، وأمر الله. فكذّبوه فيما يدعيه من أن الله يتكلّم معه، فقالوا له: لن نصدقك فيما تدعيه، والإيمان هو التصديق، حتى ترينا الله جهرة. فأنزل الله عليهم صاعقة من السماء، فغُشي عليهم، ثم أفاقوا بأمر الله تعالى وإذنه، لعلهم ينتهون، ويشكرون الله تعالى الذي رحمهم وبعثهم مرة أخرى ليراجعوا أنفسهم، ويتوبوا إليه.

ثم قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ}.

قوله: {ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ}. أي: بيت المقدس، وبها الصخرة، قِبلة إبراهيم عليه السلام، أمر الله بني إسرائيل أن يسيروا إليها، ويستولوا عليها، لأنهم هم أهلها.

قوله: {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا}. أي: ادخلوا باب المدينة مطئطئي الرؤوس، خضوعاً لله تعالى.

قوله: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ}. أي: قولوا: أُدعوا الله تعالى أن يحطط عنّكم خطاياكم.

وقال تعالى في سورة المائدة: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.

قوله: {جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء}. أي: إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ويوسف ثم موسى الذي يعيش بين أظهرهم.

وقوله: {وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا}. أي: أصبح كل واحد منكم يملك نفسه، بعد أن كان عبداً للمصريين.

وقوله: {وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ}. أي: من تفجير العيون وإضلال الغمام والمن والسلوى، وأعظم تلك النِعَم، نِعمة الهداية إلى الله تعالى.

وقوله: {الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ}. أي: الجانب الغربي من الشام.

وقوله: {إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ}. أي: قبائل الشام، وكانت تلك القبائل، ذات قوة وبأس، ومراس على الحروب، فخافهم بنو إسرائيل.

وقوله: {قَالَ رَجُلاَنِ}. يقول رواة اليهود، أن أحدهما هو: يوشع بن نون، والأخر كالَب بن يَفُنَّه، وكانا شابين صالحين.

وقوله: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}. لعل هذا هو المراد بقوله تعالى في سورة البقرة: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}.

وقوله: {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ}. أي: يتيهون في أرض سيناء، لا يدرون أين جهتهم، ولا يدرون أين مصر وأين الشام، حتى تنقضي أربعين سنة.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ}.

قوله: {الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}. أي: أن منهم من لم يقل بهذا القول، لأن قوله: {منهم}. للتبعيض، ولكن يظهر أن أكثرهم من الذين ظلموا، لذلك عاقبهم الله تعالى بالتيه.

وقوله: {رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء}. أي: أنزل الله عليهم عذاباً من السماء، والرجز هو العذاب، ولم يخبرنا الله تعالى ما هو العذاب، ولعله التيّه الذي وقعوا فيه.

فمكثوا على ذلك حتى مات موسى عليه السلام، ومات هارون عليه السلام.

هل فِرعَون وقومُه من العرب؟

الراجح أنه فرعون وقومه من العرب، وليسوا من القبط، يتّضح ذلك وبجلاء من اسم فرعون نفسه، واسم زوجته آسية بنت مزاحم، ووزيره هامان.

ففرعون مشتق من فرع، أي: طال وعلا. والواو والنون هنا زائدة، كقولنا في سعد، سعدون، وفي حفص، حفصون، ونحو ذلك. وهذا اسم عربي. وبما أن هذا هو معنى اسم فرعون، فهذا دليل أخر على أنه اسم وليس لقب لملوك مصر.

وكذلك زوجة فرعون، فقد ورد في الأحاديث الصحاح والحسنة، أن اسمها: آسية، وهو مشتق من المواساة، واسم أبيها مزاحم، وهو مشتق من المزاحمة، وكلها أسماء عربيّة.

وأما هامان، فهو مشتق من الهيمنة، والألف والنون للمبالغة، وهو اسم عربي.

وقد ورد اسم هامان في النقوش المصرية، ووصف بأنه كان رئيس عمّال المحاجر. كما نصّ على ذلك رانكه في موسوعته، الأسماء في مصر القديمة.

ومما يجب التنبيه عليه، أن بعض الباحثين، زعم أن هامان لقب وليس اسما، وأن هامان لقب مركب من شقين: "ها" وتعني: النافذ، و "آمان" وتعني: آمون، أي: الإله آمون، أحد معبودات الشعوب المصرية القديمة. وبالتالي يكون اسم هامان، اسما مركبا، ومعناه: النافذ إلى الإله آمون.

قلت: وهذا هراء، وكلام فارغ، فإن ما ذهب إليه هذا الباحث، لا يدل من قريب ولا من بعيد، على علاقةٍ بين هامان حامل هذا الاسم، وبين رئاسة عمّال المحاجر، فما توصل إليه الباحث، من أن هامان إنما هو لقب للنافذ إلى الإله آمون، إنما يصلح أن يكون لقباً تشريفياً لكاهن من كهنة آمون، الذين يقومون بالتكهُّن عند هذا الوثن، وليس لرئيس عمّال المحاجر. ثم إن اشتقاق اسم هامان، يدل على أنه اسم، وليس لقباً.

ونعود إلى الحديث عن أصل فرعون وقومه، فأقول:

إن مما يزيد الأمر وضوحا، أن اسم بلادهم هي: مصر، وهو اسم عربي.

إذاً الراجح أن فرعون وقومه من العرب، ولكن من أي العرب؟

ذهب بعضهم إلى أنه من العماليق وهم الأكثر، وبعضهم زعم أنه من حِمْيَر، وهذا لا شك أنه من وضع قصاص حِمْيَر، بل إن الحِميريين، زعموا أن العماليق منهم نسباً، ليردوا نسب ملوك مصر إلى حمير، وهذا كله باطل، وبعضهم زعم أنه من لخم.

وقد يكون من عماليق، أو من لخم، أو قد يكون من جذام أو عاملة أو من أحد قبائل قضاعة أو الأزد، لأن هذه القبائل، من القبائل العربية السبّاقة إلى الهجرة خارج الجزيرة العربية، والاستقرار في العراق والشام وسيناء ومصر.

فأما عماليق، فإن رواة اليهود يذكرون في تاريخهم، أنهم زمن موسى وهارون ويوشع عليهم السلام، كانوا يقيمون في فلسطين، لذلك فالقول بأن فرعون وقومه من العماليق، هو أضعف الأقوال، فتبقّى أن يكونون من إحدى القبائل العربية التي ذكرناها آنفاً.

وقال تعالى في سورة الأحزاب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا}.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ مُوسى كانَ رَجُلًا حَيِيًّا سَتِيرًا لا يُرى مِن جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْياءً مِنهُ، فَآذاهُ مَن آذاهُ مِن بَنِي إسْرائِيلَ وقالُوا: ما يَسْتَتِرُ هَذا السِّتْرَ إلّا مِن عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إمّا بَرَصٌ وإمّا أُدْرَةٌ، وإمّا آفَةٌ، وإنَّ اللَّهَ أرادَ أنْ يُبَرِّئَهُ مِمّا قالُوا، وإنَّ مُوسى خَلا يَوْمًا وحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيابَهُ عَلى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمّا فَرَغَ أقْبَلَ إلى ثِيابِهِ لِيَأْخُذَها، وإنَّ الحَجَرَ عَدا بِثَوْبِهِ، فَأخَذَ مُوسى عَصاهُ وطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِيَ حَجَرُ، ثَوْبِيَ حَجَرُ حَتّى انْتَهى إلى مَلَإٍ مِن بَنِي إسْرائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيانًا أحْسَنَ ما خَلَقَ اللَّهُ وأبْرَأهُ مِمّا يَقُولُونَ، وقامَ الحَجَرُ فَأخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصاهُ، فَواللَّهِ إنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِن أثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلاثًا، أوْ أرْبَعًا أوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأهُ اللَّهُ مِمّا قالُوا}".

رواه البخاري.

وقال تعالى في سورة الصفّ: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.

قوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}. أي: مالوا عن الحق، حيث استمر بعضهم على أذيّة موسى، وليسوا كلهم، أمال الله قلوبهم، أي: حرمهم الهداية، وزادهم ضلالاً، لأنه سبحانه لا يهدي القوم الفاسقين، الذين لا يريدون الهداية.

قال تعالى في سورة البقرة: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

وقوله: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}. أي: أرسل عليهم السحاب، تظللهم من حرّ الشمس.

وقوله: {الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}. وهما نوعان من الطعام، لم يكن لبني إسرائيل طعام غيره، وكان من أفضل الطعام وألذّه، وكانوا يحصلون عليه بغير كبير مشقّة.

وقوله: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}. أي: لم يظلموا الله تعالى بمخالفتهم لأمره، وإنما ظلموا أنفسهم، لأنهم هم الخاسرون.

وقال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}.

وقوله: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ}. كانت هذه الحادثة على الأرجح، بعد دخولهم في التيه.

وقوله: {اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ}. أي: إضرب بعصاك حجراً من أحجار الجبل.

وقوله: {فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}. أي: فجّر الله تعالى لهم من الجبل، اثنتي عشرة عين ماء، على عدد أسباط بني إسرائيل.

وقوله: {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ}. أي: لكل سِبط عينٌ يشربون منها، لا يشاركهم فيها غيرهم، ولم تكن هذه العيون بجانب بعض، بل كانت متباعدة كي لا يقع الزحام.

وقوله: {وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}. أي: بمعصيتكم لله ورسوله.

وقال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ

أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ}.

قوله: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى}. .. الآية. قالوا ذلك على الأرجح بعد دخولهم للتيه، وبعد أن منّ الله تعالى عليهم بالمنّ والسلوى، طعام يأتيهم بلا مشقة ولا عناء.

وقوله: {قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}. أي: أتستبدلون فاضل الطعام بالمفضول منه! وفيه دليل على أن المنّ والسلوى، كان خيراً من البقل والقثّاء والفوم والعدس والبصل.

وقوله: {اهْبِطُواْ مِصْراً}. أي: عودوا إلى مصر، حيث العبودية والذلّ والمهانة، لتجدوا ما طلبتم، جزاء كفركم لنعمة الله تعالى.

وقوله: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}. أي: جعلهم الله في ذُلّ، وجعلهم مساكين، جزاء إعراضهم عن طلب العز والكرامة.

وقوله: {وَبَاؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}. وهذه الآية موجهة لسائر بني إسرائيل، في جميع الأزمان.

وقوله: {يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}. أي: لا يحرمون ما حرّم الله، ولا يقومون بما افترضه الله.

وقوله: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}. أي: أنهم قتلوا بعض النبيّين، لأنهم كانوا ينهونهم عمّا هم فيه من الفساد.

وقوله: {يَعْتَدُونَ}. أي: يتجاوزون الحدّ في معصية الله تعالى.

وقال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ}.

وقوله: {وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}. يخبرنا الله تعالى هنا، أنه أمر موسى، أن يأمر بني إسرائيل، بأن يعملوا بما أتاهم في التوراة، ولكنهم أبو وأعرضوا، فرفع الله تعالى الطور من مكانه، حتى جاء فوقهم، يهددهم بأن لم يقبلوا بأحكام التوراة فسوف يوقعهم عليهم، فقبلوا راغمين.

وقوله: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ}. أي: من بعد موت موسى وهارون ويوشع بن نون، حيث عادت أجيالهم إلى المعاصي والفسوق.

وقوله: {فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ}. أي: بصبره عليكم، وحلمه عنكم، وما أرسله إليكم من الرُسُل، وما بيّن لكم من طرق الهداية.

وقال تعالى في سورة الأعراف: {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

ثم قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

قوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}. هذه الواقعة حدثت وبنو إسرائيل في مصر، وقبل الخروج منها، لأنه لما خرج بنو إسرائيل من مصر لم يكن معهم شيء من دوابهم، سوى ما يحمل أمتعتهم، والذهب الذي سرقوه من المصريين، فليس لهم بعد الخروج من مصر، بقر ليذبحوه، أو مالٌ ليورّثوه، ويظهر أنها في المدة التي كان موسى عليه السلام يسأل فيها فرعون أن يخرج معه بني إسرائيل.

عن عبيدة بن عمرو السلماني قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم – أو عاقر – قال: فقتله وليه، ثم احتمله فألقاه في سبط غير سبطه. قال: فوقع بينهم فيه الشر حتى أخذوا السلاح. قال: فقال أولو النهى: أتقتتلون وفيكم رسول الله؟ قال: فأتوا نبي الله، فقال: اذبحوا بقرة! فقالوا: أتتخذنا هزوا، قال: {أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}. قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ قال: {إنه يقول إنها بقرة}. .. إلى قوله: {فذبحوها وما كادوا يفعلون}. قال: فضُرِب، فأخبرهم بقاتله. قال: ولم تؤخذ البقرة إلا بوزنها ذهبا، قال: ولو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم. فلم يورَّث قاتل بعد ذلك.

رواه الطبري.

وعن عبدالرحمن بن زيد قال: قتل قتيل من بني إسرائيل، فطرح في سبط من الأسباط، فأتى أهل ذلك القتيل إلى ذلك السبط فقالوا: أنتم والله قتلتم صاحبنا. قالوا: لا والله. فأتوا موسى فقالوا: هذا قتيلنا بين أظهرهم، وهم والله قتلوه! فقالوا: لا والله يا نبي الله، طُرِح علينا! فقال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة. فقالوا: أتستهزئ بنا؟ وقرأ قول الله جل ثناؤه: {أتتخذنا هزوا}. قالوا: نأتيك فنذكر قتيلنا والذي نحن فيه، فتستهزئ بنا؟ فقال موسى: {أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}. .

رواه الطبري.

وقوله: {لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}. الفارض كبيرة السنّ، والبِكر الصغيرة، والعوان، هي التي ولدت بطناً أو بطنين.

وقوله: {صَفْرَاء}. الصفراء في الدواب عند العرب، هي ذات اللون البُنِّي الداكن.

وقوله: {فَاقِعٌ لَّوْنُهَا }. أي: لونها نقي، لا يخالطه لونٌ أخر.

وقوله: {إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا}. أي: لا ندري أيّ بقرة يريد الله تعالى أن نذبحها، لتشابه صفاتها.

وقوله: {لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ}. أي: ليست مذلَّلة لحرث الأرض وسقي الزرع، بل هي متروكة للرعي فقط.

وقوله: {مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا}. أي: أنها سالمة من العيوب.

وقوله: {وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}. أي: لغلوّ ثمنها.

وقوله: {اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا}. أي: اضربوه ببعض لحمها.

وقال تعالى في سورة القصص: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}.

قوله: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ}. أي: أنه من بني إسرائيل، فبغى عليهم، أي: تكبر وتجبر عليهم.

قوله: {لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ}. أي: تثقل عليهم، فلا يحملونها إلّا بمشقة. والعصبة، هم الجماعة من الرجال.

وتدل الآيات، على أن قارون كان فاحش الثراء، حتى إن مفاتيح خزائن أمواله، ليثقل حملها على العصابة من الرجال، وفي هذا دليل على أن من بني إسرائيل، من كان يمتهن التجارة، ومن كان ذا ثروة وجاه، في إشارة واضحة أنهم كانوا يعيشون في مصر حالة اجتماعية مستقرّة، نوعاً ما، وأن فيهم تجاراً وميسوري حال وفقراء كادحين، وإنما وقع الظلم عليهم، من قبل أن فرعون وقومه، لما كثر عددهم، وخافهم المصريّون، فأراد فرعون قتل مواليدهم الذكور، حتى لا يكثر عددهم، بحيث تكون لهم قوّة ومنعة.

وقوله: {لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}. الفرح المراد به هنا، الفرح الذي يجر إلى الكِبر والبطر والغرور والتعالي على الناس، وليس المراد بالفرح، السعادة بما هو فيه من غنى، وكل فرح مذموم في القرآن، فإنما يراد به الكِبر والبطر والغرور والتعالي على الناس.

وقوله: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}. أي: بحنكتي وذكائي، فجحد فضل الله عليه.

وقوله: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ}. أي: عاقبه الله تعالى على كِبره وبطره وغروره وتعاليه على الناس، وجحوده لفضل الله عليه، فخسف به وبداره الأرض، وكيف خسف الله به، قد يكون هذا وقع بشكل طبيعي، كأن يكون داره بجانب النهر فانهارت الأرض من تحته، فانهار البناء معها، وسقط في النهر، وقد يكون الخسف وقع بشكل غير طبيعي، بحيث شق الله الأرض وابتلعت داره وهو فيها، ثم أطبقها الله عليه.

وقال تعالى في سورة العنكبوت: {وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ}.

أي: جاءهم بالآيات الواضحات، على أن ما يقوم به ليس سحراً، بل هو حقيقة، وأنها دليل على صدقه فيما ادعاه من النبوة.

وقال تعالى في سورة غافر: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}.

أي: أنهم جميعاً كذّبوه، وقالوا: ليس موسى بنبي، وإنما هو ساحر كذاب.

فدلّت الآيات، على أن قارون كان كافراً بنبوءة موسى عليه السلام، وهذا دليل على أن خبر قارون، كان قبل أن يخرج بنو إسرائيل من مصر، ثم إن بني إسرائيل عندما خرجوا من مصر، لم يحملوا من أموالهم شيئاً، إلا ما خفّ من أمتعتهم، وما انتهبوه من ذهب أهل مصر.

وقال تعالى في سورة الكهف: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا}.

قوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ}. لا أحد يدري متى جرت هذه القصّة، وهل كانت قبل خروج موسى من مصر أو بعده، ولكنها قطعاً وقعت قبل التيه، فإن كان قبل خروج موسى من مصر، فلعل المراد بمجمع البحرين، ملتقى دلتا النيل، أو عند

مصب أحد الدلتين في البحر، وإن كانت بعد خروجه من مصر، فلعل المراد بمجمع البحرين، مجمع خليج العقبة مع خليج سيناء مع البحر الأحمر.

قوله: {أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا}. والحُقُب، هو الزمن الطويل. أي: أمضي زماناً طويلاً حتى أبلغ ما أريد.

عن أبي بن كعب قال: قُلتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إنَّ نَوْفًا البِكَالِيَّ يَزْعُمُ أنَّ مُوسَى صَاحِبَ الخَضِرِ، ليسَ هو مُوسَى صَاحِبَ بَنِي إسْرَائِيلَ، فَقالَ ابنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حدَّثَنِي أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ: أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: إنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا في بَنِي إسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أعْلَمُ، فَقالَ: أنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عليه إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْهِ، فأوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ إنَّ لي عَبْدًا بمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هو أعْلَمُ مِنْكَ، قالَ مُوسَى: يا رَبِّ فَكيفَ لي به، قالَ: تَأْخُذُ معكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ في مِكْتَلٍ، فَحَيْثُما فقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فأخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ في مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وانْطَلَقَ معهُ بفَتَاهُ يُوشَعَ بنِ نُونٍ، حتَّى إذَا أتَيَا الصَّخْرَةَ وضَعَا رُؤُوسَهُما فَنَامَا، واضْطَرَبَ الحُوتُ في المِكْتَلِ، فَخَرَجَ منه فَسَقَطَ في البَحْرِ، {فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا}. وأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ عليه مِثْلَ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أنْ يُخْبِرَهُ بالحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَومِهِما ولَيْلَتَهُما حتَّى إذَا كانَ مِنَ الغَدِ، قالَ مُوسَى {لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَبًا}.، قالَ: ولَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حتَّى جَاوَزَا المَكانَ الذي أمَرَ اللَّهُ به، فَقالَ له فَتَاهُ: {أَرَأَيْتَ إذْ أوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وما أنْسَانِيهِ إلَّا الشَّيْطَانُ أنْ أذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَبًا}.، قالَ: فَكانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، ولِمُوسَى ولِفَتَاهُ عَجَبًا، فَقالَ مُوسَى: {ذلكَ ما كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا علَى آثَارِهِما قَصَصًا}.، قالَ: رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُما حتَّى انْتَهَيَا إلى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى ثَوْبًا فَسَلَّمَ عليه مُوسَى، فَقالَ الخَضِرُ: وأنَّى بأَرْضِكَ السَّلَامُ، قالَ: أنَا مُوسَى، قالَ: مُوسَى بَنِي إسْرَائِيلَ؟ قالَ: نَعَمْ، أتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي ممَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا، قالَ: {إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا}.، يا مُوسَى إنِّي علَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أنْتَ، وأَنْتَ علَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لا أعْلَمُهُ، فَقالَ مُوسَى: {سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، ولَا أعْصِي لكَ أمْرًا}.، فَقالَ له الخَضِرُ: {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عن شيءٍ حتَّى أُحْدِثَ لكَ منه ذِكْرًا}.، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ علَى سَاحِلِ البَحْرِ فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بغيرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا في

السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إلَّا والخَضِرُ قدْ قَلَعَ لَوْحًا مِن أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بالقَدُومِ، فَقالَ له مُوسَى: قَوْمٌ قدْ حَمَلُونَا بغيرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إلى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شيئًا إِمْرًا قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا قالَ لا تُؤَاخِذْنِي بما نَسِيتُ ولَا تُرْهِقْنِي مِن أَمْرِي عُسْرًا}.، قالَ: وقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وكَانَتِ الأُولَى مِن مُوسَى نِسْيَانًا، قالَ: وجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ علَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ في البَحْرِ نَقْرَةً، فَقالَ له الخَضِرُ: ما عِلْمِي وعِلْمُكَ مِن عِلْمِ اللَّهِ إلَّا مِثْلُ ما نَقَصَ هذا العُصْفُورُ مِن هذا البَحْرِ، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبيْنَا هُما يَمْشِيَانِ علَى السَّاحِلِ إذْ أَبْصَرَ الخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مع الغِلْمَانِ، فأخَذَ الخَضِرُ رَأْسَهُ بيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقالَ له مُوسَى: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بغيرِ نَفْسٍ لقَدْ جِئْتَ شيئًا نُكْرًا}. {قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا}. قالَ: وهذِه أَشَدُّ مِنَ الأُولَى، قالَ: {إنْ سَأَلْتُكَ عن شيءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي، قدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا، فَانْطَلَقَا حتَّى إذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَهَا فأبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ}. - قالَ: مَائِلٌ - فَقَامَ الخَضِرُ فأقَامَهُ بيَدِهِ، فَقالَ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا ولَمْ يُضَيِّفُونَا، {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عليه أَجْرًا}.، قالَ: {هذا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ}. إلى قَوْلِهِ: {ذلكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عليه صَبْرًا}. فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وِدِدْنَا أنَّ مُوسَى كانَ صَبَرَ حتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِن خَبَرِهِما قالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيْرٍ: فَكانَ ابنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ {وَكانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا}. وكانَ يَقْرَأُ: {وَأَمَّا الغُلَامُ فَكانَ كَافِرًا وكانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ}.

رواه البخاري ومسلم.

قزله: "فهو ثَمَّ" أي: فهو هناك.

وقوله: {وأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ الماءِ، فَصَارَ عليه مِثْلَ الطَّاقِ}. أي: صار في فجوة ليس فيها ماء، والماء يحيط بها من جميع الجهات، حتى لا يذهب الحوت مع الماء.

والخَضِر نبي مبعوث إلى قومه، بدليل قوله: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}. أي: لم أفعل هذا برأيِ رأيته، وإنما هو أمر من الله لي بذلك، والله لا يوحي إلّا للأنبياء فقط، فثبت بذلك أنه نبي مبعوث إلى قومه.

وبما أنه نبي مبعوث، فهو لا شك من ولد إبراهيم عليه السلام، فإما أن يكون من ولد إسماعيل، أو من ولد أبناء قطورة، لكنه بالتأكيد ليس من ولد إسرائيل ولا مدين، فلو كان إسرائيلياً، لما ذهب موسى ليبحث عنه، لأن موسى إنما بعث إلى بني إسرائيل، وبنو إسرائيل كلهم معه.

كما يظهر من اسم الخَضِر، وهو الاسم الذي سمّاه به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث، أنه عربيّ، وليس في هذا إشكال، كون شعوب العراق والشام وجزء من مصر وسائر الجزيرة العربية كانوا يتكلمون باللسان العربي، بما فيهم بنو إسرائيل أنفسهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جاء ملك الموت إلى موسى فقال له: أجب ربك. قال: فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد فقأ عيني! قال: فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة، فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شعرة، فإنك تعيش بها سنة. قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت. قال: فالآن من قريب، رب أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق، عند الكثيب الأحمر".

رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَتَيتُ على موسى ليلةَ أُسرِيَ بي عندَ الكَثيبِ الأحمَرِ وهو قائمٌ يُصلِّي في قبرِه".

رواه مسلم.

وهذا يدل على أن قبر موسى عليه السلام في أرض رملية، وموسى لم يخرج من التيه، وعلى هذا فموضع قبر موسى عليه السلام في موضع بين سيناء وصحراء النقب، على طريق المسافرين بين الحجاز وبيت المقدس.

وقبر موسى لم يعرفه سوى النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه شاهد موسى قائماً يصلّي في قبره، ليلة أُسري به إلى المسجد الأقصى، ولا يعرفه أحدٌ بعده، وأما القبر المنسوب إلى موسى عليه السلام بأريحا، والواقعة شمال شرق مدينة القُدس، بالقرب من جبل نيبو، فهو قبرٌ مكذوب، لا حقيقة له.

وقد أخذ واضعوا القبر، الادعاء بأن قبر موسى في منطقة أريحا، من كُتُب اليهود، فقد جاء في سفر التثنية، الإصحاح الرابع والثلاثين، ما نصّه: "وَصَعِدَ مُوسَى مِنْ عَرَبَاتِ مُوآبَ إِلَى جَبَلِ نَبُو، إِلَى رَأْسِ الْفِسْجَةِ الَّذِي قُبَالَةَ أَرِيحَا، فَأَرَاهُ الرَّبُّ جَمِيعَ الأَرْضِ مِنْ جِلْعَادَ إِلَى دَانَ، وَجَمِيعَ

نَفْتَالِي وَأَرْضَ أَفْرَايِمَ وَمَنَسَّى، وَجَمِيعَ أَرْضِ يَهُوذَا إِلَى الْبَحْرِ الْغَرْبِيِّ، وَالْجَنُوبَ وَالدَّائِرَةَ بُقْعَةَ أَرِيحَا مَدِينَةِ النَّخْلِ، إِلَى صُوغَرَ وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «هذِهِ هِيَ الأَرْضُ الَّتِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا. قَدْ أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا بِعَيْنَيْكَ، وَلكِنَّكَ إِلَى هُنَاكَ لاَ تَعْبُرُ». فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ" اهـ

ولكن رواة اليهود قالوا: "وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ" اهـ

فإذا كان اليهود أنفسهم لا يعرفون أين يقع قبر موسى، فكيف عرف أولئك موقعه بالتحديد؟!

ولا أدل على كذب هذا القبر، وأنه ليس لنبي الله موسى عليه السلام، من أن أريحا، ليست على طريق المسافرين من الحجاز إلى القُدس، لأنها تقع شمال شرق القدس، وهذا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يمرّ بأريحا عند ذهابه أو إيابه من القُدس، كما أن الموضع المزعوم، ليس أرضاً رمليّة كما جاء وصفها في الحديث، بل أرض جبليَّة، مما يعني، أن القول بأن أريحا هي الموضع الذي دُفِن فيه موسى، بعيدٌ كلّ البُعد عن الحقيقة.

وأما هارون عليه السلام، فلم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم متى مات، وأين دفن، ولكن ما من شك أنه مات بالتيه، لأنه لم يدرك خروج بني إسرائيل من التيه، بل مات قبل ذلك باتفاق، ومما يدل على ذلك، أن الذي قادهم للخروج من التيه، هو يوشع بن نون، فلو كان هارون حياً لتولى هو قيادتهم، بل ربما توفي قبل موسى عليه السلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشمس لم تُحْبَسْ لبَشَرٍ إلا ليوشع لَيَالِيَ سافَرَ إلى بيت المقدس".

رواه أحمد بسند صحيح.

وقوله: "ليالي سافر إلى بيت المقدس" أي: عندما أراد غزوها وفتحها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضْعَ امرأةٍ، وهو يريد أن يبني بها ولما يبنِ بها، ولا أحدٌ بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها، ولا آخرُ اشترى غنما أو خَلِفَات وهو ينتظر وِلادَها. فغزا، فَدَنَا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك. فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا؛ فَحُبِسَتْ حتى فتح الله عليهم، فجمع الغنائم، فجاءت –يعني النار– لتأكلها فلم تَطْعَمْها، فقال: إن فيكم غلولا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فَلَزِقَتْ يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فَلَزِقَتْ يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا فَأَحَلَّها لنا" اه

رواه البخاري.

قوله: "غزا نبيٌّ من الأنبياء" جاء ذكره في هذا الحديث مبهماً، وقد بيّن الحديث السابق، أنه يوشع بن نون، ولعل الراوي هو من جهل اسم هذا النبي.

وقوله: "فجاءت – يعني النار – لتأكلها فلم تَطْعَمْها" وهذا فيما يظهر لي إنما يقع في حياة النبي، كآية من الآيات التي وهبها الله أنبيائه، وأما إذا مات نبيهم، فإن أتباعه ملزمون بحرق تلك الغنائم والتخلص منها.

وأهل الكتاب يسمونه: هوشع، كعادتهم في تحريف الأسماء ويزعمون أن موسى عليه السلام، غيّر اسمه إلى: يشوع، وهذا كما يظهر من تأليفهم.

ولا يعرف من نسب يوشع، أكثر من أنه ابن نون، ويذكر رواة اليهود أنه من سبط يوسف بن يعقوب.

ويوشع ونون اسمان عربيّان، ويوشع على وزن: يُوزَع، مشتق من الإشاعة، والنون هو الحوت، سُمِّي به الرجل.

وهذه الأخبار تدلّ على أن يوشع بن نون، هو من تولّى الأمر بعد موسى عليه السلام، وهذا يدلّ على أن هارون توفي قبل موسى.

وفي هذه الأخبار أيضاً، دلالة على أن يوشع بن نون هو من فتح بيت المقدس، حيث يزعم رواة اليهود، أن بيت المقدس فتح بعد موت يوشع.

وقال تعالى في سورة البقرة: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}.

قوله: {مِن بَعْدِ مُوسَى}. أي: بعد زمن موسى.

قوله: {وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا}. دليل على أن بني إسرائيل غلبوا على بلادهم، وأخرجوا منها، وسبيت نسائهم وذراريهم، فأرادوا الانتقام من عدوهم. ويظهر من سياق الأخبار، أن هذا وقع بعد موت يوشع عليه السلام، وانهماك بني إسرائيل في الدنيا، وتقصيرهم في القيام بالشريعة، وتقصيرهم في الإعداد لملاقات أعدائهم.

وقوله: {وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ}. أي: ليس من بيوت الشرف في بني إسرائيل، ولم يكن ذا مال.

وقوله: {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ}. أي: كان عظيم الجسم، قويّ البُنية، وكان عالماً بالشريعة.

وقوله: {فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ}. أي: تسكنون وتطمئنون، بأن تعيين طالوت ملكاً، هو أمر من الله تعالى.

وأما ما قيل من أن السكينة المذكورة في الآية، هي ريح هفهافة لها وجه كوجه إنسان، أو ريح لها رأسان، أو أنها ريح لها جناحان ووجه كوجه الهرّ، أو أنها رأس هرٍّ ميِّت، أو طست يغسل فيه قلوب الأنبياء، أو أنها روح من الله تتكلم، فكلّ هذا من هذيان القُصَّاص وأكاذيبهم وسخافاتهم، التي وضعوها على الصحابة والتابعين، ونقلها الطبري في تفسيره بلا رويَّة ولا عقل ولا تمييز، ونقل عن الطبري، من لم يكن حظّه من العقل والتمييز بأوفر مما أعطي الطبري.

والصواب الذي لا مرية فيه، أن السكينة، هي الآية التي طلبوها لتسكن إليها قلوبهم، ويعلموا أن تنصيب طالوت ملكاً على بني إسرائيل، جاء من الله تعالى، وليس من صموئيل.

وقوله: {وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}. أي: فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، مما ورثوه عن موسى وهارون، وهي الألواح التي كتبت فيها التوراة، وعصيهم، وشيء من ثيابهم، كانت بنو إسرائيل يحملونها معهم في غزواتهم تبركاً بها، لأنها آثار أنبيائهم.

وقوله: {تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ}. أي: تطير به في السماء حتى تضعه أمامهم، دون أن يرو الملائكة.

وقوله: {إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ}. أي: أخذ بيده من الماء وشرب منها.

وقوله: {وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ}. كان داود جنديّاً في الجيش، وكان ذا قوة وشجاعة ونجدة، فتقابل هو وجالوت، وهو ملك بعض قبائل الشام، فتمكن داود منه وقتله.

وقوله: {وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ}. أي: اصطفاه بأن جعله الملك بعد طالوت، وجعله نبيّاً بعد صموئيل.

قلت: ولم يذكر الله تعالى اسم هذا النبي، إلّا أن رواة اليهود، يزعمون أن هذا النبي اسمه سموئيل، ويضعون له سلسلة نسبٍ غير موثوقٍ بها، ويدّعون أنه من سبط يوسف بن يعقوب عليه السلام.

وهو اسم مركّب من شقيّن: سمو، وتعني: الرفيع، لأن السمو، تعني: الرِفعَة، وإيل، وتعني: الله، فكأن معنى الاسم هو: رفيع الله. أي: الذي رفعه الله.

قال تعالى في سورة الأنبياء: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ}.

قوله: {سَخَّرْنَا}. أي: جعلهن متّبعات لداوود، إذا سبّح سبّحن بتسبيحه.

وقوله: {دَاوُود}. ويختصر إلى داود، قد يكون مشتقاً من الوِدّ، وهو المحبّة، وقد يكون على معنى أُدّ وأُدَد، ومعناه: القوي أو العظيم. وقد يكون مشتقاً من الدَودَاة، وهي الجلبة والضوضاء، وبه سمّيت الأرجوحة: دَوداة، لما تحدث من جلبة وضوضاء، وعلى هذا فهو اسم عربيّ.

واليهود والنصارى يضعون له سلسلة نسب غير موثوق بها، ويزعمون أنه من سبط يهوذا بن يعقوب.

وقوله: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ}. أي: علّمه الله صناعة الدروع والخِوَذ، وسائر أنواع الأسلحة. لتكون وقاية لكم من بأس بعضكم على بعض.

وقال تعالى في سورة سبأ: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

قوله: {أَوِّبِي}. أي: ردِّدي. وهذا في معنى التسخير في الآية السابقة، وهو أنها تردد وراءه التسبيح.

وقوله: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}. أي: جعل الحديد يلين في يده بسهولة.

وقوله: {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ}. أي: أي: الدروع التامة، التي تحفظ الجسد من الضرب والطعن.

وقوله: {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}. وهذا أمرٌ من الله له بأن يحسن في سرد الدروع.

وقوله: {وَاعْمَلُوا صَالِحًا}. أي: اعملوا بطاعة الله.

وقال تعالى في سورة ص: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

قوله: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}. أي: الضمير هنا عائد إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أي: اصبر على ما يقوله كفّار قريش من تكذيبك والسخرية بك وبدعوتك.

وقوله: {ذَا الأَيْدِ}. أي: ذو القوّة.

وقوله: {سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ}. أي: جعلناها تسبّح الله تعالى مع داود.

وقوله: {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ}. العشي عند العرب، يطلق على فترتين، وهي: من وقت زوال الشمس في الظهيرة إلى غروب الشمس، ومن وقت غروب الشمس إلى العتمة. وأما الإشراق، فالمراد به الفجر، إلى ارتفاع الشمس عن الأفق.

قوله: { إِنَّهُ أَوَّابٌ}. أي: كثير الأوب، وهو الرجوع بالتوبة والتسبيح.

وقوله: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ}. كان إذا سبّح اجتمعت الطير حوله تسبّح الله تعالى.

وقوله: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ}. أي: جعلنا ملكه قويّاً مهيباً مخيفاً.

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}. أي: القدرة على حلّ النزاعات بما يرضي جميع الأطراف.

وقوله: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}. أي: تسلّقوا عليه في مسجده، وكان يغلقه عليه في الليل، يتهجد لله تعالى.

وقوله: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}. أي: ألحّ علي في ذلك.

وقوله: {فَتَنَّاه}. أي: امتحنّاه.

وقوله: {وَأَنَاب}. أي: رجع وتاب.

ولم يخبرنا الله تبارك وتعالى عن الذنب الذي اقترفه نبيه داود عليه السلام، وكل من ادعى معرفة ذلك على وجه التفصيل فهو كاذب، ولكن نستطيع أن نعلم على الظن لا على اليقين، من خلال موعظة الله تعالى لنبيّه، أن نبي الله أعجبه مال رجلٍ من جنّده، فأراد أن يضمّه إلى ماله، إما أن يبيعه إيّاه، أو ويشاركه فيه، ويظهر أن الرجل لم يكن يريد ذلك، ويخشى غضب داود إن هو رفض ذلك، فأراد الله تعالى أن يصرف داود عنه، فنهاه عنه، بحقيقة ما وقع.

وأما ما يرويه رواة اليهود في كتبهم، ورموا به نبي الله داود، ونقله قصّاص المسلمين، مع شيء من التحريف، فهو من كذب رواة اليهود، فإن الأنبياء معصومون من الوقوع في الكبائر، ولكن اليهود، قوم ليس للأنبياء عندهم قدر، ويظنونهم كآحاد الناس، ولا يعتقدون فيهم العِصمَة.

وقوله: {لَزُلْفَى}. أي قربى.

وقوله: {خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ}. أي: خلّفناك فيها، لتحكم بين الناس نيابة عنّا.

قال تعالى في سورة الأنبياء: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}.

عن عبدالله بن مسعود قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله. قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم، فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها.

رواه الطبري.

وعن عبدالله بن عباس قال: كنا لما حكما شاهدين، وذلك أن رجلين دخلا على داود: أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم تبق من حرثي شيئًا، فقال له داود: اذهب فإن الغنم كلها لك، فقضى بذلك داود، ومر صاحب الغنم بسليمان فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود فقال: يا نبي الله إن القضاء سوى الذي قضيت، فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن ينتفع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل كل عام، فقال داود: قد أصبت القضاء كما قضيت، ففهمها الله سليمان.

رواه الطبري.

ومما يروى من حكمة سليمان أيضاً، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كانت امرأتان معهما ابناهم، جاء الذئب فذهب بابن إحداهم، فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهم، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنه، فقضى به للصغرى".

قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين قط، إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المدْيَة.

رواه البخاري ومسلم.

وقوله: "الْمُدْيَة" بِضَمِّ الْمِيم وَكَسْرهَا وَفَتْحه، سُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا تَقْطَع مَدَى حَيَاة الْحَيَوَان.

وقوله: "السِّكِّين" تُذَكَّر وَتُؤَنَّث لُغَتَانِ، وَيُقَال أَيْضًا: سِكِّينَة لِأَنَّها تُسَكِّن حَرَكَة الْحَيَوَان.

وقال تعالى في سورة الأنبياء أيضاً: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ}.

قوله: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ}. أي: سخّر الله لسليمان الريح، فهي طوع أمره، فكان إذا أراد المسير، أمر الريح فاحتملته إلى حيث يشاء.

وسُليمان، صيغة مبالغة لسُلَيْم، وهو تصغير: سالِم، وسالم مشتقٌ من السَلامة، وهي: النجاة، والألف والنون للمبالغة في الوصف.

وقوله: {إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}. وكل أرض فيها خير للمخلوق، فهي مما بارك الله عز وجل، فليس المراد به هنا موضعاً بعينه، بل تجري به الريح إلى أيِّ أرضٍ لسليمان فيها خير.

وقوله: {مَن يَغُوصُونَ لَهُ}. أي: يستخرجون له من كنوز البحر، فيغوصون إلى أعماقه، ويعملون أعمالاً هي دون الغوص، أي: أهون.

وقوله: {وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ}. أي: حفظهم الله تعالى من أن يخرجوا عن أمر سليمان.

وقال تعالى في سورة النمل: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

قوله: {عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ}. أي: كيف يتحدث الطير، فكان يفهم كلامها، وليس المراد أن الله تعالى لم يعلّمه سوى لغة الطيور، بل علّمه لغة سائر الدواب، ولذلك نجده يفهم كلام النمل.

وقوله: {وَادِي النَّمْلِ}. أي: وادٍ كان فيه جحر للنمل، وليس المراد به موضعاً بعينه، إذ قد ذهب بعض المفسرين، إلى أن المراد بوادي النمل، وادٍ مشهور بمدينة الطائف.

وقوله: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}. أي: أرادت أن تجد طريقاً للمصالحة.

وقوله: {قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ}. أي: قبل أن تنهي مجلسك، وتدخل إلى دارك.

وقوله: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ}. كان رجلاً صالحاً، عنده علم من كتاب التوراة والزبور.

وقوله: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}. أي: قبل أن ترمش بعينك.

أي: أنه في الوقت الذي يسرح فيه طرفك إلى أقصى أمدٍ له ثم تكفه عن النظر، أكون قد أحضرت لك عرش ملكة سبأ، فأمره بذلك، فما هي سوى لحظات، حتى وجد عرشها ماثلاً أمامه!

ولا أحد يعلم حال الذي عنده علم من الكتاب، وهل هو بشر أو ملك، وإذا كان بشراً، فأي علم عنده منحه القدرة على إحضار العرش إلى سليمان من اليمن بهذه السرعة! ولا يُدرى ما هي الطريقة والكيفية التي من خلالها استطاع هذا الرجل إحضار العرش!

فأما الرواة فيتخبطون في تأويل ذلك تخبطهم المعتاد، وأما الحقيقة فإنه لا يعلم ذلك إلا الله تعالى، إلا أنني أرجح، أن هذا الرجل كان مستجاب الدعوة، قد علم كتاب التوراة والزبور، وعمل بما فيها، فأدى فرائض الله، واجتنب ما نهى عنه، وتقرب إليه بالنوافل، وأطاب مطعمه، فلا يطعم حراماً، فكان مجاب الدعوة، فدعا الله تعالى أن يحضر عرش ملك سبأ إلى سليمان، فأمر الله العرش أن يطير من موضعه، حتى مثُل أمام سليمان.

ولعل قائلاً يقول: لو كان هذا هكذا لكان نبي الله سليمان أولى منه بذلك؟ والجواب: لا شك أن نبي الله أولى منه بذلك، ولكن نبي الله ذُهِل ولم ينتبه لهذه الوسيلة العظيمة، فهو بشر، يسهو وينسى، فذكّر الله تعالى بها هذا الرجل الصالح، فلما أخبر نبي الله بأنه قادر على أن يأتي

بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه، تعجّب نبي الله منه، وأراد أن يعرف ما هي الوسيلة التي سوف يعملها ليحضر عرش ملكة سبأ بهذه السرعة، وعندما رأى الوسيلة، تفطّن لما كان قد ذُهِل عنه سابقاً.

وقد استغل مشعوذوا الصوفية والرافضة هذه الآية، لتشريع شعوذتهم، متذرعين بأنهم أولياء صالحين، وأن عندهم من القدرة، مثل ما عند الذي عنده علم من الكتاب، وأن العلم الذي أعطيه ذاك الرجل، هي رموزهم وطلاسمهم الشركية، التي يستدعون بها الجنّ، ويستخدمونهم بها في طاعتهم، وقضاء حوائجهم، وحوائج الناس، فيما لا يرضي الله تعالى.

وهذا مردود من الآيات، فلو كان ما زعموه حقاً، لما احتاج سليمان إلى عون ذلك الرجل، فسليمان أصلاً يستخدم الجن دون الحاجة إلى رموزهم وطلاسمهم الشركية، فتبين بذلك، أن الرجل الذي عنده علم من الكتاب، استخدم شيئاً أخر، غير الجنّ.

وقوله: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ}. أي: أراد أن تدخل قصره، وتتفرّج في زينته.

وقوله: {فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ}. أي: لما أرادت دخول القصر، وجدت أن الماء يغطي أرضيّته، فكشفت عن ساقيها، فأخبرها سليمان، بأن هذا الصرّح ممرّد، أي: مبلّط بالقوارير، وهي الزجاج، والماء تحت الزجاج.

وقال تعالى في سورة سبأ: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}.

قوله: {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ}. أي: تقطع مسيرة شهر على الدواب في غداة واحدة، وتقطع مسيرة شهر في رواحٍ واحد.

وقوله: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ}. أي: أذبنا له عين النحاس، والقِطر هو النحاس، وأجريناها له، وسهّلنا له ذلك.

وقوله: {مَّحَارِيبَ}. أي: محاريب المساجد.

وقوله: {وَتَمَاثِيلَ}. أي: مجسمات من النحاس والزجاج والطين وغير ذلك.

وقوله: {وَجِفَانٍ}. أي: أوانٍ للقدور، واسعة من الأسفل، وضيقة من الأعلى.

وقوله: {كَالْجَوَابِ}. وهي جمع جابية والجابية: الحوض الكبير الذي يجبى فيه الماء.

وقوله: {وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ}. أي: قدور كبار، راسية لا تتحرك من ضخامتها، يوقد تحتها.

وقوله: { دَابَّةُ الأَرْضِ}. أي: نوع من النمل، يأكل الخشب، حتى يجعله نخراً هشّاً سهل الانكسار والتحكم.

وقوله: {تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ}. أي: تأكل عصاه التي يتوكأ عليها.

وقوله: {فَلَمَّا خَرَّ}. أي: وقع.

وقوله: {تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}. أي: أن الجنّ كانت تدعي معرفة كل شيء، وأنهم يعلمون الغيب، بما يسترقونه بالسمع من السماء الدنيا، فبيّن الله لهم أنهم أعجز من ذلك، وأن ما يقع لهم من علم الغيب، إنما هو بإذنٍ من الله تعالى وتقديره.

وقال تعالى في سورة ص: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}.

قوله: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ}. أي: أن سليمان كان ابن داود، ولا يعرف عن نسب سليمان على وجه اليقين، إلّا أنه ابن داود، وهم من سبط يهوذا، كما ذكرت في نسب أبيه داود.

وقوله: {بِالْعَشِيِّ}. وقتان، الأول: من زوال الشمس وقت الظهيرة، إلى غروب الشمس، والوقت الثاني، من أخر النهار قبل غروب الشمس.

وقوله: {الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}. أي: الخيول الأصايل، الجيّدة في سرعتها وجمالها.

قال مجاهد بن جبر: صُفُون الفرس: رَفْع إحدى يديه حتى يكون على طرف الحافر.

رواه الطبري.

وهذا النوع من الوقوف، لا تفعله إلّا أصايل الخيل.

وقوله: {أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي}. أي: أنها أشغلته عن ذكر الله تعالى، كأن الصلاة التي فاتته هي صلاة العصر، لأن الله تعالى قال: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}. أي: الشمس، ذهبت تحت الأُفُق، مما يعني بداية صلاة المغرب، وعلى هذا، فالصلاة التي فاتته هي صلاة العصر، أو أنه كان يذكر الله تعالى وقت العشيّ ففاته ذلك بسبب انشغاله بمطالعة الخيل،

وقوله: {فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ}. أي: يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها. وقيل: أنه قتلها، بحيث أنه قطع سيقانها، ثم قطع أعناقها، وهذا تأويل مرجوح، لأن العرب لا تسمّي قطع السيقان والأعناق بالسيف مسحاً، بل تسميه: ضرباً، فلو كان ما تأولوه صحيحاً، لكانت الآية تقول: "فطفق ضرباً". ثم كيف يقتلها، بغير جريرة وقعت منها، وكيف يقتلها، وهو في حاجتها للحرب، كلّ هذه الشواهد، تدل على بطلان هذا التأويل.

وقوله: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ}. أي: ابتلاه الله، كأنه وقع في ذنب من الذنوب.

وقوله: {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَاب}. أي: أنه بسبب هذا الذنب، عاقبه الله تعالى بأن ألقى على كرسيِّه، وهو عرشه، جسداً، بمعنى، أن الله تعالى سلّط عليه ملكاً من ملوك الأطراف، هجم عليه وتغلب على بلاده وجلس على كرسيّه.

وقوله: {ثُمَّ أَنَابَ}. أي: أن نبي الله تعالى، انحاز بعد هزيمته إلى ناحية من الأرض، وعلم أن ما أصابه إنما وقع بسبب خطيئته، فتاب إلى الله تعالى.

وقوله: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}. أي: أن الله تعالى لم يسخر له الريح والجنّ والدواب والطيور، إلّا بعد أن تاب من خطيئته، وهذا فيه دليل على بطلان الروايات التي تزعم أن سليمان كان يتحكم في الجن قبل أن يُفتن، وبطلان الروايات التي ورد فيها أن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان، كان جنيّاً يخدمه واستولى على خاتمه الذي كان يتحكم بواسطته بالجنّ، وما تلا ذلك من روايات، وكل هذا كذب، فسليمان لم يتحكم في الجن إلّا بعد توبته من الخطيئة، ولم يكن يتحكم في الجن بواسطة خاتم، بل بقدرة الله الذي مكنه من رؤيتهم، والسيطرة عليهم، وأما الخاتم، فهو أكذوبة روّج لها شياطين الجنّ، ليخدعوا بها شياطين الإنس، ليوهموهم أن سليمان كان ساحراً، وأنه يتحكم في الجنّ بواسطة هذه الخواتم! لأن الكهنة والمشعوذين، عادة ما يستخدون خواتم خاصّة بهم، لاستحضار الجن، الذين يخدمونهم، فجعلوا سبيل سليمان في سيطرته على الجن، سبيل الكهنة والمشعوذين.

وقال تعالى في سورة البقرة: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}.

قلت: وظاهر الآية يفيد، أن الشياطين تلت على ملك سليمان السحر، بمعنى، أنها علّمت اليهود السحر، وقالت: هذا السحر كان يعلمه سليمان ويعمل به، وبه كان يتحكّم في الجنّ.

فأكذبهم الله تعالى، وبيّن أن هذا السحر الذي جاءت به الشياطين، هي مما علّمه هاروت وماروت الناس من قبل، في بابل.

ولم أجد رواية صحيحة في تأويل هذه الآية، وكل الأخبار المرويّة فيها باطلة سنداً ومتناً، فأسانيدها ضعيفة، ومتونها مخالفة لما ورد في الآيات مخالفة بيّنة، تقضي ببطلان تلك الأخبار.

والذي يظهر لي: أن شياطين الجنّ، لما هلك سليمان، تمثل أحدها أو بعضها، في صورة بشر، وقال لليهود وقد اجتمع ثلّة من كبارهم: ألا أخبركم بكيف كان يتحكم سليمان في الجنّ؟ فقالوا: بلا. فقال: اكتبوا. فأملى عليهم طلاسم السحر.

وقولي: أنه طلب منهم أن يكتبوا ذلك، لأن الجنّ لا تكتب، ولا تستطيع أن تتناول القلم والكتاب، إلّا في ظروف معيّنة، وليس هذا الظرف منها.

وكذلك هي لا تستطيع أن تحمل الشيء، أو تضعه، أو تحفر، أو تدفن، أو تتناول أي شيء مادّيٍّ، إلا في تلك الظروف، والتي كان نبي الله سليمان، يهيئه لها، مما علمه الله تعالى إيّاه، ليتحكم في الجنّ، ولتتمكن من خدمته، وأما ما عدا ذلك، فهم لا يستطيع فعل أي شيء.

فلما ألقى عليهم الشيطان ما ألقى من السحر، انقسم بنو إسرائيل في شأن نبي الله سليمان ثلاثة أقسام:

فقسم ظن أن سليمان ساحر مع إقراره بأنه نبي من الله، فأجازوا السحر وتعلموه وعملوا به، وهم أكثر بني إسرائيل، لذلك انتشر تعلم السحر والعمل به بينهم.

وقسم ظن أن سليمان ساحر، وأن الأنبياء لا يمكن أن يكونوا سحرة، فظنوا أن سليمان ليس نبياً بل مشعوذاً ودجالاً من الدجاجلة، فتبرأوا منه.

وقسم أنكروا السحر وأنكروا أن يكون سليمان ساحرا، وأن سليمان إنما سخر الله له الجن، وأعطاه من القدرة والقوة ما يقهر به الجن، فالجن تطيعه خوفا منه، وأنه نبي الله حقا، وهم أهل الحق، وهم أقل تلك الفرق.

قال تعالى في سورة الصافات: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.

قوله: {لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ}. أي: أنه كان نبيّاً رسولا.

وقوله: {بَعْلا}. البعل صنم كان يعبد بالشام، ومعنى البعل: السيّد والملك، ولذلك تقول الزوجة لزوجها: بعل. أي: سيّد، ومالك.

وذلك أن كثيراً من بني إسرائيل عبدوا البعل، فبعث الله تعالى إليهم نبيّه إلياس، ليدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد، وينهاهم عن عبادة الأوثان، ويصبر على دعوتهم وأذاهم له، فتبعه منهم من أراد الله تعالى به خيرا، وأعرض عن الحق من علم الله أنه لا خير فيه، وبقي على ذلك حتى وافاه أجله، غير مبدل ولا مغير .

وقوله: {فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}. أي: محضرون للعذاب.

وقوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ}. أي: أبقينا عليه ذكراً حسناً في الأجيال التالية، جيلاً بعد جيل.

وقوله: {إِلْ يَاسِينَ}. والأصل أن تكتب: إلياسين. ولكن الناسخ كتبها هكذا فاستمر النسّاخ في كتابتها على هذا الرسم، وإلياسين، المراد به: إلياس، والياء والنون زائدة، كما سمّى الله تعالى سيناء: سينين، في قوله تعالى: {وَطُورِ سِينِينَ}. وإنما يريد: طور سيناء.

وفي كتب اليهود، أن إلياس من بني إسرائيل، وهم يسمونه: إِيْلِيَّا، وهذا من تخليطهم وتحريفهم لأسماء الأنبياء، ويظهر أن وقوعهم في هذا الوهم، هو بسبب تقارب لفظ اسم إلياس بإيلياء، وشهرة إيلياء، فيقال: بأن إيلياء من الأسماء الرومانيّة، والتي كانت مستخدمة في ذلك الوقت

بكثرة، بحيث لا يمكن نسيان لفظ الاسم، بخلاف إلياس، حيث من النادر أن يعرف شخص بهذا الاسم، ومن هنا وهم الراوي، فظن أن اسم النبي: إيلياء، والصواب ما نصّ عليه القرآن.

ويزعمون أنه من مدينة تشبه، وهي مدينة تقع في شمال شرق مدينة الموصل، وتبعد عنها قرابة مائة وأربعين ميلاً. وأنه انتقل ليستوطن في أرض جلعاد، وهو موضع يقع بين نهر اليرموك شمالا، ونهر الزرقاء جنوبا، ونهر الأردن غربا.

ولا يمكن الوثوق بما قاله رواة اليهود حول الموطن الأوّل لإلياس، ولا بانتقاله إلى أرض جلعاد، ولكن إن صحّ هذا، فهذا يعني أن ملك سليمان عليه السلام شمل أجزاء من بلاد إرمينيا، كون مدينة تشبه تقع في بلادهم، وأن جزءاً من بني إسرائيل، انتقل إلى العيش في بلدة تشبه.

ويمكن تفسير انتقال إلياس من بلده تشبه إلى أرض جلعاد، بأن بني إسرائيل في تلك المدينة تعرّضوا لضغوط من الشعوب المتاخمة لهم، بعد ضعف دولة بني إسرائيل، بموت الملك سليمان، ومما زاد الأمر سوءاً بالنسبة لبني إسرائيل المقيمين في مدينة تشبه، هو بعد مدينتهم عن قلب بلاد بني إسرائيل، والتي كانت تتمركز في ذلك الوقت في الجزء الغربي من الشام.

ولا يذكر رواة اليهود شيئاً عن نسب إلياس، ولا من أيّ أسباط بني إسرائيل هو، والنسب المذكور لإلياس في كتب التاريخ الإسلامي، من وضع قصاص المسلمين وأكاذيبهم.

وإلياس اسم عربيّ، مشتق من الإلياس، وهي القوة، لذلك سمّي الأسد والجمل: الأليس. وربما يكون مشتقاً من الإلياس، وهو: الإقامة، لذلك سمّي الرجل الذي لا يبرح بيته أليس. وربما يكون مشتقاً من اللوس وهو الذوق، وهذا الاسم قد سُمّي به إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان.

ويزعم بعض المؤرخين، أن إلياس هي الصيغة اليونانية لاسم إيلياء، يذهب في ذلك، إلى أن اليونانيين، إذا أرادوا تعظيم شخص، الحقوا السين في أخر اسمه عند نطقه، وهذا باطل، لأن اليونانيين، لا يكتفون بإلحاق السين في أخر الاسم، بل يضيفون إليه حرف الواو، وربما زادوا أيضاً حرف الياء للضرورة، فيقولون في هرقل: هراقليوس، فلو كان ما زعموه صحيحاً، لكان يجب أن يقال في إيلياء: إيليوس. أو: إيلياوس. وقد أثبتّ سابقاً، أن إلياس، من الأسماء العربية، التي تسمى بها العرب قديماً، وأن اشتقاقه عربيٌّ محض.

وزعم رواة اليهود، أن إلياس، رفع إلى السماء، وأنه سوف يعود في أخر الزمان، وهذا وهم منهم، حيث خلطوا بينه، وبين خبر عيسى المسيح عليه السلام، وإذا كان من كَتَب تاريخ اليهود، دوّن ذلك، بعد حياة النبي عيسى عليه السلام، فكل ما قام به كاتب التاريخ اليهودي، هو أنه أخذ ما يرويه مسلمو النصارى، من رفع عيسى عليه السلام، وعودته في أخر الزمان، ونحلها إلياس عليه السلام، ليكون هذا الفضل، لنبيٍّ معترف به من قِبَل اليهود.

هل إلياس هو إدريس؟

من الأخطاء التي وقع فيها بعض المسلمين، اعتقادهم أن إلياس هو إدريس، عليهما السلام، وهذا خلط وتحريف فاحش.

والذي دفعهم إلى هذا الخلط والتحريف، هو ما ذكره الله تبارك وتعالى عن إدريس عليه السلام، في قوله تعالى في سورة الزمر: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}.

فلما رأى بعض المسلمين أن اليهود يزعمون أن إلياس رفع إلى السماء بروحه وجسده، فهو حي في السماء، رجّحوا أن معنى قوله تعالى عن إدريس: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}. أي: أنه رُفِع بروحه وجسده، واستظهروا من خلال ذلك: أن إدريس هو إلياس!

وروى المفسرون عن عبدالله بن مسعود أنه قال بأن إلياس هو إدريس، وأنه كان يقرأ قوله تعالى في سورة الصافات: {سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ}. {سلام على إدراسين}. وهذا لم يثبت عن عبدالله بن مسعود، وأكثر روايات المفسرين أباطيل، قال البخاري في صحيحه: "يذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس" اهـ وهذا دليل صارخ على أن ما نسب إليهما ليس بثابت، بل وليس له سند يعرف، حتى ينظر فيه، ويتحقق من صحته.

وقد ذكر إدريس في القرآن مرتين، وذكر إلياس في القرآن مرتين، فدلّ هذا على أنهما شخصان مختلفان.

فثبت بذلك أنه لا علاقة بين إلياس وإدريس.

سيرة اليسع عليه السلام

قال تعالى في سورة الأنعام: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}.

وقال تعالى في سورة ص: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الأَخْيَارِ}.

ولم يذكر الله في كتابه ولا نبيه في أحاديثه شيئاً عن حياة اليسع.

بينما يذكر رواة اليهود: أن اليسع كان تلميذاً من تلامذة إلياس عليه السلام، فلما مات إلياس، بعثه الله نبياً، وخلف اليسع معلّمه إلياس، في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد، وإرشادهم وتعليمهم تعاليم الإسلام، التي بعث الله تبارك وتعالى بها موسى عليه السلام، وأنزل بها التوراة، والقضاء بينهم، فكان اليسع، يسير في بني إسرائيل سيرة إلياس، فيدعوا ضالهم، ويرشد تائههم، ويعلم متعلمهم، ويقضي بينهم، حتى توفّاه الله تعالى.

ولا يذكر رواة اليهود شيئاً عن نسب اليسع، ولا من أي أسباط بني إسرائيل هو، والنسب المذكور لاليسع في كتب التاريخ الإسلامي، من وضع قصّاص المسلمين وأكاذيبهم.

واليسع، مشتق من السعي، كأنه مخفَّف من يسوع، أو هو مشتق من السِعَة، أي: الذي يسع الأشياء.

قال تعالى في سورة يونس: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}.

قوله: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ}. ولا يذكر أهل الكتاب شيئاً عن نسب يونس أكثر من أنه ابن متّى، ولم يذكروا إلى أيّ أسباط بني إسرائيل ينتسب، وأما النسب المذكور ليونس بن متّى في كتب التاريخ الإسلامي، فهو من وضع قصّاص المسلمين وأكاذيبهم.

ورواة اليهود والنصارى، يسمونه يونان بن متّاي، على عادتهم في تحريف أسماء الأنبياء.

بينما يونس اسم عربيّ، مشتق من الأُنْس.

ومتّى اسم عربيٌّ أيضاً، مشتق من المتّ، وهو الاتصال، تقول العرب: متّ له بنسب أو رحِم، أي: اتّصل له بنسب أو قرابة.

ويذكر رواة اليهود والنصارى، أن يونس من قرية نينوى، والتي بنيت مدينة الموصل على انقاضها، وبما أن الدولة السومرية والآشورية والبابلية، قامت بعد زمن نبي الله سليمان، وبما أن يونس من بني إسرائيل، فهذا دليل على أن بني إسرائيل، هم أوّل من بنى مدينة نينوى، وأنها كانت في أيديهم حتى انتزعها منهم الآشوريون واتخذوها عاصمة لهم، فاندمج أهلها من بني إسرائيل مع الأمم الأخرى التي خالطتهم في مدينتهم، وربما هاجر كثيرون منهم خارج نينوى ليسكنوا في مدن أخرى، طلباً للمتّسع والمعاش.

وتدل هذه الآية الكريمة، أن الله تعالى قد هيئ لهم العذاب، فلما شعروا به، ضجّوا بالدعاء لله تعالى، فرفعه الله عنهم، وهذا ما لم يقع في من سبقهم من الأمم، إذا هيئ الله لهم العذاب، لم ينفعهم شيء حتى يقع بهم.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لّا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}.

وقوله {وَذَا النُّونِ}. أي: صاحب الحوت، وذو تأتي بمعنى صاحب، والنون هو الحوت.

وقوله: {مُغَاضِبًا}. أي: غاضباً من قومه، لما أبو الاستماع إليه، والانقياد له، فخرج من قريته دون إذنٍ من الله تعالى.

وقوله: {فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ}. أي: ظنذ أن لن نُضيِّق عليه، فالقدرة هنا بمعنى التضييق، أي: ظنّ أن الله تعالى لن يعاقبه بسبب خروجه من القرية بغير إذنٍ منه سبحانه وتعالى.

وقوله: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ}. أي: في ظلمات بطن الحوت والبحر.

وقال تعالى في سورة الصافات: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}.

قوله: {الْمُرْسَلِينَ}. أي: أنه كان نبيّاً رسولا.

وقوله: {إِذْ أَبَقَ}. أي: خرج بدون إذنٍ من الله تعالى، فهو كالعبد الآبق من سيده.

وقوله: {الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}. الفلك هو السفينة، والمشحون، أي: المشحون بالبشر والبضائع.

وقوله: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ}. أي: أنهم صنعوا قرعة يقترعون بينهم، من يُلقى في البحر، فوقعت القرعة عليه، فألقوه في البحر، والمدحض، هو: المغلوب.

عن قتادة بن دعامة قال: فاحتبست السفينة، فعلم القوم أنما احتبست من حدث أحدثوه، فتساهموا، فقُرِعَ يونس، فرمى بنفسه، فالتقمه الحوت.

رواه الطبري.

وقوله: {وَهُوَ مُلِيمٌ}. أي: الملَام، وهو وصف يطلق على المذنب، الذي يستحق اللوم على ذنبه.

وقوله: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء}. أي: ألقاه بساحل البحر. فالنبذ هو الإلقاء، والعراء هو الفضاء.

وقوله: {وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ}. أي: بجواره، ليأكل منها.

وقوله: {أَوْ يَزِيدُونَ}. أي: أنهم يزيدون على المائة ألف، والعرب يحذفون الكَسْر في الأعداد، ويقتصرون على ذِكر الأعداد الصحيحة، والقرآن إنما نزل بلغتهم، وطريقتهم في التعبير، فاكتفى بذكر المائة ألف لأنه عدد صحيح، وأخبر، أنهم يزيدون على ذلك، ولكن لا يوفون مائة ألف أخرى. والواو حرف عطف، ولا يقتضي الترتيب والبعديّة، فقد يكون المعطوف سابقٌ للمعطوف عليه، أو وقع معه، أو وقع بعده، والمعطوف هنا وقع قبل وبعد التقام الحوت، كون الله أرسله إليهم قبل أن يلتقمه الحوت، وبعد أن لفظه الحوت.

قال تعالى في سورة البقرة: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قوله: {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَ}. أي: مهدمة، لم يبقى سوى أساساتها.

وقوله: {لَمْ يَتَسَنَّهْ}. أي: أي: لم يتغيّر.

وقوله: {وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}. أي: أن الله تعالى جمع العظام أمامه وكساها لحماً ثم أعاد الجسد إلى الحياة.

ولكن ما المراد بالإحياء هنا، الرجل أم الحِمار؟

والجواب: الراجح أن المراد بذلك هو الحِمار، أي: أن الحمار هلك وأكل الدود لحمه، وتفككت عظامه، فلما بعث الله الرجل، أراه كيف يحيي الحمار من جديد.

والدليل على ذلك، أن الرجل أُقيم بعد أن بعثه الله من الموت، فسأله الله بواسطة ملائكته: كم لبثت؟ فقال: يوماً أو بعض يوم. أي: أنه لم يشعر بالوقت، ولم يلحظ في نفسه ما يدل على طول مكثه، فأراه الله تعالى طعامه لم يتغيّر، ثم أراه الحمار قد هلك، وأحياه أمامه.

ومثل هذه الحادثة لا تقع إلّا لنبي، ولم يذكر الله تعالى من هو هذا النبي، ومن هم قومه، إلّا أن الشواهد التاريخية، المذكورة في كتب اليهود، تدل على أن المراد بذلك، هو عزير عليه السلام.

فرواة اليهود يذكرون في تاريخهم، أن عزيراً كان هو المسؤول عن إعادة إعمار مدينة القدس بعد دمارها على يد بخت ناصر ملك بابل، وإجلائه لليهود إلى العراق، فلما قضى الفرس على

دولة البابليين، أذنوا لليهود بالعودة إلى القدس، وأمدّ ملك فارس عزيراً بالمال ليعيد بناء مدينة القدس.

ومما سبق، يتّضح أن رواة اليهود قد عبثوا في تفاصيل الخبر، بسبب ما يقع للرواة من أوهام، والذي يظهر لي وأراه صواباً: أن عزيراً عليه السلام، كان من ضمن من نجى من الغارة البابلية على مملكة اليهود، ولم يتم أسره مع من أسر إلى بابل، فيظهر أن عزيراً استقرّ فيما بعد بأهله في موضع خارج القدس، فخرج على حماره ومعه زاده ليتفرّج على أطلال المدينة، وهناك تعجب كيف يحيي الله هذه المدينة، بعد أن تمّ تدميرها كل هذا الدمار، فلما نزل للراحة ولتناول طعامه، أماته الله، فمرَّت دولة البابليين، وانهارت على أيدي الفرس، وأذن الفرس لليهود بالعودة إلى بلادهم الأولى، فرجع كثير منهم، ولم يبقى على قيد الحياة ممن أدرك السبي، إلّا النزر اليسير، فعاد اليهود وأعادوا بناء مدينتهم القدس، وعزير في موضعه لا أحد ينتبه له، حتى عادت القدس مثل ما كانت عليه أو أحسن من ذلك، وهنا بعث الله تعالى عزيراً ليريه كيف أحيا تلك القرية.

والسؤال هنا: هو كيف عرف اليهود أنه عزير الذي كان حيَّاً قبل مائة عام؟

والجواب: لا شك أن ممن رجع إلى القدس من العراق، من عاش أيام السبي، وكان يعرف عزيراً، وقد يكون من قرابته أو أصدقائه، وهو من شهد له بأنه عزير.

والله وحده أعلم بالصواب.

ومما يدل على أن هذا النبي هو عزير عليه السلام، ما حكاه الطبري عن عبدالله بن عباس ومولاه عكرمة والضحاك بن مزاحم وقتادة بن دعامة والربيع بن أنس، أنه عزير. وهذا أصحّ الأقوال.

وقال تعالى في سورة التوبة: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ}.

وهذا من تعظيمهم لعزير.

وذلك أن التوراة فقدت، لما لحق نسخها من الإحراق، وما لحق أحبار اليهود من القتل، حتى لم يتبقى منها شيء، سوى الآيات القلائل التي يحفظها بعض علمائهم، ولم يكن فيهم من كان

يحفظ التوراة جميعاً عن ظهر قلب، فأملاها عليهم عزير من حفظه كاملة، لذلك عظم في نفوسهم، وكانوا يصفونه في تاريخهم، بكاتب شريعة الربّ الكامل.

وبسبب موته مائة عام، وحفظه للتوراة وإملاءه لها من صدره، وقد فقدت، غلا فيه بعض اليهود، فزعموا أنه ابن الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، ما اتخذ صاحبة ولا ولد.

ولأن عزيراً كانت له مكانة سامية عند اليهود، ولأنه أدرك عودة اليهود إلى القدس، فقد نسبوا إليه أنه هو من أعاد القدس، ولأن ملك فارس هو من دعم اليهود معنويّاً واقتصاديّاً، لإعادة إعمار القدس، فقد جعلوا عزيراً، هو من تولّى ذلك كله، وهذا ليس بصحيح.

وعزير اسم عربيّ، مشتق من التعزير. وله في اللغة معانٍ عِدّة، فهو يأتي على معنى التعظيم والتوقير، ويأتي على معنى المنع، ويأتي على معانٍ أخرى.

قال تعالى في سورة آل عمران: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ}. فيه إشارة إلى أن عمران، وهو والد مريم، وجدّ عيسى ويحي عليهما السلام، كان نبيّاً، لأن الله تعالى، ضمّ اسمه إلى أسماء الأنبياء، آدم ونوح وإبراهيم.

والدليل على أن عمران المراد به هنا، هو عمران والد مريم أم عيسى المسيح عليه السلام، هو أن الله تعالى أردف ذلك بخبر امرأة عمران وابنتها مريم، أم نبي الله عيسى، فتبيّن أن عمران المراد به هنا، هو والد مريم، أم نبي الله عيسى عليه السلام.

وعمران، اسم عربيّ، مشتق من الإعمار، وهو البناء والإصلاح.

ولم يرد في القرآن أو السنة أو كتب أهل الكتاب ذكر شيء عن نسب عمران والد مريم، بل إنهم لا يعرفون اسم والد مريم عليها السلام، ويضعون لها نسباً من عندهم، حيث يزعمون أن اسمها: مريم المجدليّة، نسبة إلى مدينة مجدل، وهي قرية تقع في أقصى الشمال الغربي لمنطقة سيناء، وكل هذا كذب وتزوير، فمريم أم عيسى، هي مريم بنت عمران، وعمران هو أبوها، وليس أبا موسى وهارون النبيّان، كما قدّمت في خبر موسى وهارون عليهما السلام.

وعمران والد مريم أم عيسى المسيح من بني إسرائيل، والنصارى أدلوا بما يفيد أن عمران والد مريم، من نسل هارون النبيّ، حيث يزعمون أن زوجة زكريّا وهي أخت مريم، من نسل هارون النبي، بصحة ذلك.

وأما النسب المذكور لعمران والد مريم أم عيسى المسيح، في كتب التاريخ الإسلامي، هي من وضع قصّاص المسلمين وأكاذيبهم.

وأما موضع سكناهم، فيزعم رواة النصارى، أن عمران وزكريا وذويهما، كانوا يقيمون في منطقة يهوذا الجبلية، وتحديداً في بيت لحم، ولكن هذا القول فيه نظر، لأن الأنبياء إنما يبعثون في أمّهات القُرى، وأمّ قرى الشام في ذلك الوقت، كانت القدس، لذلك، فإن القول بأن عمران وزكريا وذويهما، كانوا يقيمون في القدس، هو الأرجح.

يعضد ذلك، أن الصابئة يقولون: بأن يحيى عليه السلام، كان يقيم في القدس، وهذا يؤكّد ما رجّحته.

وفي السُنَّة النبويّة، ما يؤيّد ما ذكره الصابئة، فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه الحارث الأشعري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات؛ لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرفات" .. الحديث. فالشاهد من هذا الخبر، هو قوله: "فجمع الناس في بيت المقدس". مما يُشير إلى أن يحيى وعيسى كانا يقيمان هناك، مما يعني أن ذويهما أيضاً كانوا يقيمون هناك.

وقوله: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ}. أي: بعضهم من سلالة بعض، فعمران من سلالة إبراهيم، وإبراهيم من سلالة نوح، ونوح من سلالة آدم.

وقوله: {مُحَرَّرًا}. أي: محرّراً من أعمال الدنيا، مفرّغاً لعبادتك، والقيام بخدمة المسجد.

وقوله: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}. أي: لم يكن سبحانه في حاجة إلى أن تقول بأنها وضعتها أنثى، لأن الله تعالى هو سبحانه من خلقها أنثى، ويعلم أنها أنثى.

ثم قال تعالى في سورة آل عمران، في خبر مريم عليها السلام: {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}.

وقوله: {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}. لأن أباها عمران عليه السلام كان قد توفي وهي حمل في بطن أمها، ولا بدّ لها من كافل يكفلها، يقوم بالإنفاق عليها ورعايتها.

ولم يذكر عن نسب زكريا في كتب اليهود والنصارى، إلّا ما ذكره رواة النصارى من أنه من ولد رجل من ولد هارون النبي يدعى: أُبيّ. ويذكر رواة اليهود، أن أُبيّاً هذا، عيّنه داود النبي لخدمة المسجد الأقصى، حيث يذكرون أن النبي داود، عيّن أناساً لخدمة المسجد الأقصى، وقسمهم إلى أربع وعشرين فرقة، وكان على كل فرقة من هذه الفرق، أن تقوم بالخدمة في المسجد مدة أسبوع، ما عدا أيام الأعياد الكبرى، التي كانت تشترك فيها كل الفرق مع بقيّة الناس في الاحتفال.

وزكريّا اسم عربيّ، مشتق من الزكَر، بالفتح، وهو الملآن أو المجتمِع، يقال: زَكَر الإناء، أي: ملأه. وتقول العرب: ماعز حمراء زَكْريَّة، أي: أن لونها امتلأ حمرة.

وقوله: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ}. أي: دخل عليها في مسجدها، ويظهر أنه كان له موضع في المسجد، تقيم فيه، تخدم المسجد، وتعود إليه للصلاة والتسبيح والتهليل.

وقوله: {وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا}. أي: طعاماً وشراباً.

وقوله: {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ}. أي: رزق رزقها الله تعالى، ولم يبيّن الله تعالى من أين يأتيها هذا الرزق، وهل هو رزق تأتيه به الملائكة، أم صدقات كانت تأتيها من صالحي عباد الله.

وقوله: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ}. أي: لما رأى الله تعالى يرزق مريم، ازداد يقيناً بالله تعالى، ولكونه حرم الولد، دعا الله تعالى أن يرزقه ولداً.

وقوله: {وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ}. أي: يصلي في مسجده الذي اتخذه لنفسه لقيام الليل وصلاة النوافل.

وقوله: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى}. ويحيى اسم عربيّ، مشتق من الحياة، والصابئة، يزعمون أنهم تلاميذه، ويزعمون أنه أنزل عليه كتاب اسمه: الكنز العظيم، وهذا باطل، فليس ليحيى كتاب سوى التوراة الذي أنزله الله على موسى، والزبور الذي أنزله الله على داود، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، عليهم السلام. وقد نظرت في هذا الكتاب وتمعنته، فتبيّن لي، أنه وضع بعد يحيى، لأنه يشير إلى نهري النيل والفرات، ويحيى لم يعش هناك، بل عاش في القدس، مع والده، بإقرار الصابئة أنفسهم، فتبيّن أن هذا الكتاب، وضعه بعض أحبار الصابئة عندما انتقلوا إلى العراق.

ويذكر الصابئة أن يحيى، كان يلقّب يوحنّا، أي: ذو الحنان، وقد غلب لقبه على اسمه عند رواة اليهود والنصارى، فنجد يوسيفوس اليهودي في تاريخه، وكُتّاب الأناجيل النصارى، يسمّونه: يوحنّا.

وقوله: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ}. أي: مصدقاً بعيسى عليه السلام، وبنبوّته، لأن عيسى هو كلمة الله. وهذا يُفيد، أن يحيى عليه السلام، كان ملزماً بالعمل بالتوراة، ما لم تنزل آية من الإنجيل، فعندئذ يدع ما ورد في التوراة، لِما نزل من الإنجيل.

وقوله: {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً}. أي: إن كانت البشارة منك يا الله، وليس من تلاعب الشيطان، فاجعل لي آية أعلم بها صدق هذه البشارة.

وقوله: {قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا}. أي: آية ذلك، أنك لا تستطيع الكلام مع الناس، إلا إشارةً.

وقال تعالى في سورة مريم: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}.

قوله: {نِدَاء خَفِيًّا}. أي: دعا الله تعالى في خلوة من الناس، بينه وبين الله.

وقوله: {وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}. أي: كبرت سنّه، وكبير السنّ تضعف عظامه ويشيب رأسه.

وقوله: {وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا}. أي: أنك كنت دائماً تجيب دعائي.

قوله: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي}. وإنما قال ذلك، لأنه لم يكن يثق بالناس تجاه دين الله تعالى، وخشي أن يلي هذا الأمر من لا يخاف الله فيه، فيفسد على الناس دينهم.

وقوله: { لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا}. قيل معنى السمّي هنا: المثيل والشبيه، أي: لم تلد العواقر مثله في حكمته وحنانه وزكاته وتقواه. وقيل: بل معنى السمّي هنا مطابقة الاسم للاسم، أي: أن يحيى هو أول رجل تسمّى بهذا الاسم، وهذا فيه ردٌ على رواة اليهود، الذين يزعمون أن من أشرافهم من تسمى بهذا الاسم، قبل يحيى بن زكريا.

وقوله: {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}. أي: جاوزت الحدّ في كبر السن، والعتوّ، هو: المجاوزة للحدّ.

وقوله: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. أي أشار إليهم أن يسبحوا الله تعالى بكرة، وهو أوّل النهار، وعشيّاً، وهو أخر النهار.

وقوله: {خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}. أي: خذ الكتاب بجدّ وعزم وحزم، والكتاب المراد به هنا: التوراة، وقيل الإنجيل، الذي ينزل على عيسى عليه السلام، والصواب: أن يحيى كان مأموراً أن يأخذ بما في التوراة، حتى إذا نزل شيء من آيات الإنجيل، لزمه أن يأخذ بما أنزله الله تعالى على عيسى، فلفظ الكتاب في هذه الآية، يشمل الكتابين.

وقوله: {وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً}. أي: أن الله تعالى حنّ عليه، أي: رحمه ولطف به، وزكاة، أي: طهارة، أي: طهّره من الذنوب والمعاصي.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.

قوله: {لا تَذَرْنِي فَرْدًا}. لا تدعني وحيداً بلا وارث.

وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}. أي: أن من أسباب استجابة الدعاء، أو سرعة استجابة الدعاء، هو كثرة الأعمال الصالحة.

ثم قال تعالى في سورة مريم: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ

فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}.

قوله: {انتَبَذَتْ}. أي: ابتعدت، والنبذ هو الإلقاء، والانتباذ هو الابتعاد.

وقوله: {مَكَانًا شَرْقِيًّا}. أي: أن المكان الذي ابتعدت إليه، يقع شرقاً عن منزل أهلها، والمراد به هنا، محرابها الذي خصّصته لنفسها في المسجد، للصلاة والإقامة.

وقوله: {فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا}. أي: ساتراً لا يراها الرجال، ولم يبيّن الله تعالى ما هو هذا الحجاب، هل هو من قماش أو خشب أو جدار. وإن كان الراجح أنه من جدار.

وقوله: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا}. يقال: هو جبريل عليه السلام.

وقوله: {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}. أي: تجلى لها في صورة رجل من الإنس.

وقوله: {فَحَمَلَتْهُ}. أي: حملت بعيسى.

وقوله: {فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا}. أي: ابتعدت به مكانا بعيداً عن منازلهم.

وقوله: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ}. أي: كانت تسير حتى جاءها المخاض، فوجدت نخلة قريبة منها، فجلست تحتها.

وقوله: {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا}. أي: ابنها بعد أن ولدته.

وقوله: {أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}. والسريّ هو الجدول من الماء.

وقوله: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}. أمرها الله تعالى بالأخذ بالأسباب حتى في هذا الموقف.

وقوله: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}. أي: تصوم عن الكلام، فلن تتكلم بشيء. أراد الله تعالى أن يتكلم الطفل، ويبرأها من الفاحشة، ويكون آية لبني إسرائيل.

وقوله: {يَا أُخْتَ هَارُونَ}. أي: كان لها أخٌ اسمه هارون، وليس هو هارون بأخي موسى ولا مريم بمريم أخت موسى، ولكن تشابهت الأسماء، حيث كان بنو إسرائيل يسمون أبناءهم بأسماء أنبيائهم وصلحائهم.

عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون يا أخت هارون، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال : "إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم" اهـ

رواه مسلم.

ولكن أهل الكتاب من اليهود والنصارى خلطوا بين الأسماء والأنساب، فلما كان لمريم أم عيسى المسيح أخو اسمه هارون، ظنوه هارون النبي أخو موسى، فجعلوا عمران والداً لموسى وهارون النبيان، وهذا التخليط منهم وقع قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقبل نزول القرآن.

قلت: وما ورد في كتاب الله عزّ وجل من خبر ميلاد عيسى المسيح عليه السلام، يثبت وبجلاء، أن ما ورد في جميع الأناجيل الخمسة، متى ومرقس ولوقا ويوحنّا وبرنابا، عن خبر ميلاد عيسى المسيح، كلّها كذب، ومن وضع القصّاص، وهذا يفيد أن هذه الأناجيل، بما فيها إنجيل برنابا، لم تكتب من قبل أصحاب عيسى عليه السلام، ولا علاقة لهم بها، بل كلها تستمد معلوماتها، من كتاب وضعه أحد قصّاص النصارى، لربما وضعه بعد رفع عيسى عليه السلام بسنين طويلة، وربما واضع هذه السيرة، لم يلق عيسى، ولا أصحابه ولا أصحاب أصحابه، ولا حتى أصحاب أصحاب أصحابه، بمعنى أنه مضت أجيال كثيرة، بينه وبين عيسى عليه السلام، وإنما نقل سيرته من قاصٍّ لم يكن حريصاً على حفظ القَصَص، لأنه إنما كان يروي القَصَص للمتعة والتسلية، ولم يكلّف كاتب السيرة نفسه للتثبّت مما رواه له ذلك القاص، الذي روى قصة ميلاد لعيسى المسيح لم تقع إلّا في مخيّلته، فجاء كُتّاب الأناجيل الخمسة، ونقلوا ما في تلك

السيرة في كتبهم، ونحلوها بعض أصحاب عيسى عليه السلام، ليعطوها الصِبغة الشرعيّة، وتلقى رواجاً بين العامّة.

وهذه الأناجيل، ليست هي إنجيل عيسى عليه السلام، فإنجيل عيسى عليه السلام، كتاب أمر ونهي، وشرائع، ومواعظ، ووعد ووعيد، وهذه الكتب، ليست سوى كتب كُتِبت لتدوين سيرة عيسى عليه السلام، فهي كتب سِيَر وتاريخ، ولكن لما فقد كتاب الإنجيل، ولم تبقى منه نسخة، ظنّ الجهلة أن هذه الكتب، هي إنجيل عيسى، لذلك فإن تسميتها بالأناجيل، خطأ شنيع.

ثم قال تعالى في سورة آل عمران: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ}.

قوله: {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}. أي: أن أحبار اليهود، اقترعوا أيهم يكفل مريم، فقرعهم زكريا.

عن عكرمة مولى عبدالله بن عباس قال: ألقوا أقلامهم فجرَت بها الجِرْية، إلا قلم زكريا اصّاعدَ، فكفلها زكريا.

رواه الطبري.

وعن الربيع بن أنس قال: ألقوا أقلامهم – يقول: عصَّيهم – قال: فألقوها تلقاء جِرْية الماء، فاستقبلت عصا زكريا جِرْيةَ الماء، فَقرَعهم.

رواه الطبري.

قلت: كانت الأقلام في ذلك الوقت، عبارة عن عِصِيَ، طولها شِبْر، يحدّون رؤوسها بالسكاكين، حتى تصبر مُدَبَّبَة، ثم يغمسون رؤوس عِصِيِّهم المدبَّبة في الحِبْر.

وعن قتادة بن دعامة قال: كانت مريم ابنة إمامهم وسيّدهم، فتشاحّ عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا فيها بسهامهم أيُّهم يكفلها، فقَرَعهم زكريا، وكان زوجَ أختها.

رواه الطبري.

قوله: {بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}. أي: بأمرٍ منه، حيث قال له: كن فكان. من غير أبّ.

وقوله: {اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}. أي: هذا اسمه الذي اختاره الله له.

وعيسى اسم عربيّ، مشتقٌ من العَيْس، وهو اسم لون عند العرب، وهو اللون الأبيض المشرئب بشقرة، لذلك تسمي العرب الإبل البيض: العِيْس، ويقال للذكر: أعيس، وللأنثى عيساء. وربما

اشتق اسم عيسى من العسّ، وهو البحث، يقال لمن كان يعسّ شيئاً: عاسّ، وجمعه: عسس وعُسوس.

وقد بيّنت سابقاً، أن اشتقاق هذا الاسم عربيّ بإقرار رواة اليهود والنصارى، في ذكر عيسى بن إسحاق عليه السلام، مما يرد على من زعم أن هذا الاسم، وغيره من أسماء الأنبياء ليست عربيّة، ولا يجوز البحث لها عن اشتقاقات في العربية!

وفي اللغة الإنجليزية يسمون عيسى: جيسى، بحيث يبدلون العين جيماً، وهذا بسبب عجمتهم، وعدم تمكنهم من لفظ الاسم بلفظه الصحيح، ثم يضيفون الواو والسين للتعظيم، كما هي عادة اليونان، فيقولون: جيسوس.

والنصارى يسمّون عيسى أيضاً: يسوع، وهذا من تخليطهم، وربما يكون يسوع لقب لعيسى عليه السلام، فغلب لقبه على اسمه عند رواة اليهود والنصارى، فظنوه اسمه، كما ظنّوا أن اسم يحيى، يوحنّا.

ومعنى يسوع في العربية، الساعي، ولكن رواة النصارى، يزعمون أنها لفظة عبرانية، تعني: المخلّص، ولا أُراه إلّا من تحريفهم للمعاني.

ولقّبه بالمسيح، لأنه كان يمسح على مواضع المرض والجرح من جسم الإنسان فيبرأ بإذن الله تعالى، آية أعطاه الله إياها، ليثبت بذلك صدقه فيما ادعاه من النبوّة.

وقوله: {وَجِيهًا}. أي: شريفاً عظيماً.

وقوله: {وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}. أي: مقرّب من الله تعالى.

وقوله: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً}. أي: يكلم الناس في مهده ببراءتكِ، ويكلم الناس كهلاً إذا هبط في أخر الزمان، وهذا دليلٌ على أن عيسى إذا هبط يبلغ سنّ الكهولة.

وقوله: {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}. وهذه هي الآيات التي أعطاها الله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام، وهي

أنه يخلق من الطين على صورة الطير، فينفخ فيه فيتحوّل إلى طيرٍ حقيقي، ويبرئ الأبكم والأبرص، بدون علاج، إنما يمسح عليهم فيبرؤون، ويحيي الموتى، حياة حقيقيّة، وينبئهم بما سوف يأكلون، وما يدّخرون في بيوتهم.

وليس هذا من السحر أو الكهانة في شيء، ذلك أن السحر لا يحيل الأشياء عن حقيقتها إلى حقيقة أخرى، إنما السحر تخييلات تحدثها الجنّ في أبصار الناس، ثم تعود تلك الأشياء إلى حقيقتها إذا زال تأثير الجنّ، كما أن السحرة والكهنة لا يستطيعون أن يبرؤوا أحداً إلّا بالأسباب التي وضعها الله تعالى في الأرض، من أدوية، فالساحر والكاهن يعتمدون على الجن في معرفة دواء علّة الشخص، وأما عيسى فهو إنما يبرء المرضى بمجرد المسح على مواضع العلة منهم، فينشطون كأن لم يكن بهم بأس، ويبعث الموتى حقيقة، بحيث يرد الله تعالى إليهم أرواحهم فيقومون أحياءً حقيقة، وهذا ما لا يقدر عليه الساحر والكاهن، حيث أنهم إنما يصوّرون شياطين الجن في صور الموتى، فيظن الناس أن الميّت بعث من قبره.

فإن قال قائل كيف أفرّق بين آيات الأنبياء التي يهبها لهم ليثبتوا بذلك صدق نبوءتهم، وبين دجل السحرة والكهان؟

والجواب: يمكن معرفة ذلك من خلال أمرين:

الأول: أن الأنبياء مقيمون لأمر الله تعالى، دعاة للخير، مغاليق للشر، كل أعمالهم في الخير. والساحر والكاهن بخلاف ذلك، فهم أول من يَدَع أمر الله، باستخفافهم بأداء ما افترض الله عليهم، وركوبهم ما حرّم عليهم، وتجد أعمالهم فيها شرٌّ كثير، مما يلحق الناس منهم من ظلم وعدوان.

والثاني: أن سحرهم إنما هو أوهام وتخيلات، وهذا خلاف ما أوتي موسى وعيسى، حيث أن ما يفعلونه، يحيل الأشياء من حقيقتها إلى حقائق أخرى، ولهذا التقفت عصا موسى عصيّ السحرة، وهذا مستحيل في قانون السحر، وكذلك عيسى كان يخلق للناس كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً حقيقةً لا وهماً وتخييلاً. وكذلك في ادعائهم علم الغيب، فالنبي مستحيل أن يقول

سوف يقع في المستقبل أمر ثم لا يقع، بينما الكاهن يقول أشياء كثيرة ولا تقع، بل نادراً ما يقع ما يقول.

وكذلك يمكن معرفة الفارق بين الكرامات التي تقع للولي الصالح، وبين شعوذة السحرة والكهّان.

فأولاً الكرامة لا تقع للولي بمحض إرادته ومشيئته، بل تقع بغير إرادة منه أو مشيئة، وتقع له عند الضرورة إكراماً له، ولذلك سمّيت كرامة، لأنها كرامة من الله لهذا الرجل الصالح، عندما يقع في مأزق، أو يحتار في أمر. وأما إذا ادّعى رجل أنه ولي صالح، واستشهد على ذلك بأنه صاحب كرامات، وأنها تقع متى أراد ومتى شاء، فهذا دجّال ساحر كاهن.

وثانياً: تمسُّك الولي بكتاب الله المنزل وسنن الأنبياء، لا تجده يخالفها، ويجتهد في اقتفائها والعمل بها، فإن وجدت خلاف ذلك، فاعلم أنه دجال، وليس بوليٍّ صالح.

وقوله: {قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ}. أي: من ينصرني لأبلغ دين الله، الذي من عمل به وصل إلى الله.

وقوله: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ}. لقّبهم الله بالحواريّين، لنقائهم، وكل شيء نقي فهو حواريّ، ويقال للأبيض، لأنه نقي: حواري، لذلك يسمى التراب الأبيض، والدقيق الأبيض، حواري، ويطلق على الصاحب حواري، لأنه نقيٌ لصاحبه.

وقوله: {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}. أي: أرادوا أن يقتلوا عيسى ليطفئوا نور الله تعالى، إلا أن الله تعالى مكر بهم، ورفعه إليه، وهيئَ لهذا الدين من ينصره رغماً عنهم.

وقوله: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}. الوفاة هنا ليست بمعنى الموت، بل بمعنى الاستيفاء، أي: أن عيسى استوفى مدّته الأولى في الدنيا، وهو راجع بإذن الله ليستوفي مدته الأخرى.

وقوله: {وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}. أي: رفعه إلى السماء الثانية، فكيون أقرب لله منه وهو على الدنيا.

وقوله: {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}. أي: مطهرك من أن يمسوك بسوء.

وقوله: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}. أي: ناصر دعوتهم ومظهرها، وإن أصابهم في الدنيا من الضرّ ما أصابهم، فإن هذا زيادة في أجورهم عند الله تعالى.

وهذا يعني أن أصحاب عيسى عليه السلام، خرجوا إلى الدعوة إلى الله تعالى، وأنه أتبعهم خلق كثير، وكانوا على الدين الحق زماناً، وكانت لهم القوة والمنعة، خِلافاً لما ورد في تواريخ النصارى، من أنهم كانوا ضعفة ومغلوبين على أمرهم، وخلافاً لمن يدعي بان الرماد بذلك، ما ظهر من النصرانية على يدي الملك الروماني قسطنطين، فذاك لم يكن على ملة عيسى عليه السلام، بل كان على خلافها، بل عيسى بريء منه، ومن مِلَّته التي كان عليها، فعيسى لم يكن يدعو لنفسه، بل كان يدعو لله الواحد الأحد. وليس كل من ادعى أنه تابع للأنبياء، يكون صادقاً في دعواه، ما لم يكن متّبعاً لهدي الأنبياء. فتبيّن بذلك، أن أصحاب عيسى، استمروا في الدعوة إلى الله، وكثر أتباعهم، وقويت شوكتهم زماناً، ثم تكالب عليهم أهل البدع والضلال من المنتسبين للنصرانية، وسعوا في إفساد العقيدة الصحيحة، حتى غلبت البدع على الناس، وارتكس أكثرهم إلى الوثنية باسم النصرانية ملّة عيسى عليه السلام، فما بعث الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، إلا ولم يبقى على النصرانية الصحيحة سوى النزاع في القبائل والقرى.

وقال تعالى في سورة النساء: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}.

قوله: {وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا}. أي: رموها بالفاحشة، مع ما رأوا من الآيات في براءتها وصدقها.

وقوله: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ}. أي: أنهم لم يقتلوا المسيح ولم يصلبوه، ولكن قبضوا على رجل يشبهه فظنوه هو، فقتلوه وصلبوه.

وقوله: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ}. أي: شكّوا أن يكون هذا الذي قبضوا عليه ليس بعيسى، ولكنهم رجحوا ظنهم بأنه هو، ولم يكن هو، وقتلوه وصلبوه.

وقوله: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}. أي: من اليهود والصابئة والنصارى، من سوف يؤمن به إذا هبط في أخر الزمان، وقبل موته، أي: أن عيسى سوف يموت، وسوف يدفن.

وقال تعالى في سورة المائدة: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}.

وقال تعالى في سورة المائدة: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

قوله: {مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاء}. أي: سفرة فيها طعام، تكون آية لنا، لنزداد بها إيماناً بك وبدعوتك.

وقال تعالى في سورة الزخرف: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}.

قوله: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ}. أي: إشارة إلى قرب قيام الساعة، عندما يهبط في أخر الزمان لقتل المسيح الدجّال.

وقال تعالى في سورة الحديد: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}.

قوله: {مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}. أي: ما فرضناها عليهم، فمعنى الكتابة هنا، أي: الفرض.

وقوله: {إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ}. أي: إنما أرادوا ببدعتهم هذه ابتغاء رضوان الله.

وقوله: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}. أي: أكثرهم اتخذها سبيلاً للرياء والسمعة. فمن ترهبن لله أعطاه الله أجراً، ومن ترهبن للرياء والسمعة، فهو من الفاسقين.

وقال تعالى في سورة الصف: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}.

قوله: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}. وهذه البشارة موجودة في سيرة عيسى عليه السلام، ولكن تلميحاً لا تصريحاً، وهذا يدل على ما سبق، أن السيرة المعروفة اليوم بالإنجيل، ليس هي الإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى، لأنه لا يوجد تصريح باسم النبي محمد في هذه السيرة.

وقال تعالى في سورة الصف: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}.

وبرفع عيسى عليه السلام انقطعت النبوّة من بني إسرائيل، وصار تلاميذه يعرفون بالمسيحيين وبالنصارى، فقيل لهم المسيحيون، نسبة إلى المسيح، وقيل لهم النصارى، لأنه لما شعر عيسى أن اليهود كفروا به، دعا الناس إلى نصرة الله ونصرة دينه، فلم يجبه أحد، فقال أصحابه: نحن أنصار الله، أمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون. فقيل لهم: النصارى.

فخرج تلاميذ عيسى عليه السلام يدعون إلى دين الإسلام، وإلى العمل بما جاء في الإنجيل، الذي أنزله الله عز وجل على عيسى عليه السلام، فاتَّبعهم خلق كثير، وكانوا على التوحيد زماناً، حتى ظهر فيهم علماء الضلالة ودعاة الزندقة باسم الإسلام، وباسم المسيح عيسى عليه السلام.

ولكون خلق عيسى عليه السلام تم من غير أب، وإنما بالكلمة، حيث قال الله تعالى: كنّ فكان عيسى، لذلك كان أكثر اختلافهم في ماهية عيسى وطبيعته، إذ نظروا إليه على أنه غير بشر، أو على الأقل ليس بشراً مكتمل الآدميّة، وبما أنه أو جزء منه غير بشري زعموا أن عيسى إله، أو أنه ابن الإله، بينما قالت طائفة أن الإله تجزأ إلى ثلاثة أجزاء، هو الأب وهو عندهم الله تعالى، وابن الإله، وهو عندهم عيسى عليه السلام، والروح القدس، وهو جبرائيل عليه السلام، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وكل هذا من وحي الشيطان وتحريضه.

وقد انتشرت هذه المذاهب الكفريّة بين النصارى في وقت مبكر، وذلك من طريق علماء الضلالة، ودعاة الزندقة، وبتزيين من الشيطان وتحسين منه لهذه البدعة، حتى أن هؤلاء الدجاجلة حرفوا بعض نصوص الإنجيل ليؤكدوا على أن عيسى إله أو ابن إله، مستغلين ثقة الناس بهم،

ومستغلين للوضع العلمي السائد في ذلك الوقت، إذ كان أكثر الناس في تلك الأزمنة أمّيين، لا يحسنون القراءة والكتابة، ولا يعرفون من تعاليم دينهم إلّا ما أملاه عليهم علمائهم الذين يثقون فيهم، ويقلدونهم إياه.

إلا أنهم أخيراً استقروا على القول بأن الله تعالى وتقدس وتنزه عن كذبهم، تجزأ إلى ثلاثة أجزاء، تمثلت في الأب والابن والروح القدس، وذلك أن أحد ملوك الروم ويدعى: قسطنطين، دان بالنصرانية، وآمن بهذا المذهب، وأجبر النصارى عليه، واستباح دماء من خالفه، فدخل النصارى في هذا المذهب راغبين وراهبين، مع بقاء كثير من النصارى على الإسلام دين عيسى عليه السلام، والذين أخذوا يدعون الناس إلى الحق، وإلى دين الإسلام، وإلى الإنجيل الصحيح الذي لم يبدل ولم يغيّر، ولكن أكثر الناس إما غير مبالين ولا يهتمون بالأمر أصلا، فهم مشغولون بما هو عندهم أهم من هذه المسائل، من السعي خلف أرزاقهم، وجمع الأموال، ورضي بما وجد عليه علماء أهل بلده، أو نظر إلى الأكثرية وأتبعهم، بحجة أنه لا يعقل أن يكون الأكثرية على باطل، والأقليّة على الحق، وبعضهم علم الحق ولكنه أعرض عنه، لأن في اتباعه للحق غضاضة عليه في مكانته أو في معيشته، فآثر ركوب الموجة حتى لا يخسر دنياه.

وقد بقيت النصرانية في تعاليمها العتيقة، وصبغتها الإسلامية الصحيحة، إلى قريب مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنها كانت قد أوشكت على الزوال، إذ لم يكن يعتنقها في الحقيقة سوى النزاع في القبائل والقرى.

وأما يحيى عليه السلام فقد توفي مقتولاً، وقد قتل في الزمن الذي رُفِع فيه عيسى إلى السماء، قال يوسيفوس مؤرخ اليهود والمتوفى سنة مائة للميلاد، في تاريخه في ترجمة أنطيغوس اليهودي، حاكم القدس، من قبل الرومان: "وكان مسرفاً في النسوة والمعاصي، وهو الذي أخذ امرأة فيلبس أخيه وهو حيّ، وله منها ولدان، واسم المرأة هيروديا، فلما أنكر علماء اليهود وأئمتهم عليه ذلك، قتل منهم جماعة كثيرة، وقتل يوحنا بن زكريا، الحَبر الأعظم، والكاهن الأكبر، لما أنكر عليه أخذ امرأة أخيه" اهـ

وأما والده زكريّا عليه السلام، فيُعْتَقد أيضاً أنه مات مقتولاً، ولكن لا أحد يعلم بالتحديد متى قتل، ولكن الراجح أنه قتل قبل ابنه يحيى بسنوات عديدة، ذلك أن زكريا عليه السلام، سأل الله تعالى أن يهب له وريثاً يرث عنه العِلم، ليبلّغه الناس من بعده، فلو قتل زكريا ويحيى في زمن واحد، لما كان يحيى وريثاً لزكريا، مع العلم أن زكريا، لم يذكر له خبر في زمن نبوءة يحيى وعيسى عليهما السلام، مما يدلّ على أنه مات قبل ذلك.

ورواة اليهود والنصارى، يزعمون أن زكريّا النبيّ، ليس هو زكريا والد يحيى، بل رجل يدعى: زكريّا بن عدّو، وهذا قطعاً من أوهامهم وتخليطهم، والذي يظهر، أن زكريا بن عدّو هذا كان حبراً من أحبار اليهود، فظنّه اليهود زكريّا النبي، وتابعهم على هذا النصارى.

ورواة النصارى، يزعمون أن النبي زكريا المقتول، هو زكريّا بن عدوّ، وأنه قتل بين المسجد والمذبح الذي أعدوه لذبح قرابينهم، إما ذاهباً للمسجد أو خارجاً منه.

وبما أنه تبيّن بطلان قولهم، في أن زكريّا النبي، هو زكريّا بن عدّو، فبالتالي، يترجّح أن زكريّا المقتول، هو زكريّا والد يحيى.

وقد ذكر يوسيفوس اليهودي، في تاريخه، أنه سبق الملك أنطيغوس اليهودي، عِدّة ملوك من أسلافه، كانوا كلهم طغاة، وفاسدين، فيظهر، أن الفساد الديني والأخلاقي قد انتشر في عصر هؤلاء الملوك، فأخذ زكريا عليه السلام، يعظ الناس وينهاهم عن السوء، فغضب بعض أهل الشر والفساد من زكريا لذلك، لذلك سعو لقتله، والراجح أنهم لن يقدموا على قتله ما لم يكن لديهم أمرٌ من ملك اليهود، فلما تمكنوا من استصدار الأمر بذلك، بحثوا عنه ليقتلوه، فوجدوه بين المسجد والمذبح، الذي يذبحون فيه قرابينهم، إما ذاهب إلى المسجد أو خارج منه، فقتلوه.

بما أن يحيى وزكريا أدركا عيسى عليه السلام، فهذا يدل دلالة قطعية، على أن توراة موسى كانت محفوظة إلى ذلك الوقت، بنصّها الذي أنزله الله تعالى، بل إن الأدلة الشرعية، تفيد بأن نصّ التوراة والإنجيل، كان محفوظاً إلى زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى في سورة الأعراف: {ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ}. وقوله تعالى في سورة الصف: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}. وهذا يعني، أن التوراة والإنجيل التي كانت بحوزة أحبار اليهود ورهبان النصارى، كانت متضمِّنَة البشارة بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني، أن التوراة والإنجيل، كانت محفوظة إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم عند أحبار اليهود ورهبان النصارى، ولذلك احتج الله تبارك وتعالى عليهم، بما ورد فيهما، من البِشَارة بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن النسخ الأصليّة منها فقدت تماماً بعد زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بمعنى أن الله تعالى رفعها، وسلَّط عليها ما يتلفها ويمحوها.

وذلك أن أهل البدع من اليهود والنصارى، استبدلوا التوراة والإنجيل بكتب يضعونها، يحرّفون فيها كلام الله تعالى وكلام أنبياءه: موسى وعيسى عليهما السلام، ظانين أن ما يقومون به عمل حسن، فأقبل تلامذتهم على نسخ تلك الكتب، وأعرضوا عن تجديد نسخ التوراة والإنجيل، ذلك أن علمائهم كانوا ينهونهم عن قراء التوراة والإنجيل، بزعمهم أن كتب الله المنزلة على أنبيائه لا يمكن فهمها إلا من خلال تفاسيرهم وشروحاتهم، حتى لم يتبقى منها سوى نسخ قلائل، وهذه النسخ، كانت محفوظة عند كبار أحبار اليهود، وكبار رهبان النصارى، إلى زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهي التي احتج الله تبارك وتعالى بما فيها على أحبار اليهود ورهبان النصارى، وبما أن هذه النسخ كانت قلائل، ولا أحد يهتم بنسخها، فقد اهترأت وتمزّقت، ولم يبقى سوى تلك الكتب التي ألفها أحبار اليهود ورهبان النصارى في تاريخ اليهود وسير أنبياء بني إسرائيل،

مع ما اضافوه إلى تلك الكتب، من شرائع نقلوها عن التوراة والإنجيل، ممزوجة بشرائع أحدثوها من تلقاء أنفسهم، فلما فقدت التوراة والإنجيل، ظن علماء اليهود والنصارى مما لم يعلم بوجود تلك النسخ، أن هذه الكتب المحدثة، هي التوراة والإنجيل، وليست هي.

فأما الكتاب الذي يزعمون أنه التوراة، فقد ألف في أزمنة متفرّقة، حيث تشتمل أسفار الكتاب الذي يدعى اليوم بالتوراة، على سِتٍّ وأربعين سِفراً هي: سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية وسفر يشوع (يوشع) وسفر القضاة وسفر راعوث وسفر صموئيل الأول وسفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول وسفر الملوك الثاني وسفر أخبار الأيام الأول وسفر أخبار الأيام الثاني وسفر عزرا وسفر نحميا وسفر طوبيا (طوبيت) وسفر أستير وسفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثاني وسفر أيوب وسفر المزامير وسفر الأمثال وسفر الجامعة وسفر نشيد الأنشاد وسفر الحكمة وسفر يشوع بن سيراخ وسفر إشعيا وسفر إرميا وسفر مراثي إرميا وسفر باروخ وسفر حزقيال وسفر دانيال وسفر هوشع {يوشع}. وسفر يوئيل وسفر عاموس وسفر عوبديا وسفر يونان وسفر ميخا وسفر ناحوم وسفر حبقوق وسفر صفنيا وسفر حجي وسفر زكريا وسفر ملاخي.

فالأسفار الخمسة الأولى، كتبت بعد وفاة موسى عليه السلام، بدليل أنها ذكرت وفاة موسى عليه السلام، وهذا دليل كافٍ على أن هذه الأسفار، لا علاقة لها بتوراة موسى، وإنما هي كتاب تاريخي، إذ كيف يدوّن موسى واقعة موته؟! هذا لا يكون، إلا أن يكون كاتب هذه الأسفار، كان حيّاً بعد وفاة موسى.

وأما بقيَّة الأسفار، فكُتِبت في أزمنةٍ متفرِّقة، في كل زمن، يقوم رواة اليهود، بتدوين فترة زمنيَّة من تاريخهم، ويؤلفون بها سِفراً جديداً.

وكان أخر سِفرٍ تمّ تأليفه، هو سِفر أستير، وقد كتب في زمن الملك خشايارشا الأول، والذي قدر أنه تولى الحكم سنة خمس وثمانون وأربعمائة قبل ميلاد النبي عيسى عليه السلام، وتوفي حدود سنة خمس وستين وأربعمائة قبل الميلاد، كون أسفار الكتاب المقدس، انتهى تقييدها في زمن خشايارشا، ولم يمت بعد.

وأما سِفر المكابيين الأول والثاني، فقد كتب بعد ذلك بزمن طويل، حيث شرع في ذكر بداية حكم الأسرة المكابية لليهود، وانتهى عند خبر هزيمة يهوذا المكابي، لجيوش الدولة الرومانية، التي بعثها ملك الرومان ديميتريوس الأول بن سَلوقَس، والذي قدَّر أنه حكم بين عامي خمس وثمانين ومائة قبل ميلاد عيسى عليه السلام، وإلى سنة خمسين ومائة قبل الميلاد.

وبما أن الملك الفارسي خشايارشا توفي سنة خمس وستين وأربعمائة قبل الميلاد، بينما سفر المكابيين الأول والثاني، يغطي المدة التاريخية التقريبية، من خمس وسبعين ومائة قبل ميلاد النبي عيسى عليه السلام، إلى سنة أربع وثلاثين ومائة قبل الميلاد، فهذا يعني أن هناك فجوة تاريخية كبيرة جداً، بين سفر أستير، وسفر المكابيين الأول والثاني، تقدر بثلاثمائة سنة وعشر سنوات، تعتبر فترة مجهولة في التاريخ اليهودي.

ويظهر أنه لم يأتي مؤرخ أخر، ليكمل تاريخ اليهود، بعد يهوذا المكابي، ويجعله سفراً من أسفار الكتاب الذي يدعى بالتوراة، إلا أن مؤرخ اليهود، يوسف بن غريون، قد أكمل هذا التاريخ إلى زمن بعثة النبي عيسى عليه السلام، وما بعده بيسير، ليقف التاريخ اليهودي هناك، لكن كتاباته لم تُعدّ سفراً من أسفار الكتاب الذي يدعونه التوراة.

ثم إن طريقة تأليف هذا الكتاب، الذي يدعونه بالتوراة، شبيهة بدرجة كبيرة، بالطريقة التي تتم بها تأليف كتب التواريخ، حيث أن كتب التاريخ، تؤلف على ترتيب السنين، الأسبق فالأسبق.

وأما سيرة عيسى بن مريم عليهما السلام، والتي تقدم على أنها الأناجيل الخمسة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا وبرنابا، فيظهر أنها دوّنت بعد وفاة عيسى بعقود طويلة، ونُسِبت إلى هؤلاء الخمسة من أصحاب عيسى زوراً وبهتاناً، ولا أدل على ذلك، من أن قصة ميلاد عيسى في جميع هذه الأسفار، مخالف تماماً لما ورد في القرآن الكريم.

وكتب الله تعالى المنزلة، ليست كتب تواريخ وسِيَر وأنساب، بل هي كُتُب مواعظ، ووعد ووعيد، وأوامر ونواهي، ولا تذكر من قصص الماضين، إلا ما فيه موعظة وعِبرة.

وهذه الكتب التي تُقدم على أنها التوراة والإنجيل، ليس كل ما فيها باطل وكذب، ولكن الأباطيل والأكاذيب فيها كثيرة جداً، لدرجة أنك تعاني وأنت تحاول أن تنتقي منها ما قد يكون صحيحا.

وأما الصابئة، فقد استبدلوا توراة موسى وإنجيل عيسى، بكتاب وضعه لهم كبارهم بالعراق، اسموه بالآراميَّة: الكِنْز رَبَّا، ومعناه بالعربيَّة: الكنز الرابي، أي: الكنز العظيم. وهذا الكتاب، يدّعي الصابئة أن الله تعالى أنزله على نبيِّه يحيى بن زكريّا عليهما السلام، وهذا قول باطل، لأن يحيى لم يُنزل عليه كتاب، بل كان يؤمر بالعمل بما في التوراة، ما لم ينزل شيء من الإنجيل، يخالف حكمه حكم التوراة فإنه مأمور في هذه الحالة، بأن يأخذ بما في الإنجيل، ويدع ما في التوراة.

والدليل على أن الكنز رَبَّا ليس كتاباً سماوياً ولا أُنزل على يحيى، هو كثرة الأخطاء التاريخية فيه، بما يخصّ بدء الخلق ونشأة الكون، وزيادة على ذلك، فقد وردت فيه جملة، تفيد أن هذا الكتاب لم يُصنَّف إلا بعد انتقال الصابئة إلى العراق.

فقد ورد فيه ما نصّه: "يا آدم، لقد أرسلني إليك الحيّ العظيم، لتصعد حيث أبوك يقيم، أعول آدم وبكى، وناح وشكا، وقال للمخلص الذي أتى، يا أبتا، إن أتيت معك، فدنياي من سائسها؟ وزوجتي من يؤانسها؟ وأغراسي التي أنا غارسها من حارسها؟ من يمد إليهم يدا؟ ويكون لهم سندا؟ من يبذر البذور المباركات؟ من يحمل الماء من دجلة والفرات؟ من يعين التي تلِد؟ من يلاقي الذي يفد؟" اهـ

إن قوله: "من يحمل الماء من دجلة والفرات" يفيد أن كاتبه كان يعيش على شواطئ دجلة والفرات، بينما كان يحيى بن زكريا يعيش في القدس، وهذا ما نصّ عليه رواة اليهود والنصارى، والصابئة يوافقونهم على ذلك، حيث زعموا أنه كان يعمّد الناس في نهر الأردن، وقد كان بالقرب من بلاده من الأنهار العظيمة وهي: الأردن والعاصي، ما يغنيه بالإشارة إليهما عن أن يشير إلى نهري دجلة والفرات، اللذين قد يكون يحيى مات ولم يرهما، أو سوف يشير إلى نهري النيل والفرات، كونهما نهران مقدّسان في الإسلام.

والله أعلم وأحكم.

سيرة نبي الله أيوب

قال تعالى في سورة النساء: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}.

وفي هذه الآية، دليل على أن أيّوب نبيّ أوحي إليه.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}.

وقوله: {أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ}. كان قد أصابه ضُرٌّ أوجعه.

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ}. أي: رجعناه إلى أهله، ووهبنا له مثلهم معهم.

وأهل الرجل زوجته، أي: أعاد إليه زوجته، وزوّجه بامرأة أخرى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بينما أيوب يغتسل عريانا، خرّ عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فنادى ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى، يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك".

رواه البخاري.

وفي وراية عند أحمد: "لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادًا من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه قال: فقيل له يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك".

وقال تعالى في سورة ص: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.

قوله: {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}. أي: نال مني الشيطان بالتعب والعذاب، وهو الضُرّ الذي أصابه.

وقوله: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}. أي: أن الله تعالى هيئ له عين ماء باردة، فأمره أن يغتسل منها ويشرب، حتى يذهب الضرّ الذي به، وهذا دليل على أن الضُرّ الذي أصابه، كان مرضاً ألمّ به.

وقوله: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ}. أي: لا تحنث في يمينك، كأن نبي الله حلف أن يضرب شيئاً مائة سوط، ثم ندم على ذلك، فأمره الله تعالى أن يأخذ ضغثاً، والضغث هي عناقيد النخل، التي ينبت منها التمر، ويضرب بها من حلف أن يضربه بها، كي لا يحنث في يمينه.

عن قتادة بن دعامة قال: خذ عودا فيه تسعة وتسعون عودا، والأصل تمام المائة فضرب به امرأته، وذلك أن امرأته أرادها الشيطان على بعض الأمر، فقال لها: قولي لزوجك يقول كذا وكذا، فقالت له قل: كذا وكذا. فحلف حينئذ أن يضربها تلك الضربة، فكانت تحلة ليمينه، وتخفيفا عن امرأته.

رواه عبدالرزاق في تفسيره.

وعن عبد الرحمن بن جُبَير، قال: "لما ابتُلي نبيّ الله أيوب عليه السلام بماله وولده وجسده، وطُرِح في مَزْبَلة، جعلت امرأته تخرج تكسب عليه ما تطعمه، فحسده الشيطان على ذلك، وكان يأتي أصحاب الخبز والشويّ الذين كانوا يتصدّقون عليها، فيقول: اطردوا هذه المرأة التي تغشاكم، فإنها تعالج صاحبها وتلمسه بيدها، فالناس يتقذّرون طعامكم من أجل أنها تأتيكم وتغشاكم على ذلك؛ وكان يلقاها إذا خرجت كالمحزون لما لقي أيوب، فيقول: لَجَّ صاحبك، فأبى إلا ما أتى، فوالله لو تكلم بكلمة واحدة لكشف عنه كلّ ضرّ، ولرجع إليه ماله وولده، فتجيء، فتخبر أيوب، فيقول لها: لقيك عدوّ الله فلقنك هذا الكلام؛ ويلك، إنما مثلك كمثل المرأة الزانية إذا جاء صديقها بشيء قبلته وأدخلته، وإن لم يأتها بشيء طردته، وأغلقت بابها عنه! لما أعطانا الله

المال والولد آمنا به، وإذا قبض الذي له منا نكفر به، ونبدّل فيره! إن أقامني الله من مرضي هذا لأجلدنَّك مئةً".

رواه الطبري.

وهذا خبر متنه لا بأس به، إلّا قوله: "وطُرح في مَزْبَلة" فهي من زيادات الرواة، وتأليفاتهم على الأخبار، ولأي شيء يُطرح في مزبلة، فأين منزله، وهب أن زوجته أخرجته من منزله خشية أن يعديها ويعدي أبناءه، أما كان في أرض الله الواسعة، ما يغنيها عن أن تلقيه في المزبلة!

وقد ذكر أهل الكتاب أيّوب في كتبهم، مع كثيرٍ من التحريف والكذب في خبره، حيث زعموا أنه لم يصبر، وأنه تضجر وجزع، وقد بيّن الله تعالى لنا كذبهم فيما أورد لنا من خبره، للرد عليهم، وبيان افترائهم على نبيه أيّوب عليه السلام.

وأيّوب اسم عربي، مشتق من الأوب، وهو العود والرجوع.

سيرة ذي الكِفْل عليه السلام

قال تعالى في سورة الأنبياء: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ}.

وقال تعالى في سورة ص: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الأَخْيَارِ}.

ولم يخبرنا ربنا تبارك وتعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم شيئاً عن سيرته، سوى أنه نبي من أنبياء الله تعالى، بعثه الله لقومه، ولاقى ما لاقى غيره من الأنبياء من أقوامهم من العنت والإعراض والأذيّة، وأنه صبر كما صبر غيره من الأنبياء.

وأما ما رواه الترمذي في جامعه من أن ذا الكفل كان رجلاً فاسقاً، وأنه تاب في أخر حياته، فأصبح ميّتاً، فهذا خبر بيّن الوضع، واضح البطلان، وإن حسّن الترمذي إسناده، لسببين:

الأول: أن ذا الكفل معدود في القرآن في زمرة الأنبياء، ودل هذا على أنه نبي، والأنبياء يُصطَفون منذ ولادتهم، ومنزهون عن كبائر الذنوب.

والثاني: أن الله ذكره في معرض من لحقه الأذى، وصبر عليه، لله تعالى، ووصفه الله أنه كان من الأخيار، وما ورد في الحديث لا يشير إلى شيء مما ورد في القرآن، حيث يشير إلى أنه كان فاجراً إلى أن دنا أجله، فلم يكن بين توبته ووفاته سوى ساعات قلائل!

بل إن ما وقع من ذي الكفل، يقع عادة من كثير من الناس، فلماذا خُصّ ذا الكفل بهذا الإطراء دون سائر الخلق!

وإنما أثنى الله تعالى على ذي الكفل لصبره وصلاحه، والمذكور في الحديث لم يعرف بصلاح ولا صبر، بل إنه مات حسب زعم الراوي في ليلته التي تاب فيها، فأي صبر أو صلاح كان عليه حتى يستحق المدح، ويقارن صبره وصلاحه بصبر وصلاح أنبياء الله تعالى، هذا محال!

وذا الكفل لقب، والِكفل – بكسر الكاف – في لغة العرب هو الحمل، وذو اسم من الأسماء الخمسة، وتأتي بمعنى: صاحب، أي: صاحب الحِمل.

قال تعالى في سورة مريم: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ}.

ولم يرد عن إدريس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى ما ورد في الآيات أعلاه، ولم يرد عن الله ولا عن رسوله، اسم قوم إدريس، أو الزمن الذي بعث فيه، ولا يعرف من أخباره شيء، سوى أنه كغيره من الأنبياء، بعثه الله إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام، وإلى التقيّد بشرائع الله تعالى، وناله من الجهد والنصب والأذى ما لحق غيره من الأنبياء، وصبر على ذلك كما صبر غيره من الأنبياء، عليهم السلام.

وإدريس مشتق من الدرس، وهو المحو، يقال: درست الشيء، أي: محوته. ويقال لكل قديم: دارس، أي: ماحي، ويقال للمتعلم: دارس. كأنه درس الجهل، أي: محاه. ويقال للترويض: دراسة، فكل ما رضته من دابة أو متاع، فهو دارس، أي: مروّض مذلل معبّد، كأنك درسته، أي: محوت عنه صعوبته. فمعنى إدريس: أي، الماحي.

واختلف في معنى قوله تعالى: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}. هل المراد رفعة المكانة والمنزلة في الدنيا والأخرة، أم أراد بذلك أنه رفع بنفسه.

وإذا كان رفع بنفسه، هل رفع بروحه وجسده، كما رفع عيسى عليه السلام، أم رفعت روحه فقط؟

فأما السؤال الأول: فالله أعلم أيّ ذاك أراد، قد يكون المراد بالآية رفعة المكانة، وقد يراد بها رفع المكان حقيقة.

وأما السؤال الثاني: فإن كان المراد رفع المكان، فالصواب، أن المراد هو رفع الروح دون الجسد، ولذلك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه قابل إدريس في السماء الرابعة، ولا يمكن القول بأنه رفع بجسده، ولا يقاس بعيسى، لأن عيسى عليه السلام، إنما رفع بروحه وجسده، لأنه سوف

ينزل في أخر الزمان، ليكون علامة للساعة، وسوف يموت كما يموت أيّ بشري، ويدفن في الأرض، بينما إدريس لأي شيء يرفع بجسده؟! فهو لن ينزل في أخر الزمان كعيسى.

هل إدريس هو أخنوخ؟ وهل هو هرمس؟

يزعم بعض رواة المسلمين أن إدريس هو أخنوخ.

والذي دفعهم إلى ذلك، هو ما ذكره رواة اليهود، من أن أخنوخ كان نبيّاً بعث قبل نوح عليه السلام، ونسبوا له سفر أسموه سفر أخنوخ.

وورد في هذا السفر أن أخنوخ رفع بروحه وجسده إلى السماوات، فهو بها إلى قيام الساعة!

ورواة اليهود يزعمون أنه كان أباً من آباء نبي الله نوح عليه السلام، وتبعهم على ذلك قصّاص المسلمين!

والصابئة يسمونه: دنانوخت.

وهذا السفر من الواضح أنه موضوع، وضعه أحد وعّاظ اليهود، أو أحد وعّاظ النصارى، لذلك حتى اليهود والنصارى، لم يقبلوا ذاك السفر، لكثرة الأكاذيب التي حشي بها.

مما يرجح أن شخصية أخنوخ أو دنانوخت شخصيّة أسطورية أكثر منها واقعية، أو ربما كان نبيّاً ولكن تم العبث بسيرته من قبل رواة القوم حتى انحرفت بالكليّة.

وقد لا يكون نبيّاً، قد يكون رجلاً، ولا يشترط أن يكون صالحاً، قد يكون صالحاً وعالماً من العلماء، وقد يكون طالحاً ودجّال من الدجاجلة.

وأيّاً يكن، فإن السفر المنسوب له، مختلق، ودعوى أنه رفع إلى السماء بروحه وجسده كذب، ويظهر أن من ادعى ذلك من رواة اليهود، أراد أن ينحل أخنوخ شرف الرفع إلى السماء حيّاً، عوضاً عن عيسى الذي لم يكن معترفاً به من قبل اليهود! بينما نحل يهوديٌّ أخر هذا الشرف – أعني شرف الرفع إلى السماء حياً – إلى إلياس عليه السلام! والحقيقة أنه لم يرفع إلى السماء سوى عيسى عليه السلام، وما رفعه الله إلى السماء حيّاً، إلّا لغاية، فلأي سبب يُرفع أخنوخ وإلياس؟!

ولأن الله تعالى قال عن إدريس: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}. [مريم].

فلما رأى رواة المسلمين أن رواة اليهود يزعمون أن أخنوخ رفع بروحه وجسده، وأن الله قال عن إدريس بأنه رفعه مكاناً عليّا، رجّحوا أن يكون إدريس هو أخنوخ، وأن مراد الله تعالى من أنه رفع إدريس، أي: أنه رفعه بروحه وجسده.

ولا أدلّ على بطلان هذا القول، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث المعراج: "ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به؛ فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إلى إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح".

رواه البخاري وغيره.

والشاهد من الحديث هو قول إدريس للنبي: "مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح" فلو كان إدريس والدٌ للنبي صلى الله عليه وسلم كما يزعمون، لقال له كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام: "مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح" ولكنه لم يقل ذلك، بل قال: "مرحبا بالأخ الصالح" فدلّ هذا دلالة قطعيّة أنه ليس والداً له.

وقد حاول البعض تعليل ذلك، فقال: لعل إدريس قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "مرحبا بالأخ الصالح" من باب التواضع! وأقول: هل من التواضع أن يقول الأب لابنه: مرحبا بالأخ الصالح! هذا لا يعقل ولا يكون.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ.

فرواة اليهود يزعمون أن أخنوخ هذا هو هرمس.

وهرمس لا علاقة له بأخنوخ أو دنانوخت، لأن هرمس هذا، كان تلميذاً لزردشت مؤسس الديانة الزردشتية المجوسية، وزردشت فيلسوف ملحد، نشأ ببلاد العراق، يقال أنه كان من أهل بابل، ودعا الناس إلى عبادة الطبيعة، حيث يزعم أن الإله حلّ في الطبيعة، واتحد معها، وأن الإله هو الوجود والوجود هو الإله، وأمر الناس بتقديس النار، لأنها عنده أعظم الموجودات، وأكثرها

نفعاً، هذا مع كونه كان مشعوذاً دجالاً، وساحراً ممخرقاً، وما دعا الناس إلى نحلته الرديئة، إلا بأمر من شياطينه، وما دعاهم إلى تقديس النيران، إلا طاعة لهم، وتعظيماً لعنصرهم الذي خلقوا منه.

فتلقى هرمس هذا تعاليمه من زردشت، وانتقل إلى مصر، وتنقل بين الإسكندرية وصعيد مصر الأعلى، وبث سمومه هناك، وصنف الكثير من الكتب في الفلسفة والسحر والشعوذة، فذاع أمره، ووفد إليه طلاب الحكمة، يظنونها عنده، فعظم شأنه، وعلت منزلته، حتى صار أسطورة تذكر عبر الأجيال.

وينسب الفلاسفة إلى هرمس هذا، اختراع الكتابة والموسيقى والتنجيم والأوزان والمقادير. وكلّ هذا اختراع وتلفيق، وتفخيم لهذه الشخصيّة التي يعظمونها، إذ يعتبر هرمس هذا من كبار الفلاسفة، حتى أطلقوا عليه لقب: مثلّث الحكمة.

فلما اختلط اليهود بالفلاسفة، وتأثروا بهم، ورأوا الفلاسفة يصفون هرمس بأنه من كبار الحكماء، مع ما أتي هرمس من ذيوع الصيت، أرادوا أن يجعلوه من أنبياءهم، فزعموا أن هرمس هذا هو أخنوخ، وورث عنهم هذا القول، النصارى والصابئة، واللتان تعتبران طائفتان منشقتان عن اليهودية.

أما رواة المسلمين، فإنهم نظروا إلى وصف الفلاسفة لهرمس بانه أوّل من اخترع الكتابة، ثم نظروا في اسم إدريس، وإذ هو مشتق من الدراسة، فاستظهروا أنه ما سمّي بذلك إلّا لأنه كان مجيداً للكتابة، ثم رجّحوا أن إدريس لم يوصف بأنه كان مجيداً للكتابة، إلّا لأنه أوّل من اخترع الكتابة – وهذه محاولة منهم لتقريب إدريس من هرمس – وهنا استنتجوا أن إدريس هو هرمس، وبما أن فلاسفة اليهود يزعمون أن أخنوخ هو هرمس، للسبب الذي قدّمنا، فبالتالي استنتجوا أن إدريس هو هرمس وهو أخنوخ في نفس الوقت.

لذلك فمن زعم أن إدريس بعث قبل نبي الله نوح عليه السلام، فإنما اعتمد على ظنّه أن إدريس هو أخنوخ، وأما وقد ثبت بطلان ذلك، وأن هذا مجرد ظنون وأوهام، فالحقيقة أنه لا يعرف متى بعث إدريس عليه السلام، ولا إلى أي أمّة بعث.

ولم يقف رواة المسلمين عند هذا الحدّ، حتى زعموا أن إدريس هو إلياس، وقد بيّنت بطلان هذا القول، أثناء الحديث عن نبي الله إلياس عليه السلام، فجعل رواة المسلمين إدريس هو إلياس وهو هرمس وهو أخنوخ، وكل هذا أوهام وتلفيق.

والعجيب أن البخاري رحمه الله، ممن أخذ بقول من يقول بأن إدريس هو أخنوخ، وأنه أحد أجداد نبي الله نوح، فقال في صحيحه: "وهو جد أبي نوح، ويقال جد نوح، عليهما السلام" اهـ

وهذا دليل على أنه لم يأخذ بتلك الرواية عن ابن مسعود وابن عباس في أن إدريس هو إلياس.

ولكنه أيضاً أخطأ بأخذه لرواية من يقول بأن إدريس هو أخنوخ، لأن هذه أبعد عن الصواب، بعداً لا يمكن معه تصديقها، لما أخبر عنه النبي في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري نفسه، وغيره، من أن النبي لما مرّ على إدريس في السماء الرابعة، قال له إدريس: "مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح".

وهذا دليل على أن إدريس ليس أباً للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، بل أخوه.

فثبت بذلك أنه لا علاقة لإدريس بأخنوخ، وأن أخنوخ شخصيّة قد تكون أسطوريّة، فلا أحد يعلم حقيقة ما أسماء الآباء الذين بين نوح وآدم عليهما السلام، ولا كم عددهما، وكل ما عثر عليه في التراث منقول عن رواه اليهود.

والله أعلم وأحكم.

قال تعالى في سورة الكهف: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}.

قوله: {ذِي الْقَرْنَيْنِ}. لا يعرف هل كان ذو القرنين نبياً أم رجلاً صالحاً، وإن كان الراجح في شأنه أنه نبي، وإذا كان نبياً، فإلى أي أمة بعث؟ ولا يعرف عن نسبه أي شيء، كما لا يعرف متى عاش ذو القرنين، كل هذه المسائل صارت مجهولة، ولا يمكن معرفتها، إلّا أنه كما يظهر من القرآن، كان ملكاً من الملوك.

وذو القرنين، لقب عربي، والقرنان هما الغديرتان، أو صياصي البقر والماعز والكباش، وسمّي القرنان بذلك، لأنهما قرينان، أي: شبيهان لبعضهما، وتأتي بمعنى: المضمومان لبعضهما. وذو، كما قدمنا معناها الصاحب، أي: صاحب القرنين.

وقوله: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ}. أي: جعله الله تعالى ملكاً.

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}. والمراد بالسبب هنا العِلم، فأوتي من كل شيء عِلماً ومعرفة.

وقوله: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا}. والمراد بالسبب هنا الطريق، أي: فاتّبع طريقاً، أي: سار فيه.

وقوله: {بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ}. أي: بلغ ساحل البحر من جهة الغرب.

وقوله: {عَيْنٍ حَمِئَةٍ}. أي: وجدها وكأنها تغرب في الماء والطين، عندما رآها وكأنها تغرب في البحر.

وقوله: {وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا}. أي: أنه بلغ مدينة تقع على ساحل البحر الغربي.

وقوله: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}. أي: إما أن تغير عليهم وتقتلهم وتنهب أموالهم وتسبي نساءهم وذراريهم، إن أبو قبول الإسلام، أو تعفو عنهم إن آمنوا ووحّدوا الله تعالى، وتعلّمهم ما يهتدون به إلى ربهم، وهذا فيه إشارة إلى أن ذا القرنين كان نبيّاً، بدلالة أن الله تعالى قال: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ}. فالله يخبرنا أنه قال له، وهذا يعني أن الله تعالى كان يوحي إليه.

وقوله: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ}. أي: عاد أدراجه، متجهاً إلى الشرق، فما زال يسير حتى بلغ ساحل البحر من جهة الشرق.

وقوله: {وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}. أي: أنه وصل إلى مدينة على ساحل البحر الشرقي، إذا طلعت عليهم الشمس، لم يكن بينهم وبينها ساتر، والمراد بالستر هنا: الجبال والأشجار ونحو ذلك، فهم على ساحل البحر، لا يحول بينهم وبين الشمس شيء.

وقوله: {وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا}. أي: وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علما لا يخفى علينا ما هنالك من الخلق وأحوالهم وأسبابهم، ولا من غيرهم شيء.

وقوله: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا}. أي: أنه سلك جهة لم يفصح الله تعالى عنها، فهي جهة مجهولة.

وقوله: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ}. أي: الجبلين، وقيل عن الجبل سدّ، لانه يسدّ ما وراءه، ولا أحد يعلم أين الجبلين اللذين أرادهما الله تعالى، وكل من زعم أنه يعرف موضعهما فهو كاذب.

وقوله: {وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا}. أي: قوم لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم.

وقوله: {إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ}. وهما قبيلتان من الناس.

وقوله: {مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ}. أي: كثيروا الإغارة على جيرانهم، كثيروا القتل والنهب والسلب والأسر فيهم، ما لهم من ذلك حاجة سوى الإفساد في الأرض.

وقوله: {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}. أي: نجعل لك أجراً، والخرج هو الأجر.

وقوله: {فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ}. أي: بعزم وحزم واجتهاد.

وقوله: {أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}. والردم يأتي على معانٍ، الأول: هو وضعه الأشياء بعضها فوق بعض، متراصّة، والثاني: هو التغطيّة، يقال: ردم الشيء أي: غطّاه. والمراد به هنا: التغطية.

وقوله: {حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ}. أي: ساوى وعدّل بين الجبلين.

وقوله: {قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا}. أي: أمرهم بإيقاد النيران على ذلك الحديد والنفخ فيها حتى انصهر الحديد.

وقوله: {قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا}. أي: أفرغ عليه النحاس المذاب.

وقوله: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}. أي لم يستطع يأجوج وماجوج أن يعلو عليه من فوق، لأنه ردم، ولا أن ينقبوه من تحت، لقوته وصلابته.

وقوله: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي}. أي: رحمة من الله أن مكّنهم وأعانهم على بناء هذا الردم.

وقوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}. أي: إذا جاء اليوم الموعود لخروجهم، سوف يضعف الله تعالى هذا الردم العظيم، ليتمكن يأجوج ومأجوج من هدّه والخروج منه.

وعن زينب بنت جحش، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا، يقول: "لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها". قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله: أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثر الخبث".

رواه البخاري.

قول النبي: "فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" وحلق بأصبعيه الإبهام والسبابة، دليل على أن الردم شيء مصمت، فلو كان سداً عادياً لكان مفتوحاً من أعلاه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غدًا فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله تعالى واستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس" .. الحديث

صحيح رواه ابن ماجه.

وقوله: "حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس" ففيه دلالة ظاهرة، على أنهم لا يرون الآن شعاع الشمس، فإن قيل: كيف يبصرون وهم في باطن الأرض؟ فالجواب: إنما يبصرون بما يوقدونه من مشاعل، يحتطبونها من الأشجار التي تنموا في باطن الأرض، أو أن الله يهيئ لهم نوراً يبصرون به في تلك المغاور.

فهذه أدلة صحيحة صريحة، على أن يأجوج ومأجوج، يعيشون في مغاور وكهوف في باطن الأرض.

فإن سألت كيف يعيشون في تلك المغاور؟ فالجواب: انهم يشربون من أودية تجري في باطن الأرض، تتخلل تلك المغاور، ويكون أكلهم مما ييسره الله لهم من كائنات تعيش في باطن الأرض، والذي رزق بني آدم فوق الأرض، لن يعجزه رزقهم في جوف الأرض.

وأما عن كثرتهم، فالله لا يعجزه أن يعمر باطن الأرض بهم كما عمر ظاهرها بالخلق، ولكن ربما تكون كثرتهم فيما بعد، بسبب تغلبهم على باقي الشعوب، وإخضاعهم لها، ودخولهم تحت سلطانهم.

والله وحده أعلم وأحكم.

من هو ذو القرنين؟

تخبّط الناس في شخص ذي القرنين، من يكون؟ وممّن يكون؟ ومن أي بلد هو؟ والسبب في ذلك، أن القرآن الكريم لم يعطي تفاصيل دقيقة عنه؟ كل ما ذكره القرآن عنه، هي معلومات مقتضبة جدّاً. ولم يرد في الأحاديث النبويّة الصحيحة شيئاً عنه.

فذهب طائفة إلى أن ذي القرنين، هو الملك الأكادي نارام سين، لأنهم عثروا على نقش حجري، يصوّر الملك الأكادي، وهو يرتدي تاجاً له قرنين.

وذهب طائفة أخرى، إلى أن ذي القرنين هو الملك قورش ملك فارس، بحجة أنهم وجدوا نقشاً حجريّاً لقورش وهو يلبس تاجاً له قرنين!

وذهب طائفة إلى أن ذي القرنين، هو الكسندر المقدوني، أحد أباطرة الرومان القدماء، ورواة العرب يسمونه: الإسكندر ، لأنهم ينقلون عن مؤرخي اليونان، أنه باني مدينة الإسكندرية، فلمّا رأوا أن اسمه لا يتوافق مع اسم المدينة، حرّفوا اسمه لذلك.

واعتضد القائلون بأن الكسندر هو ذو القرنين، بأن الكسندر المقدوني سار بجيشه من مقدونيا حتى بلغ حدود الصين، ولكن الكسندر، قطع ذلك في عشر سنوات.

وبسبب هذا التشابه الجزئي البسيط، زعموا أن الكسندر هو ذو القرنين!

بل زعموا أنهم عثروا على عُمُلات نقديّة، سُكَّت في زمن الكسندر المقدوني، ظهرت فيها صورته وبدا أن في رأسه قرناً، فزعموا أن هذا شاهد أخر على أنه ذو القرنين، وأنه لقّب بذلك لوجود قرنين في رأسه! والحقيقة أني نظرت إلى تلك العُمُلات، فتبيّن لي، أن ما يزعمون أنه قرن لم يكن قرناً، بل كان مجرد خصلة شعر ظهرت من مقدّم رأسه، فالقرون لا تخرج من مقدمة الرأس، بل من قُلّة الرأس، وهي أعلى نقطة فيها، فالقوم كل ما وجدوا نقشاً لصورة أحد الملوك المتقدمين، يرتدي تاجاً له قرنين، زعموا أنه ذو القرنين!

ولكن كما ذكرت سابقاً، فإن دعوى أن ذي القرنين لُقِّب بذلك لأنه كان يلبس تاجاً له قرنين، إنما هو ادعاء قائم على هذا النقوش، وهو قول لا يمكن القطع به.

وهذا قول باطل، فالكسندر المقدوني، عرف عنه أنه كان رجلاً كافراً، فضلاً عن أن يُعرف بصلاح أو تقوى، ويقال أنه كان تلميذاً للفيلسوف الوثني الملحد أرسطوطاليس.

كما أنه لم يعرف بحسن السيرة والسلوك، حتى أن ضبّاط جيشه عدو عليه وقتلوه لما قفل من بلاد الصين.

ثم إن المؤرخين، يذكرون أن الكسندر قطع المسافة من بلاده وحتى حدود بلاد الصين في عشر سنين.

فأين الكسندر هذا، من ذي القرنين، الرجل الصالح، الذي طويت له الأرض، حتى بلغ مغاربها ومشارقها في وقت وجيز؟!

وبذلك نعلم، أن كل ما ذكره المتنطعون في محاولة معرفة شخصيّة ذي القرنين، عن شخصه باطل، بل هو كذب، وأن ذي القرنين لا أحد يعرف اسمه ونسبه وبلده إلّا الله عزّ وجل.

قال تعالى في سورة لقمان: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}.

قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ}. أي: العِلم والفطنة والفهم.

ولا يعرف على وجه التحديد هل كان لقمان نبياً أم رجلاً صالحاً، وإن كان الراجح أنه نبيّ، وإذا كان نبياً، فإلى أي أمة بعث؟ ولا يعرف عن نسبه أي شيء، كما لا يعرف متى عاش ذو القرنين، كل هذه المسائل صارت مجهولة، ولا يمكن معرفتها، إلّا أنه ومن خلال القرآن الكريم، يتبيّن لنا أن لقمان عليه السلام، كان رجلاً صالحاً تقياً ورعاً، وكان ملتزما بأوامر الله تعالى، مجتنبا لنواهيه، قدر استطاعته.

ولقمان اسم عربي، مشتق من اللَقْم، أي: أكل اللقمة، واللقمة، هي ملء الفم من الطعام.

وقوله: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}. أي: من رجع إليّ، بمعنى: تاب إلى الله.

وقوله: {يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}. يريد أن يبيّن سعة علم الله تعالى، وأنه لا يعزب عن علمه شيء.

وقوله: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ}. أي: اصبر على ما يصيبك من الأذى في سبيل الله تعالى.

وقوله: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ}. أي: لا تصد بوجهك عن الناس تكبّراً وتجبّراً عليهم.

وقوله: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا}. أي: المرح الذي يدعو إلى الكِبر والغرور والتعالي على الناس.

وقوله: { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ}. أي: امش مشياً ليس بالسريع ولا بالبطيء، أي: امش بتؤدة وأناة، مشياً فيه سكينة ووقار.

وقوله: { وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ}. أي: لا تجعله عالياً جدّاً بل اجعله هادئاً.

وقوله: {إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}. شبّه الصوت المرتفع، بصوت الحمار عندما ينهق، ونهيق الحمير، من أنكر الأوصات.

خبر أصحاب القرية

قال تعالى في سورة يس: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}.

قوله: {أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ}. لم يبيّن الله تعالى ما اسم هذه القرية، ولا أين تقع، وكل ما روي من الأخبار عن اسمها ومكانها فهو كذب.

وقوله: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}. أي: أن الله تعالى أرسل لهم ثلاثة أنبياء.

وقوله: {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ}. أي: تشاءمنا بكم.

وقوله: {طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ}. أي: أن شؤمكم، هي: أعمالكم السيئة، التي سوف تجر عليكم الشر، وهو العذاب من الله تعالى، إن لم تتوبوا.

وقوله: {أَئِن ذُكِّرْتُم}. أي: أتتطيرون بنا لأجل أننا قمنا بتذكيركم!

وقوله: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى}. كان رجلاً من تلك القرية، يقيم في أقصى المدينة، آمن بدعوة الأنبياء الثلاثة، واتبع المرسلين، فقدم ناصحاً لقومه، مشفقاً عليهم.

وقوله: {إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ}. أي: أنه أعلن إيمانه بالمرسلين بين ملأٍ من قومه، ونبّههم على أن يسمعوا قوله عندما أعلن إيمانه.

وقوله: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ}. أي: أنه مات، وأن الله تعالى بشَّره بالجنَّة، وفتح له باباً يأتيه من روحها وريحها. وقد يكون المراد بذلك، يوم القيامة، إذا بعث هو وقومه، وأدخله الله الجنَّة، وأدخلهم النار، فيقول: ياليت قومي الذين أدخلهم الله النار يعلمون ما أنا فيه من الكرامة.

وقوله: {ن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}. أي: أن العذاب حلّ بقومه بعد موته، فأنزل عليهم صيحة من السماء، أهلكتهم.

خبر أصحاب الرسّ

قال تعالى في سورة الفرقان: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا}.

وقال تعالى في سورة ق: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ}.

فقوله: {وَأَصْحَابَ الرَّسِّ}. يراد به أن موضعهم الذي يقيمون به يدعى: الرسّ.

ولا يعرف في أي مكان يقع الرسّ، أو في أي زمان عاشت تلك الأمة، ولم يذكر الله لنا اسم نبيهم، ولا شيء من خبره، وكل ما يذكر في ذلك، إنما هو من أوضاع القصّاص.

وإنما ذكرها الله تعالى إخبارا منه سبحانه، بأنها من الأمم التي أوقع الله بها العذاب في الدنيا، ليتعظ الناس ويتقوا غضب الله.

خبر قوم تُبَّع

قال تعالى في سورة الدخان: {أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}.

وقال تعالى في سورة ق: {وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ}.

قوله: {قَوْمُ تُبَّعٍ}. أي: قبيلة تُبَّع، وعشيرته ورهطه.

وتبَّع اسم رجل، وقد زعم بعض قصّاص اليمن، أن تَبَّع من اليمن، وأن تُبَّع لقب له، وليس اسماً، ثم زعموا أن تُبَّع لقب لملوك حِمْيَر، حتى صاروا يلقّبون كل ملكٍ حميري: تَبَّع.

والحقيقة أن كتب النقوش الحجريّة التي عُثِر عليها في اليمن، لا تشير إلى شيء من ذلك، بل الذي عُثِر عليه في النقوش الحجريّة اليمنيّة، وكتب التاريخ، أن ملوك حمير، كانوا يلقّبون بالملوك.

وكل ما عُثِر عليه، هو اسم أهل بيت يقال لهم: بنو بتع – وليس تُبَّع – وهي أسرة ذات حكم قبلي، نشأ في منطقة حاشد، إحدى قبائل همدان الكبيرة. فالأسرة البتعيّة، أسرة همدانية، وليست حميريّة، ثم إن هناك فارق بين الاسمين كبير في المعنى، وإن كان قريباً في الرسم.

ويظهر أن هذه الدعوى، لم تظهر إلّا بعد انتشار الإسلام، وكثرة ما أُدخِل في القَصَص القرآني من الأكاذيب، حتى راج ذلك بين الناس، ونقله المؤرخون والكُتَّاب.

وقد كثر الكذب في القّصّص الديني من قِبَل بعض ضِعاف النفوس من الحميرين خصوصاً، حسداً ونفاسة، فقد كان للحميريّين مُلْكٌ عريض باليمن، أزاله الإسلام، وجعل الشرف لقبيلة قريش، إذ أخرج النبي صلى الله عليه وسلّم منهم، فأرادوا أن يجعلوا لهم نصيباً من ذلك الشرف، فادعوا أن تَبَّع منهم، بل اختلقوا أنبياء لا وجود لهم في الحقيقة إلّا في الأساطير الحِميريّة، مثل النبي صفوان، والنبي شعيب بن ذي مهدم، وغيرهم!

والحقيقة، أن تُبَّع لا يُدرى من أي شعبٍ هو، ولا من أي أرضٍ هو، بل لا يدرى هل هو نبيٌّ أم لا، وإن كان الراجح أنه نبيّ، ولكن الله تعالى ذكره وقومه في معرض الأمم التي كذبت رُسُلها، وعاقبها الله تعالى في الدنيا قبل الأخرة.

اعلم أن لسان الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام، وألْسُن بنيه، إلى يوشع بن نون عليه السلام، هو اللسان العربيّ.

وعلى هذا دليلان:

الأول: أن جميع أسماء الأنبياء عربيّة، منه ما جاء به مصرّحاً باشتقاقه العربي في تواريخ اليهود، ومنهم من دلّت اللغة العربيَّة، على أنه اسم عربي، من لفظه واشتقاقه.

والثاني: ما نصت عليه الآيات والأحاديث. فقد نصَّت الآيات بأن موسى عليه السلام، كان يخاطب الفتاتين من مدين، دون أن يكون بينهما ترجمان. ونصَّ الحديث الصحيح الذي رواه عبدالله بن عباس في خبر إسماعيل وأمّه، أن إبراهيم عليه السلام، كان يتحدث إلى زوجتي إسماعيل عليه السلام، وإلى ابنه إسماعيل، دون أن يكون بينهم تُرجمان، وهذا إن دلّ، فإنما يدلّ على أن ألسنهم جميعاً واحدة، وإن وقع اختلاف، فهو اختلاف يسير، كما يقع اليوم بين مختلف القبائل العربية.

ومع كون رواة اليهود، مقرين بأن أسماء أنبيائهم عربيّة، إلا أنه لا يزال هناك من يزعم أن أسماء الأنبياء ليست عربيّة، بل ويؤكّد على أنه لا ينبغي أن يبحث لها عن اشتقاقات في اللغة العربيّة!

ويحتج على ذلك بما قاله عبدالله بن عباس في خبر هاجر وابنها إسماعيل، من أن إسماعيل، تعلّم العربيّة من جرهم، وهذا خطأ من ابن عباس، وقد بيّنت وجه خطئه في ذلك، في مولد إسماعيل عليه السلام.

ويحتج على ذلك أيضا، بما روي عن أبي ذر الغفاري، أنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ كم الأنبياءُ؟ قال: مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفًا. قلتُ: يا رسولَ اللهِ كم الرسلُ منهم؟ قال: ثلاثُمائةٌ وثلاثةَ عشرَ جمًّا غفيرًا. قلتُ: يا رسولَ اللهِ من كان أولُهم؟ قال: آدمُ. قلتُ: يا رسولَ اللهِ نبيٌّ مُرسَلٌ؟ قال: نعم، خلقه اللهُ بيده ونفخ فيه من رُوحِه ثم سوّاه قبلًا. ثم قال: يا أبا ذرٍّ، أربعةٌ

سِريانيون، آدمُ وشيثُ ونوحٌ وخنوخٌ وهو إدريسٌ وهو أولُ من خطَّ بالقلمِ وأربعةٌ من العربِ هودُ وصالحٌ وشعيبٌ ونبيُّك يا أبا ذرٍّ، وأولُ نبيٍّ من بني إسرائيلَ موسى وآخرُهم عيسى، وأولُ النبيِّينَ آدمُ وآخرُهم نبيُّكَ.

روا الطبري.

وهذا حديث موضوع، فلا يحتج به.

ويحتج على ذلك أيضا، بأن أسماء أبناء إبراهيم من قطورة، وأسماء أبناء يعقوب غير يوسف، كلها ليست عربيّة، بل هي أعجمية.

والحقيقة أن ما ورد من أسماء لأبناء إبراهيم من قطورة، وأسماء أبناء يعقوب غير يوسف، إنما هي محرّفة عن أصلها العربيّ، فعندما استعجمت ألسنة ذريّة بني إسحاق، بفعل اختلاطهم بالأمم الأعجمية، أصبحوا يلفظون أسماء أبناء يعقوب بطريقة خاطئة.

والدليل على ذلك، أنهم ينطقون اسم نوح: نوخ، و: نخّ، وينطقون اسم إبراهيم: أفراهام، وينطقون اسم إسحاق: إزخاق، وأيزك، وينطقون اسم يعقوب: ياكوف، وجيكوف، وموسى ينطقونه: موشى، ويوشع ينطقونه: هوشع، ودواد، ينطقونه: ديفد، ودافيد، وسليمان، ينطقونه: سولومون، وسولومان، والياس، ينطقونه: إيليا، واليسع، ينطقونه: اليشع، ويونس، ينطقونه: يونان، ومتّى، ينطقونه: متّاي، وعزير، ينطقونه: ايزرا، وأيوب، ينطقونه: جوب، ويوب، ولولا أن هذه الأسماء وردت بالنصّ في القرآن الكريم والسنة النبويّة المطهّرة، لكنا اليوم نقرأها في الترجمة العربية للتوراة والإنجيل بألفاظها التي اصطلح عليها مستعجمة أهل الكتاب.

وإنما عُدِّل لفظها في العربيّة لأن المترجمون يعلمون أن اللفظ الصحيح للاسم موجود في القرآن، فلما لم يجدوا أسماء أبناء يعقوب في القرآن، كتبوها كما يلفظها مستعجمة بني إسرائيل.

فتبيّ من خِلال ما سبق، أن حججهم كلّها باطلة، بينما صرّحت الأدلة بأن أسماء الأنبياء عربيّة.

والذي أقطع به، أن العربية هي لسان الأنبياء من لدن آدم عليه السلام، إلى يوشع بن نون عليه السلام، لأنه ثبت أن موسى كان عربياً، فهو من ناحية يعيش في بيئة عربية، فقد اثبت سابقاً أن فرعون وقومه عرب، ثم قدرة موسى على التحدث مع الفتاتين من مدين بلا ترجمان، إذا موسى قطعا رجل عربي اللسان، وبالتالي، فإن قومه من بني إسرائيل كانوا عرباً، وبالتالي ليس ليوشع بن نون لسان سوى لسان قومه، وهي العربيّة.

وأما من جاء بعد يوشع بن نون من بني إسرائيل، إلى زمن عيسى عليه السلام، فلغتهم قد لا تكون عربية، لأن اللسان العبري، استعجم فيما بعد، ولكن لا نعرف على وجه الدقة متى استعجم لسان بني إسرائيل، ولكنهم ظلّوا يحتفظون بكثير من جذور لغتهم العربيّة السابقة، لذلك نجد، أنه حتى الأنبياء الذين جاءوا بعد يوشع، أسماء أكثرهم، إن لم يكونوا كلّهم، عربية، ولها اشتقاق في العربيّة.

والله أعلم وأحكم.

كيف تنشأ اللُغات؟

أدعى قصاص اليهود في كتبهم، أن نوحاً عليه السلام بعد الطوفان، انتقل من الموضع الذي استقرت فيه سفينته إلى العراق، حيث كان أوّل من أسّس مدينة بابل، وأن المدينة سمّيت بابل، لأن نوحاً أصبح ذات يوم وقد تبلبلت ألسنة المؤمنين، كل يتكلم بلغة لا يفهمها الأخر، بينما علّم الله نوحاً جميع اللغات، فكان نوح يترجم بينهم!

وهذه القصّة موضوعة، إنما أراد بها واضعها، أن يعلّل سبب تسمية بابل بهذا الاسم، فاختلق هذه القصة! وأوجد تعليلاً لا يقل سخفاً لتنوع اللهجات واللغات.

والحقيقة أن الأنبياء، لا يختارون إلا ما اختاره الله لهم، وبما أن الله تعالى أرسى السفينة على جبل الجودي – بنص القرآن الكريم – فما كان نوح عليه السلام، ليستبدل تلك الأرض التي اختارها الله له بأرض أخرى.

قال تعالى في سورة المؤمنون: {وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ}.

فلما دعا نوح بتلك الدعوات التي أمره الله بها، أنزله بسفح جبل الجودي، دلّ هذا على أن ذلك الموضع، هو المنزل المبارك الذي اختاره الله لنوح، فكيف سوف يستبدل نوح تلك الأرض بغيرها!

فتبيّن بذلك، أن دعوى أن نوحاً انتقل إلى العراق وأسّس بها مدينة بابل، كذب محضّ، وهو من وضع القصاص.

فكيف نشأت اللغات إذاً؟

الجواب: أن اللغات تنشأ تدريجياً، بحيث أنه يظهر في الشعب من يخفف نطق حرف ينطقه أبناء شعبه ثقيلاً، أو يثقل نطق حرف ينطقه أبناء شعبه خفيفاً، هذا الحرف مع مرور الوقت يتحول إلى لفظ حرف أخر: مثل الذال والضاء أو الدال والطاء، أي حرفين متقاربين في المخرج يستبدل به، فيتغير في الكلمة حرف، ثم يتغير حرف أخر في جيل أخر، وهكذا كل زمن يتغير حرف حتى تستحيل الكلمة إلى كلمة أخرى، ومع تعدد تغير الكلمات تتغير الجمل والعبارات،

فتنشأ لغة أخرى، وينشأ شعب يتكلم بلغة لا يتكلم بها الشعب الأم، ومع تعدد نشوء اللغات تنشأ شعوب لا يتكلم بعضها بلغة بعض.

فقوم نوح كثروا وتفرقوا، وكل طائفة أخذت تغير في نطق أحرف كلماتها، والسبب في ذلك، يعود إلى الطبيعة التي يعيش فيها البشر، وإلى نوع الغذاء الذي يتناولونه، مما يحدث تغييراً في أصواتهم، وطريقة نطقهم للحروف، ترقيقاً أو تفخيماً، وجيلاً بعد جيلاً إذ بنا نجد عدة شعوب بعضها لا يتكلم بلسان بعض، وهذه التغيرات لا تحدث في يوم وليلة ولا في أسبوع ولا في شهر ولا في سنة ولا في عشرات السنين بل تحدث في مئات السنين.

وبعد أن كثرت اللغات واحتكت الشعوب بعضها ببعض صار تغير ونشوء لغات جديدة أسهل منه من ذي قبل، لأن عوامل تغير اللغات ونشأتها ازداد باحتكاك الشعوب المختلفة في لغاتها ببعض، فيأخذون من الشعوب الأخرى تفخيم حرف أو تخفيفه، ويقتبسون من كلماتهم، وينطقون الكلمات التي استعاروها من الشعوب الأخرى بطريقتهم في نطق الأحرف، تخفيفا وتفخيما، فتتولد كلمة مشابهة لكلمة الشعب المجاور، مع بعض التغيرات، ومع مرور الزمن تتحول إلى كلمة أخرى، وهكذا.

وأما ما روي من أن الله سبحانه علَّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرية والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها، لبعد عهدهم بها.

فهذه من أوضاع القصّاص، وتأليفاتهم، إذ لو سلَّمنا بصحة ذلك، وهو ليس بصحيح، فإن الله تعالى زمن نوح عليه السلام، أهلك جميع بني آدم، فلم يبقى سوى نوح والمؤمنون من قومه، وهم على لغة واحدة، فلا فائدة عندئذٍ من تعليم آدم عليه السلام جميع اللغات.

والصواب أن اللغات إنما نشأت بعد طوفان نوح عليه السلام، وليس قبله، على ما ذكرت آنفاً.

والله أعلم وأحكم.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم: أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مُآب من أرض البلقاء، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له هُبل، فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وقوله: "فأعطوه صنماً يقال له: هُبَل" يظهر أنه من أوهام الرواة وتخليطهم، والراجح، أن الأصنام التي قدم بها عمرو بن لُحي، هي: اللات والعزّى ومناة. لأن هذه الأصنام، هي التي كانت معروفة في الشام في ذلك الوقت، وأما هُبل، فلم يُعرف إلا في الحجاز، فيظهر أن هُبل صنم ابتدعته كهنة قبيلة كِنانة، بعد أن فشى الشرك في العرب.

وهُبَل، تعني: العظيم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: "يا أكثم، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به، ولا بك منه". فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: "لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبَحَر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي".

رواه ابن هشام في السيرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة".

رواه البخاري.

وفي رواية قال: "رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي، يجر قُصبَه في النار، وكان أول من سيَّب السوائب".

رواه البخاري.

وقوله: "قُصبَه" أي: الأمعاء الغليظة.

ورواه مسلم، دون قوله: "ابن لحي".

وفي رواية قال: "رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف، أبا بني كعب هؤلاء، يجر قصبه في النار".

رواه مسلم.

قلت: فهذه نصوص صحيحة صريحة في أن أول من غيّر دين إبراهيم، هو عمرو بن عامر بن لحي بن قمعة بن خندف بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، وأن خزاعة هم ولده.

وعن عبدالله بن عباس أنه قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود : فكانت لكلب بدومة الجندل ؛ وأما سواع : فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، أما يعوق : فكانت لهمدان ، وأما نسر : فكانت لحمير لآل ذي كلاع.

رواه البخاري.

قلت: وتفسير ذلك، أن أصنام قوم نوح، لما وقع الطوفان، تدفَّنت في بطحاء مكة، فلما وقع الشرك في العرب، بمكة وتهامة، أوحت شياطين الجِنّ إلى أوليائهم من شياطين الإنس، ممن قد تعلَّم الكِهانة والشعوذة، أن هناك أصناماً مدفونة ببطحاء مكّة، وأمروهم باستخراجها، وأخبروهم بأسمائها، وأمروهم بان يبعثوا إلى كل ناحية بصنم، ليقع الناس في الشرك، وينتشر بينهم، وتعبد الأوثان من دون الله تعالى. وشياطين الجِنّ، إنما عرفت بوجود هذه الأصنام، وبأسمائها، من أبيهم إبليس لعنه الله، لأنه هو من أمرهم بأن يوحوا لشياطين الإنس بذلك، وأمرهم بما أمروا به شياطين الإنس.

قال تعالى في سورة سبأ: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}.

قوله: {آيَةٌ}. أي: عِبرة وعِظة.

وقوله: {جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ}. أي: عن يمين واديهم وشماله، مليئة بالخيرات.

وقوله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ}. والعَرِم اسم واديهم.

عن قتادة والضحاك، أن العرِم، وادٍ تجتمع إليه مسايل من أودية شتى، فعمدوا فسدوا ما بين الجبلين بالصخر والقار، وجعلوا عليه أبوابا، وكانوا يأخذون من مائه ما احتاجوا إليه، ويسدون عنهم ما لم يعنوا به من مائه شيئا، فانسد زمانا من الدهر، لا يخافون الماء.

رواه الطبري.

وعن قتادة والضحاك، أن الله تعالى سلّط جرذاً يقال له الخُلد، يحفر في أساسه، حتى زعزع بنيانه، فاقتلع الماء ذلك السدّ، واقتلك جنان سبأ.

رواه الطبري.

ويظهر أن قتادة والضحاك، نقلا ذلك من قصاص اليمن، أو عمّن أخذ عنهم، وأما الباحثون، فقرّروا أنه قد يكون سبب انهيار السد، زلزال قويّ تسبب في زعزعت أساسات السد، مما تسبب في انهياره.

وقوله تعالى: {وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}.

عن عبدالله بن عباس قال: أبدلهم الله مكان جنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، والخمط: الأراك.

رواه الطبري.

وقوله: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً}. أي: جعلنا بين قريتهم وبين القرى الكبيرة في اليمن، قرى صغيرة ظاهرة، فلا يحتاجون إلى حمل الزاد، ولا يخافون من قطّاع الطريق والسُرّاق.

وقوله: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}. أي: سألوا من الله تعالى أن يجعل بينهم وبين القرى الكبيرة، مفاوز يحتاجون فيها إلى حمل الزاد والسلاح، لأنهم ملّوا حياة الترف والأمن.

وقوله: {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}. أي: أحاديث للناس، يتحدثون عمّا أصابهم من الويل والدمار.

وقوله: {وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ}. أي: فرّقهم الله تعالى في قبائل اليمن، بعد أن انهار السدّ عليهم، ودمر بلادهم.

ويظهر من خلال النقوش الحجرية، التي عثر عليها في اليمن، أن انهيار سدّ مأرب، وقع في وقت متأخر جداً، إذا أنه وحسب تلك النقوش الحجرية، انهار بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بمدّة طويلة.

ويرى عالم الآثار الألماني أدولف جروهمان، في كتابه التاريخ الثقافي للشرق القديم، أنه من خلال المعطيات الآثارية التاريخية، التي عُثِر عليها في تلك المنطقة، أن السد تعرّض لعدة تصدعات ولكن نهايته كانت في سَنَة خمس وسبعين وخمسمائة، بعد ميلاد النبي عيسى عليه السلام.

فإذا علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في شهور سنة عشرٍ وستمائة بعد الميلاد، تبيّن لنا أنه ليس بين انهيار السد وبين بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، سوى قرابة خمسٍ وثلاثين عاما فقط.

وهذا يعني أن السدّ انهار وعُمر النبي صلى الله عليه وسلم خمس سنوات.

وبهذا نعلم أن جميع الأخبار المروية في انهيار سد مأرب، ليست سوى أخبار موضوعة، وضعها القصّاص.

نسب النبي صلى الله عليه وسلم

روى عبدالملك بن هشام، في السيرة النبوية، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي، في جمهرة النسب، ومصعب بن عبدالله الزبيري، في نسب قريش، والزبير بن بكّار القرشي، في جمهرة نسب قريش وأخبارها، أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو: محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وأمُّه هي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وكنيته: أبو القاسم.

وعن واثلة بن الأسقع، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".

رواه مسلم.

قال محمد بن إسحاق: ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن هلك، وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به.

وعن أبي قتادة أن أعرابيا قال: يا رسول الله ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال: "ذاك يوم ولدت فيه وأنزل علي فيه".

رواه مسلم.

وعن جابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس أنهما قالا: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل يوم الاثنين الثامن عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات.

رواه ابن أبي شيبة.

قال ابن إسحاق: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل.

قلت: هكذا ورد في سير ابن هشام، وأظنه وهم من الراوي، وصوابه: "لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول" وهذا يتّفق مع ما رواه ابن أبي شيبة، من أن مولد صلى الله عليه وسلم، في اليوم الثامن عشر.

أرضعته ثويبة، جارية عمّه أبي لهب.

عن أم حبيبة بنت أبي سفيان قالت: يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان – ولمسلم: عزة بنت أبي سفيان – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو تحبين ذلك؟ قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإن ذلك لا يحل لي. قالت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة – وفي رواية: درة بنت أبي سلمة – قال: بنت أم سلمة. قلت: نعم. قال: إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن.

رواه البخاري ومسلم.

وثويبة مولاة لأبي لهب، عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، أعتقها لما بشّرته بميلاد ابن أخيه عبدالله، فأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم.

وأرضعته حليمة السعدية.

قال محمد بن إسحاق: فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، يقال لها: حليمة ابنة أبي ذؤيب، وأبو ذؤيب: عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن فصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان. واسم أبيه الذي أرضعه صلى الله عليه وسلم: الحارث بن عبد العزى بن رفاعة ابن ملان بن ناصرة بن فصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، وإخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة بنت الحارث، وهي الشيماء، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف في قومها إلا به. وهم لحليمة بنت أبي ذؤيب، عبد الله بن الحارث، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذكرون أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها إذا كان عندهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني جهم بن أبي جهم مولى الحارث بن حاطب الجمحي، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. أو عمن حدثه عنه قال: كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية.

أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته، تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء، لم تبق لنا شيئا. قالت: فخرجت على أتان لي قمراء، معنا شارف لنا، والله ما نبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغديه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا بنة أبي ذؤيب، ويحك! اربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها لشأنا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعا لبنا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لبنا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان

غلاما جفرا. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته. فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وبأ مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا. قالت: فرجعنا به، فو الله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشقا بطنه، فهما يسوطانه. قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدنا قائما منتقعا وجهه. قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بني، قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو. قالت: فرجعنا به إلى خبائنا. قالت: وقال لي أبوه يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه، وعلى مكثه عندك؟ قالت: فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث، عليه، فأديته إليك كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني خبرك. قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها. قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: قلت نعم، قالت: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبني لشأنا، أفلا أخبرك خبره، قالت: قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به، أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فو الله ما رأيت من حمل قط كان أخف علَي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقي راشدة.

وفاة أمّ النبي صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم، في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين، توفيت أمه آمنة بنت وهب.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنة توفيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ست سنين بالأبواء، بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار، تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة.

قال ابن هشام: أم عبد المطلب بن هاشم: سلمى بنت عمرو النجارية، فهذه الخؤولة التي ذكرها ابن إسحاق لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم.

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فو الله إن له لشأنا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني سنين هلك عبد المطلب بن هاشم. وذلك بعد الفيل بثماني سنين:

قال ابن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس، عن بعض أهله: أن عبد المطلب توفي ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثماني سنين.

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب، وكان عبد المطلب- فيما يزعمون- يوصي به عمه أبا طالب، وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا طالب أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم.

قال ابن إسحاق: وكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده، فكان إليه ومعه.

زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة بنت خويلد

قال ابن هشام: فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة، تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، فيما حدثني غير واحد من أهل العلم عن أبي عمرو المدني.

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجارا، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها، من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.. ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة.. فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به، فأضعف أو قريبا، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامته.. بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له – فيما يزعمون – يا بن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها. وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا، وأعظمهن شرفا، وأكثرهن مالا، كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه، فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لا عمامة فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب، رحمه الله، حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه، فتزوجها.

قال ابن هشام: وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، ا.

قال ابن إسحاق: فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم إلا إبراهيم القاسم، وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، عليهم السلام.

قال ابن هشام: أكبر بنيه القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر، وأكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

قال ابن إسحاق: فأما القاسم، والطيب، والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم.

تجديد بناء الكعبة

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها، وإنما كانت رضما فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرا سرقوا كنزا للكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة، وكان الذي وجد عنده الكنز دويكا مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة، وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها، فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار، فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم، فتتشرق على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فاها، وكانوا يهابونها، فبينا هي ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة، كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائرا فاختطفها، فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجرا، فوثب من يده، حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس، والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني عبد الله بن أبي نجيح المكي، أنه حدث عن عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي: أنه رأى ابنا لجعدة بن هبيرة بن أبي وهب بن عمرو يطوف بالبيت، فسأل عنه، فقيل: هذا ابن لجعدة بن هبيرة، فقال عبد الله بن صفوان: عند ذلك جد هذا، يعني أبا وهب، الذي أخذ حجرا من الكعبة حين أجمعت قريش لهدمها فوثب من يده، حتى رجع إلى موضعه، فقال عند ذلك: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا تدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

قال ابن إسحاق: وأبو وهب خال أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شريفا.. ثم إن قريشا جزأت الكعبة، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم، وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم، ابني عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي، ولبني أسد بن العزى بن قصي، ولبني عدي بن كعب بن لؤي، وهو الحطيم، ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها، وهو يقول: اللهم لم ترع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء، فقد رضي الله صنعنا، فهدمنا، فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله، فهدم وهدم الناس معه.

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال صلى الله عليه وسلم: هلم إلي ثوبا، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا: حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين، وكانت الكعبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني عشرة ذراعا.

قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم ابن دودان بن أسد بن خزيمة، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وزيد بن عمرو بن نفيل ابن عبد العزى بن عبد الله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علما من أهل الكتاب، وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدمها تنصر، وفارق الإسلام، حتى هلك هنالك نصرانيا.

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: كان عبيد الله ابن جحش حين تنصر يمر بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم هنالك من أرض الحبشة، فيقول: فقحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر، ولم تبصروا بعد. وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه لينظر، صأصأ لينظر. وقوله: فقح: فتح عينيه.

قال ابن إسحاق: وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم، فتنصر وحسنت منزلته عنده، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه، عن أمه أسماء بنت أبي بكر ما، قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد ابن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته.

وعن أسماء بنت أبي بكر ما قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما، مسندا ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيكها مئونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مئونتها.

رواه البخاري.

وعن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح، وذاك قبل أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، فقدم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها، ثم قال: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه.

رواه البخاري.

وعن عبدالله بن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم، يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا، حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا، وأنى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئا أبدا، وأنى أستطيع، فهل تدلني على غيره قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال: وما الحنيف؟ قال: دين

إبراهيم، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم.

رواه البخاري.

قال ابن إسحاق: وحدثت أن ابنه، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمر بن الخطاب، وهو ابن عمه، قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال: نعم، فإنه يبعث أمة وحده.

قال ابن إسحاق: وكان الخطاب قد آذى زيدا، حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة، ووكل به الخطاب شبابا من شباب قريش وسفهاء من سفهائها، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلا سرا منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحد منهم على فراقه، ثم خرج يطلب دين إبراهيم عليه السلام، ويسأل الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كله، حتى انتهى إلى راهب بميفعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال: إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق بها، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه. وقد كان شام اليهودية والنصرانية، فلم يرض شيئا منهما، فخرج سريعا، حين قال له ذلك الراهب ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه.

قلت: وليس هؤلاء الأربعة وحدهم من لم يكن يرى عبادة الناس للأصنام شيئا، بل كان هناك غيرهم، ولكن هؤلاء من ذكرهم الرواة من قريش فقط.

عن أبي أمامة الباهلي قال: قلت: يا رسول الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: "دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام".

رواه أحمد.

قال ابن إسحاق: فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيرا، وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه. يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي}. أي: ثقل ما حملتكم من عهدي {قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}. [آل عمران] فأخذ الله ميثاق النبيين جميعا بالتصديق له، والنصر له ممن خالفه، وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين.

وعن عائشة ا أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد، الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}. حتى بلغ {عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}. فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة، ما لي. وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي. فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق

الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخو أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا، أكون حيا حين يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أومخرجي هم فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي. قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن : أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال، وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: "بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ}.. إلى قوله {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}. [المدّثِّر] فحمي الوحي وتتابع".

رواه البخاري.

وقوله: "ما أنا بقارئ" أي: لا أحسن القراءة.

وقوله: "زملوني" أي: أجمعوا علي الأغطية، يريد بذلك أن يخف ما به من روع. وزملوني ودثروني، معنيان مترادفان.

وعن عبدالله بن عباس أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وأربعين، فمكث بمكة عشرا، وبالمدينة عشرا، ومات وهو ابن ثلاث وستين.

رواه أحمد.

وعن عائشة أم المؤمنين ا: أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك

رجلا، فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة ا: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا".

رواه البخاري.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى عجائب قبل بعثته، عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلِّم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن".

رواه مسلم.

قال ابن إسحاق: فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان، بقول الله عز وجل: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}. [البقرة] وقال الله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ{ }.}. [القدر] وقال الله تعالى: {حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}. [الدخان]

قال ابن إسحاق: ثم تتام الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم، والنبوة أثقال ومؤنة، لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعرم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه، لما يلقون من الناس وما يرد عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى. قال: فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى.

إسلام خديجة بنت خويلد

قال ابن إسحاق: وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدق بما جاء منه. فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى.

قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به، أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أقرئ خديجة السلام من ربها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك، فقالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

قال ابن إسحاق: وحدثني صالح بن كيسان عن عروة بن الزبير، عن عائشة ا قالت: افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين، كل صلاة، ثم إن الله تعالى أتمها في الحضر أربعا، وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن الصلاة حين افترضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه، ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم صلى بها رسول الله عليه الصلاة والسلام كما صلى به جبريل فصلت بصلاته.

قال ابن إسحاق: وحدثني عتبة بن مسلم، مولى بني تميم، عن نافع بن جبير بن مطعم، وكان نافع كثير الرواية، عن ابن عباس قال: لما افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام، فصلى به الظهر حين مالت الشمس، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاءه فصلى به الظهر من غد حين كان ظله مثله، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول، ثم صلى به الصبح مسفرا غير مشرق، ثم قال: يا محمد، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس، وكانت قدر الشراك، وصلى بي العصر حين كان ظله مثله، وصلى بي يعني المغرب حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء حين غاب الشفق،

وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله، وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه، وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل، وصلى بي الفجر فأسفر. ثم التفت إلي فقال: يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين".

رواه أبو داود والترمذي.

قلت: وفرضت الزكاة بعد فرض الصلاة، إلّا أنها فرضت أوّل مرة على سبيل الإجمال، وكان ذلك موكولا لما تجود به الأنفس، إلا أن تفصيل الزكاة ومقدارها لم يفرض إلّا بعد فرض صوم شهر رمضان، وذلك بعد الهجرة إلى المدينة، في السنة الثانية، وقيل في السنة التاسعة للهجرة النبويّة،

إسلام علي بن أبي طالب

قال ابن إسحاق: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم، رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين، وكان مما أنعم الله به على علي بن أبي طالب، أنه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج، قال: كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم، يا عباس: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلا، وتأخذ أنت رجلا، فنكلهما عنه، فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلا فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا، فاتبعه علي، وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال صلى الله عليه وسلم - بعثني الله به رسولا إلى العباد، وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه - أو كما قال - فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين

آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت. وذكروا أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته. فزعموا أنه قال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه.

إسلام زيد بن حارثة

قال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى ابن امرئ القيس الكلبي، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب.

قلت: أي: أن عليّاً أسلم وصلّى قبله، وزيد كان أول من أسلم وصلى بعد عليّ بن أبي طالب من الرجال.

قال ابن هشام: زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن بكر ابن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة.

قال ابن إسحاق: وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق، فيهم زيد بن حارثة وصيف، فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد، وهي يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لها: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاختارت زيدا فأخذته، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها، فاستوهبه منها، فوهبته له، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه، وذلك قبل أن يوحى إليه، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديدا، وبكى عليه حين فقده، ثم قدم عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك. فلم يزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله فصدقه وأسلم، وصلى معه، فلما أنزل الله عز وجل: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ}. [الأحزاب] قال: أنا زيد ابن حارثة.

روى هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، وعن جميل بن مرثد الطائي وغيرهما، قالوا: زارت سعدى أم زيد بن حارثة قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية على أبيات بني معن، فاحتملوا زيدا وهو غلام يفعة، فأتوا به في سوق عكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم وهبته له، فحج ناس من كلب، فرأوا زيدا فعرفهم وعرفوه، فانطلقوا فأعلموا أباه، ووصفوا له موضعا، فخرج حارثة وكعب أخوه بفدائه، فقدما مكة، فسألا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يا بن عبد المطلب، يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله تفكون العاني وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا عبدك، فامنن علينا، وأحسن في فدائه، فإنا سنرفع لك. قال وما ذاك؟ قالوا: زيد بن حارثة. فقال: أو غير ذلك؟ أدعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء. وإن اختارني فو الله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء قالوا: زدتنا على النَصَف، فدعاه فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي، قال: فأنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما. فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدا، أنت مني بمكان الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا. فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر، فقال: اشهدوا أن زيدا ابني، يرثني وأرثه، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما، وانصرفا، فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام".

وعن عبد الله بن عمر ما قال: أن زيد بن حارثة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}. [الأحزاب]

رواه البخاري.

قلت: ثم إن أخاه جبلة بن حارثة، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن أكرمه الله تعالى بالنبوة، يسأل النبي أن يبعث زيداً معه.

عن أبي إسحاق السبيعي قال: كان جبلة بن حارثة في الحي، فقالوا له: أنت أكبر أم زيد؟ قال: زيد أكبر مني وأنا ولدت قبله، وسأخبركم، إن أمنا كانت من طيئ فماتت، فبقينا في حجر جدنا، فقال عماي لجدنا: نحن أحق بابني أخينا، فقال: خذا جبلة ودعا زيدا، فأخذاني فانطلقا

بي، فجاءت خيل من تهامة فأخذت زيدا، فوقع إلى خديجة فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي عمرو الشيباني قال: أخبرني جبلة بن حارثة قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، ابعث معي أخي زيدا. قال: هوذا فإن انطلق لم أمنعه. فقال زيد: لا والله لا أختار عليك أحدا أبدا. قال: فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي.

إسلام أبي بكر الصديق

قال ابن إسحاق: ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة، واسمه عتيق، واسم أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

قال ابن هشام: واسم أبي بكر: عبد الله، وعتيق: لقب لحسن وجهه وعتقه.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، فيما بلغني: ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة، ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه.

وعن أبي الدرداء قال: كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما صاحبكم فقد غامر، فسلم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك، فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر، ثلاثا، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم، فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ مرتين، فما أوذي بعدها.

رواه البخاري.

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر: أظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان أبو بكر رجلا مألفا لقومه، محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه.

قال: فأسلم بدعائه – فيما بلغني – عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث ابن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وسعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن مرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له فأسلموا وصلوا.

قال ابن إسحاق: فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام، فصلوا وصدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله.

قال ابن إسحاق: ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح، واسمه عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال ابن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر. وأبو سلمة، واسمه عبدالله بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي. والأرقم بن أبي الأرقم. واسم أبي الأرقم عبد مناف بن أسد - وكان أسد يكنى أبا جندب - بن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ابن مرة بن كعب بن لؤي. وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي. وأخواه قدامة وعبدالله ابنا مظعون بن حبيب. وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي. وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزى بن عبدالله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي؛ وامرأته فاطمة بنت الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن عبدالله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدي ابن كعب بن لؤي، أخت عمر بن الخطاب. وأسماء بنت أبي بكر. وعائشة بنت أبي بكر، وهي يومئذ صغيرة. وخباب بن الأرت، حليف بني زهرة.

قال ابن هشام: خباب بن الأرت من بني تميم، ويقال: هو من خزاعة.

قال ابن إسحاق: وعمير بن أبي وقاص، أخو سعد بن أبي وقاص. وعبدالله بن مسعود بن الحارث بن شمخ بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل. ومسعود بن القاري، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرو بن سعد بن عبدالعزى بن حمالة بن غالب بن محلم بن عائذة بن سبيع بن الهون بن خزيمة من القارة.

قال ابن إسحاق: وسليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر؛ وأخوه حاطب بن عمرو. وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي؛ وامرأته أسماء بنت سلامة بن مخربة التميمية. وخنيس بن حذافة بن عدي بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي. وعامر بن ربيعة، من عنز بن وائل، حليف آل الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى.

قال ابن إسحاق: وعبدالله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة. وأخوه أبو أحمد بن جحش، حليفا بني أمية بن عبد شمس. وجعفر بن أبي طالب؛ وامرأته أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة، من خثعم، وحاطب بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي؛ وامرأته فاطمة بنت المجلل بن عبدالله بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر، وأخوه حطاب بن الحارث؛ وامرأته فكيهة بنت يسار. ومعمر بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي. والسائب بن عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب. والمطلب بن أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي، وامرأته: رملة بنت أبي عوف بن صبيرة بن سُعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي. والنحام، واسمه نُعيم بن عبدالله بن أسيد، أخو بني عدي بن كعب بن لؤي.

قال ابن هشام: هو نعيم بن عبدالله بن أسيد بن عبد عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي، وإنما سمي النَّحَّام، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لقد سمعت نَحْمَه في الجنة.

قال ابن هشام: نَحْمَهُ: صَوْتَهُ. و نحمه: حِسَّه.

قال ابن إسحاق: وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر الصديق

قال ابن هشام: عامر بن فُهيرة مولَّد من مولدي الأزد، أسود اشتراه أبو بكر منهم.

قال ابن إسحاق: وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن مرة بن كعب بن لؤي؛ وامرأته أُمينة بنت خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة بن سبيع بن جعثمة بن سعد بن مليح بن عمرو، من خزاعة.

قال ابن إسحاق: وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر. وأبو حذيفة، واسمه مهشم – فيما قال ابن هشام – بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي. وواقد

بن عبدالله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، حليف بني عدي بن كعب.

قال ابن هشام: جاءت به باهلة، فباعوه من الخطاب بن نفيل، فتبناه، فلما أنزل الله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ}. قال: أنا واقد بن عبدالله.

قال ابن إسحاق: وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، حلفاء بني عدي بن كعب. وعمار بن ياسر، حليف بني مخزوم بن يقظة.

قال ابن هشام: عمار بن ياسر عنسي من مذحج.

قال ابن إسحاق: وصهيب بن سنان، أحد النمر بن قاسط، حليف بني تيم بن مرة.

قال ابن هشام: ويقال: صهيب: مولى عبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، ويقال: إنه رومي. فقال بعض من ذكر أنه من النمر بن قاسط، إنما كان أسيرا في أرض الروم، فاشتُري منهم. وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه و سلم: صهيب سابق الروم.

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث بهِ.

قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا، ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بِلَحْي بعير، فشجه، فكان أول دم أُهريق في الإسلام.

جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام

قال ابن إسحاق: ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه؛ وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين – فيما بلغني – من مبعثه؛ ثم قال الله تعالى له: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}. [الحجر] وقال تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}. [الشعراء].

عن عبدالله بن عباس قال: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى البطحاء، فصعد إلى الجبل فنادى: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا تبا لك، فأنزل الله عز وجل: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}. [المسد] إلى آخرها.

رواه البخاري.

وفي رواية: لما نزلت: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}. صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي –لبطون قريش– حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}.

رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}. قال: يا معشر قريش –أو كلمة نحوها– اشتروا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله

شيئا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا.

رواه البخاري ومسلم.

قال ابن إسحاق: فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه – فيما بلغني – حتى ذكر آلهتهم وعابها؛ فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمُّه أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله، مظهرا لأمره، لا يرده عنه شيء. فلما رأت قريش، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه، وقام دونه، فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب. وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

قال ابن هشام: واسم أبي سفيان: صخر.

قال ابن إسحاق: وأبو البختري، و اسمه العاص بن هشام بن الحارث ابن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي. والأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي. وأبو جهل – واسمه عمرو، وكان يكنى أبا الحكم – بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي. والوليد بن المغيرة بن عبدالله ابن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي. و نُبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي. والعاص بن وائل.

قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هاشم بن سُعيد بن سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي.

قال ابن إسحاق: أو من مشى منهم. فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا؛ فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه؛ فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه. ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها، فتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضا عليه. ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا خذلانه.

قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حُدث: أن قريشا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبقِ علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق؛ قال: فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته. قال: ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكى ثم قام؛ فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي؛ قال: فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا.

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له – فيما بلغني –: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك

ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل؛ فقال: والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون ابدا. قال: فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي: و الله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا؛ فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك، أو كما قال. قال: فحقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضا.

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم بعمه أبي طالب، وقد قام أبو طالب، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب، عدو الله الملعون.

مكر الوليد بن المغيرة

قال مصعب بن عبدالله: هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وأمه صخرة بنت الحارث بن عبد الله بن عبد شمس، من قبيلة بجيلة. وهو والد خالد بن الوليد

قال ابن إسحاق: ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سِنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقلْ وأقمْ لنا رأيا نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمعْ؛ قالوا: نقول كاهن؛ قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه؛ قالوا: فنقول: مجنون؛ قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته؛ قالوا: فنقول: شاعر؛ قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول: ساحر؛ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُحَّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم؛ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة و في ذلك من قوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا}. أي: خصيما.

قال ابن هشام: عنيد: معاند مخالف.

{سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}. [المدَّثِّر].

قال ابن هشام: بسر: كره وجهه.

قال ابن إسحاق: وأنزل الله تعالى: في النفر الذين كانوا معه يصنفون القول في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيما جاء به من الله تعالى: {كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. [الحِجر].

قال ابن هشام: واحدة العضين: عضة، يقول: عضوه: فرقوه.

قال ابن إسحاق: فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا من الناس، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

قال ابن إسحاق: ثم إن قريش اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لا يستخفي به، مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم كفرهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني يحي بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يُظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم، وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا: فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح. قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفَؤُه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولا، قال: فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم؛ فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم؛ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، أنا الذي أقول ذلك. قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه،

قال: فقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض آل أم كلثوم بنت أبي بكر، أنها قالت: لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه، مما جبذوه بلحيته وكان كثير الشعر.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم: أشد ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حر ولا عبد، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ}. [المدّثِّر].

إسلام حمزة بن عبدالمطَّلِب

قال ابن إسحاق: حدثني رجل من أسلم، كان واعية: أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره؛ فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومولاة لعبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبدالمطلب أن أقبل متوشحا قوسه، راجعا من قنص له، و كان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة، فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، قالت له: يا أبا عُمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام: وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم، فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِدّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به؛ فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد ذلك علي إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا، وتم حمزة على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

قال مصعب بن عبدالله في نسب أبي الحكم بن هشام: عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكان يكنّى أبا الحكم، فكنّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل.

خبر عتبة بن ربيعة مع النبي صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدا، قال يوما وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه؛ فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد، أسمعْ؛ قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني؛ قال: أفعل؛ فقال: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}. [فصّلت] ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا

الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به؛ قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

خبر إنشقاق القمر

قال تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ}. [القمر].

عن عبدالله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشقتين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اشهدوا".

رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية عند مسلم: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقتين، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اشهد".

وفي رواية عن البخاري: "انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى، فقال: اشهدوا وذهبت فرقة نحو الجبل".

وفي رواية عند البخاري: "انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا".

وعن أنس بن مالك قال: أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين.

رواه مسلم.

وفي رواية عند البخاري، عن أنس بن مالك : أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما.

مفاوضة زعماء قريش للنبي صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق: ثم ان الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين، ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة، كما حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير، وعن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبدالله بن عباس ما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر ابن الحارث بن كلدة، أخو بني عبدالدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم. قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم؛ فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم؛ فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك – أو كما قالوا له – فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا – فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أونُعذر فيك؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، أو كما قال صلى الله عليه وسلم. قالوا: يا محمد،

فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فَلْيُسيرِّ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش منا كما تلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا – أو كما قال – فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل. قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قام عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم – وهو ابن عمته، فهو لعاتكة بنت عبدالمطلب – فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله

منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

قال ابن إسحاق: وأنزل الله عليه فيما قال عبدالله بن أبي أمية: {وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا}. [الإسراء].

قال ابن هشام: الينبوع: ما نبع من الماء من الأرض وغيرها، وجمعه: ينابيع. والكِسَف: القطع من العذاب، وواحدته: كِسَفة، مثل سدرة وسدر. وهي أيضا: واحدة الكسف. والقبيل: يكون مقابلة ومعاينة، وهو كقوله تعالى: {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا}. [الكهف] أي: عيانا. . ويقال: القبيل: جمعه قُبُل، وهي الجماعات، وفي كتاب الله تعالى: {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا}. [الأنعام]. فقُبل: جمع قبيل، مثل سبل: جمع سبيل، وسرر: جمع سرير، و قمص: جمع قميص.. ويقال: إنما أريد بهذا القبيل: الفتل، فما فتل إلى الذارع فهو القبيل، وما فتل إلى أطراف الأصابع فهو الدبير، وهو من الإقبال والإدبار الذي ذكرت. ويقال: فتل المغزل. فإذا فُتل المغزل إلى الركبة فهو القبيل، وإذا فتل إلى الورك فهو الدبير. والقبيل أيضا: قوم الرجل. والزخرف: الذهب. والمزخرف: المزين بالذهب.

قال ابن إسحاق: وأُنزل في قولهم: إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة، يقال له الرحمن، ولن نؤمن به أبدا: {كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}. [الرعد]. وأُنزل عليه فيما قال أبو جهل بن هشام، وما هم به: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب}. [العلق].

قال ابن إسحاق: وأنزل الله تعالى عليه فيما عرضوا عليه من أموالهم: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}. [سبأ].

قلت: ويظهر لي أن هذا الاجتماع، وقع بعد واقعة انشقاق القمر، وإنما سألوه ما سألوه تعنّتاً لا طلباً للحقّ، ولو فعل رسول الله تعالى، وأجابهم الله تعالى، لما صدّقوه، ولزعموا أنه سحرهم، كما فعلوا عندما شقّ لهم القمر فرقتين، ولذلك لم يجبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما طلبوا.

خبر أبي جهل لعنه الله مع النبي صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق: فلما قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أُطيق حمله – أو كما قال – فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم؛ قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبدا، فامض لما تريد. فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى، صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه.

قال ابن إسحاق: وأُنزل عليه فيما قال أبو جهل بن هشام، وما هم به: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩}. [العلق].

قال ابن إسحاق: فلما قال لهم ذلك أبو جهل، قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبدالدار بن قصي.

قال مصعب بن عبدالله: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف.

قال ابن إسحاق: فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم؛ وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم؛ وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه؛ وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم. وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحِيَرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكَّر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش، أحسن حديثا منه، فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا مني؟

قال ابن هشام: وهو الذي قال فيما بلغني: {سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّه}. [الأنعام].

قال ابن إسحاق: وكان ابن عباس ما يقول – فيما بلغني –: نزل فيه ثمان آيات من القرآن: قول الله عز وجل: {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}. [القلم] وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن.

قريش تسأل اليهود في شأن النبي صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق: فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث، بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّل، فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل، فهو رجل مُتقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فرَوْا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب؛ وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال: فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبركم بما سألتم عنه غدا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما يذكرون – خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمدا غدا، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة: ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبريل حتى سُؤت ظنا؛ فقال له جبريل: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} . [مريم]. فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده وذكر نبوة رسوله، لما أنكروه عليه من ذلك، فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا} . [الكهف]. يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، إنك رسول مني: أي تحقيق لما سألوه عنه من نبوتك. {قَيِّمًا} . [الكهف]. أي معتدلا، لا اختلاف فيه. {لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ} . [الكهف]. أي عاجل عقوبته في الدنيا. وعذابا أليما في الآخرة: أي من عند ربك الذي بعث رسولا. {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} . [الكهف]. أي دار الخلد. {مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا} . [الكهف]. الذين صدقوك بما جئت به مما كذبك به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال. {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} . [الكهف]. يعني قريشا في قولهم: إنا نعبد الملائكة، وهي بنات الله. {مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ} . [الكهف]. الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم. {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبً} . [الكهف]. أي لقولهم: إن الملائكة بنات الله. {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ} . [الكهف]. يا محمد {عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} . [الكهف]. أي لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم، أي لا تفعل.

قال ابن هشام: باخع نفسك، أي مهلك نفسك، فيما حدثني أبو عبيدة.

قال ابن إسحاق: أي أيهم أتبع لأمري، وأعمل بطاعتي. {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} . [الكهف]. أي الأرض، وإن ما عليها لفان وزائل، وإن المرجع إلي، فأجزي كلا بعمله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى فيها.

قال ابن هشام: الصعيد: الأرض، وجمعه: صعد. . والصعيد أيضا: الطريق. وقد جاء في الحديث: إياكم والقعود على الصعدات. يريد الطرق. والجرز: الأرض التي لا تنبت شيئا، وجمعها: أجراز. ويقال: سنة جرز، وسنون أجراز، وهي التي لا يكون فيها مطر، وتكون فيها جُدوبة ويُبْس وشدة. .

قال ابن إسحاق: ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية، فقال: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا}. [الكهف]. أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حججي ما هو أعجب من ذلك.

قال ابن هشام: والرقيم: الكتاب الذي رُقم فيه بخبرهم، وجمعه: رُقُم.

قال ابن إسحاق: ثم قال تعالى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}. ثم قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ}. [الكهف]. أي بصدق الخبر عنهم {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا}. [الكهف] أي لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم.

قال ابن هشام: والشطط: الغلو ومجاوزة الحق.

{هَؤُلاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ}. [الكهف].

قال ابن إسحاق: أي بحجة بالغة.

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ}. [الكهف].

قال ابن هشام: تزاور: تميل، وهو من الزور.

و{تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ}. [الكهف] تجاوزهم وتتركهم عن شمالها.

{ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّه}. [الكهف]. أي في الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب، ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم في صدق نبوتك بتحقيق الخبر عنهم.

{مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}. [الكهف].

قال ابن هشام: الوصيد: الباب. . والوصيد أيضا: الفناء، وجمعه: وصائد، ووصد، ووصدان، وأصد، وأصدان.

{لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا}. إلى قوله: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ}. أهل السلطان والملك منهم: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}. [الكهف]. يعني أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ}. [الكهف]. أي لا علم لهم. {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاء ظَاهِرًا}. [الكهف]. أي لا تكابرهم. {وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا}. [الكهف]. فإنهم لا علم لهم بهم.

{وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا}. [الكهف]. أي ولا تقولن لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا: إني مخبركم غدا. واستثن شِيْئَة الله، واذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهدين ربي لخير مما سألتموني عنه رشدا، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك. {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا}. [الكهف]. أي سيقولون ذلك. {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}. [الكهف]. أي لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه.

وقال فيما سألوه عنه من أمر الرجل الطواف: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا}. [الكهف]. حتى انتهى إلى آخر قصة خبره.

وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}. [الإسراء].

قال ابن إسحاق: فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتِّباعه وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}. [فصلت] أي: اجعلوه لغوا وباطلا، واتخذوه هزوا لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم.

فقال أبو جهل يوما و هو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددا، وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا..}. [المدَّثِّر].. إلى آخر القصة، فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلي، يتفرقون عنه، ويأبون أن يستمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوته، فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته، وسمع هو شيئا دونهم أصاخ له يستمع منه.

قال ابن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، مولى عمرو بن عثمان، أن عكرمة مولى ابن عباس حدثهم أن عبدالله بن عباس ما حدثهم: إنما أنزلت هذه الآية: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}. [الإسراء] من أجل أولئك النفر. يقول: لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك، ولا تخافت بها فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم لعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به.

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبدالله بن مسعود، قال: اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجُهر لها به قط، فمن رجل يُسمعهموه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا؛ قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه؛ قال: دعوني فإن الله سيمنعني.

قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. رافعا بها صوته {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ}. [الرحمن] قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك؛ فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا؛ قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حُدِّث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكُلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود: فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها؛ قال الأخنس: وأنا والذي حلفتَ به كذلك.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسَيْ رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء؛ فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

تعنّت قريش عند سماعها للقرآن

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عله وسلم إذا تلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، قالوا يهزؤون به: {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ}. لا نفقه ما تقول {وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ}. لا نسمع ما تقول {وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}. قد حال بيننا وبينك {فَاعْمَلْ}. بما أنت عليه {إِنَّنَا عَامِلُونَ}. [فصلت]. بما نحن عليه، إنا لا نفقه عنك شيئا، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قولهم: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا}.. إلى قوله {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}. [الإسراء]. أي كيف فهموا توحيدك ربك إن كنت جعلت على قلوبهم أكنة، و في آذانهم وقرا، وبينك وبينهم حجابا بزعمهم؛ أي إني لم أفعل ذلك. {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا}. [الإسراء]. أي ذلك ما تواصوا به من ترك ما بعثتك به إليهم. {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً}. [الإسراء]. أي أخطئوا المثل الذي ضربوا لك، فلا يصيبون به هدى، ولا يعتدل لهم فيه قول {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا}.}. [الإسراء]. أي قد جئت تخبرنا أنا سنُبعث بعد موتنا إذا كنا عظاما ورفاتا، وذلك ما لا يكون. {قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}. [الإسراء]. أي الذي خلقكم مما تعرفون، فليس خَلْقكم من تراب بأعز من ذلك عليه.

استمرار قريش في أذية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عدوا على من أسلم، واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصْلَب لهم، ويعصمه الله منهم، وكان بلال، مولى أبي بكر ما، لبعض بني جمح، مولَّدا من مولديهم، وهو بلال بن رباح، وكان اسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يُخْرِجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا و الله لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى؛ فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد.

قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك، وهو يقول: أحد أحد؛ فيقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بني جمح، فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا، حتى مر به أبو بكر الصديق ابن أبي قحافة يوما، وهم يصنعون ذلك به، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى؛ فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به؛ قال: قد قبلت، فقال: هو لك. فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم، عامر بن فهيرة، شهد بدرا وأُحدا، وقتل يوم بئر معونة شهيدا؛ وأم عُبيس وزِنِّيرة، وأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى؛ فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فرد الله بصرها، وأعتق النهدية وبنتها، وكانتا لامرأة من بني عبدالدار، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها، وهي تقول: والله لا أعتقكما أبدا، فقال أبو بكر : حِلٌّ يا أم فلان؛ فقالت: حِلٌّ، أنت أفسدتهما فأعتقهما؛ قال: فبكم هما؟ قال: بكذا

وكذا؛ قال: قد أخذتهما وهما حرتان، أرجعا إليها طحينها، قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ قال: وذلك إن شئتما، ومر بجارية بني مؤمل، حي من بني كعب، وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك وهو يضربها، حتى إذا مل قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا ملالة؛ فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكر، فأعتقها.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن عبدالله بن أبي عتيق، عن عامر بن عبدالله بن الزبير، عن بعض أهله، قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: يا بني، إني أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جُلْدا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر : يا أبت، إني إنما أريد ما أريد، لله عز وجل. قال: فيُتحدَّث أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه، وفيما قال له أبوه: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ} . . إلى قوله تعالى: {وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ}. [الليل].

قال ابن إسحاق: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول، فيما بلغني: صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة. فأما أمه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام، وكان أبو جهل الفاسق الذي يُغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنَّبه وأخزاه. وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولَنُفيِّلَنّ رأيك، ولنضعن شرفك؛ وإن كان تاجرا قال: والله لنُكسدنّ تجارتك، ولنهلكن مالك؛ وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به.

قال ابن إسحاق: وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير، قال: قلت لعبدالله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجُيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له؛ آللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجُعَل ليمر بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده.

قال ابن إسحاق: وحدثني الزبير بن عكاشة بن عبدالله بن أبي أحمد أنه حُدِّث أن رجالا من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد، حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد بن المغيرة، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا، منهم: سلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة. قال: فقالوا له وخشوا شرهم: إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوا، فإنا نأمن بذلك في غيرهم. قال: هذا، فعليكم به، فعاتبوه وإياكم ونفسه.. احذروا على نفسه، فأُقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا. قال: فقالوا: اللهم العنه، من يُغرّر بهذا الخبيث، فوالله لو أصيب في أيدينا لقُتل أشرفنا رجلا. قال: فتركوه ونزعوا عنه. قال: وكان ذلك مما دفع الله به عنهم.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه.

قال ابن إسحاق: من بني هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر: جعفر بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، معه امرأته أسماء بنت عُميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم، ولدت له بأرض الحبشة عبدالله بن جعفر.

ومن بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، معه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، معه امرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية بن محرث بن خُمْل بن شقّ بن رقبة بن مُخُدج الكناني، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، معه امرأته أُمينة بنت خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة بن سبيع بن جُعْثمة بن سعد بن مُليح بن عمرو، من خزاعة.

قال ابن هشام: ويقال: همُينة بنت خلف.

قال ابن إسحاق: ولدت له بأرض الحبشة سعيد بن خالد، وأمه بنت خالد، فتزوج أمة بعد ذلك الزبير بن العوام، فولدت له عمرو بن الزبير، وخالد بن الزبير.

ومن حلفائهم، من بني أسد بن خزيمة: عبدالله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد؛ وأخوه عبيد الله بن جحش، معه امرأته أم حبيبة بنت

أبي سفيان بن حرب بن أمية؛ وقيس بن عبدالله، رجل من بني أسد بن خزيمة، معه امرأته بركة بنت يسار، مولاة أبي سفيان بن حرب بن أمية؛ ومعيقيب بن أبي فاطمة.

قال ابن هشام: ومُعيقيب من دوس.

قال ابن إسحاق: ومن بني عبد شمس بن عبد مناف، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس معه امرأته: سهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبي حذيفة، وأبو موسى الأشعري، واسمه عبدالله بن قيس، حليف آل عتبة بن ربيعة.

قلت: وأبو موسى من بني الأشعر، وهم قبيلة من مذحج، قاله أبو المنذر. وفيه دليل على أن ابا موسى الأشعري من أوائل من أسلم ن الصحابة، وأنه كان يقيم بمكة من قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نسيب بن مالك بن الحارث بن مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، حليف لهم.

ومن بني أسد بن عبدالعزى بن قصي: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، والأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد، ويزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، وعمرو بن أمية بن الحارث بن أسد.

ومن بني عبد بن قصي: طُليب بن عمير بن وهب بن أبي كبير بن عبد بن قصي.

ومن بني عبدالدار بن قصي: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار؛ وسويبط بن سعد بن حرملة بن مالك بن عُميلة بن السباق ابن عبدالدار؛ وجهم بن قيس بن عبد شُرحبيل بن هاشم بن عبد مناف ابن عبدالدار، معه امرأته أم حرملة بنت عبدالأسود بن جذيمة بن أقيش ابن عامر بن بياضة بن سبيع بن جعثمة بن سعد بن مُليح بن عمرو، من خزاعة؛ وابناه: عمرو بن جهم وخزيمة بن جهم؛ وأبو الروم ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار؛ وفراس بن النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبدالدار.

ومن بني زهرة بن كلاب: عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد ابن الحارث بن زهرة؛ وعامر بن أبي وقاص وأبو وقاص، مالك بن أهيب ابن عبد مناف بن زهرة؛ والمطلب بن أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة، معه امرأته رملة بنت أبي عوف بن ضُبيرة بن سُعيد بن سعد بن سهم، ولدت له بأرض الحبشة عبدالله بن المطلب.

ومن حلفائهم من هذيل: عبدالله بن مسعود بن الحارث بن شمخ بن مخزوم ابن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، وأخوه: عتبة بن مسعود. ومن بهراء: المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن زهير بن لؤي بن ثعلبة بن مالك بن الشريد ابن أبي أهوز بن أبي فائش بن دُريم بن القين بن أهود بن بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وكان يقال له المقداد بن الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، وذلك أنه تبناه في الجاهلية.

ومن بني تيم بن مرة: الحارث بن خالد بن صخر بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، معه امرأته ريطة بنت الحارث بن جبلة بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم، ولدت له بأرض الحبشة موسى بن الحارث، وعائشة بنت الحارث، وزينب بنت الحارث، وفاطمة بنت الحارث، وعمرو بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم.

ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة: أبو سلمة بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ابن عبدالله بن عمر بن مخزوم، ولدت له بأرض الحبشة زينب بنت أبي سلمة، واسم أبي سلمة: عبدالله، واسم أم سلمة: هند، وشماس بن عثمان بن الشريد بن سويد بن هَرْمي بن عامر بن مخزوم.

قال ابن هشام: واسم شماس: عثمان، وإنما سمي شماسا، لأن شماسا من الشمامسة، قدم مكة في الجاهلية، وكان جميلا فعجب الناس من جماله، فقال عتبة بن ربيعة، وكان خال شماس: أنا آتيكم بشماس أحسن منه. فجاء بابن أخته عثمان بن عثمان، فسمي شماسا.

قال ابن إسحاق: وهبار بن سفيان بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله ابن عمر بن مخزوم؛ وأخوه عبدالله بن سفيان؛ وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم؛ وسلمة بن هشام

بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم؛ وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم.

ومن حلفائهم: معتب بن عوف بن عمر بن الفضل بن عفيف بن كليب بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو، من خزاعة، وهو الذي يقال له: عَيْهامة.

قال ابن هشام: ويقال: حُبشية بن سلول، وهو الذي يقال له معتب بن حمراء.

ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب: عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح؛ وابنه السائب بن عثمان؛ وأخواه قدامة بن مظعون، وعبدالله بن مظعون؛ وحاطب بن الحارث بن معمر ابن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح، معه امرأته فاطمة بنت المجلَّل بن عبدالله بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر؛ وابناه: محمد بن حاطب، والحارث بن حاطب، وهما لبنت المجلل؛ وأخوه حطاب بن الحارث، معه امرأته فكيهة بنت يسار؛ وسفيان بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح، معه ابناه: جابر بن سفيان، وجنادة بن سفيان، ومعه امرأته حسنة، وهي أمهما، وأخوهما من أمهما شرحبيل بن حسنة، أحد الغوث.

قال ابن هشام: شرحبيل بن عبدالله أحدُ الغوث بن مر، أخي تميم بن مر.

قال ابن إسحاق: وعثمان بن ربيعة بن أهبان بن وهب بن حذافة بن جمح.

ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛ وعبدالله بن الحارث بن قيس ابن عدي بن سعد بن سهل، وهشام بن العاص بن وائل بن سعد بن سهم. قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم. قال ابن إسحاق: وقيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛ وأبو قيس بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛ وعبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛ والحارث بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛ ومَعْمَر بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛ وبشر بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛ وأخ له من أمه من بني تميم، يقال له: سعيد بن عمرو؛ وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛

والسائب بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم؛ وعمير بن رئاب بن حذيفة بن مهشم بن سعد بن سهم. ومَحْمية بن الجزاء، حليف لهم، من بني زبيد.

قلت: زَبيد، قبيلة من مذحج، قاله أبو المنذر.

قال ابن إسحاق: ومن بني عدي بن كعب: معمر بن عبدالله بن نضلة بن عبدالعزى بن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي؛ وعروة بن عبدالعزى بن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي؛ وعدي بن نضلة بن عبدالعزى بن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي؛ وابنه النعمان بن عدي؛ وعامر بن ربيعة، حليف آل الخطاب، من عنز بن وائل.

قال ابن هشام: ويقال: من عنزة بن أسد بن ربيعة.

قال ابن إسحاق: ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن حذافة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب.

ومن بني عامر بن لؤي: أبو سبرة ابن أبي رهم بن عبدالعزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر، معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر؛ وعبدالله بن مخرمة بن عبدالعزى بن أبي قيس ابن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر، وعبدالله بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن مالك بن حسل بن عامر؛ وسليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر؛ وأخوه السكران بن عمرو، معه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر؛ ومالك بن زمعة ابن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر، معه امرأته عمرة بنت السعدي بن وقدان بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر؛ وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر؛ وسعد بن خولة، حليف لهم.

قال ابن هشام: سعد بن خولة من اليمن.

قال ابن إسحاق: ومن بني الحارث بن فهر: أبو عبيدة بن الجراح، وهو عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال بن أُهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر؛ وسهيل بن بيضاء، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث، ولكن أمه غلبت على نسبه، فهو ينسب إليها، وهي دعد بنت جحدم بن أمية من ظرب بن الحارث بن فهر، وكانت تدعى بيضاء؛ وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث؛ وعياض بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث، ويقال: بل ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث؛ وعمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث؛ وعثمان بن عبد غنم بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث؛ وسعد بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر؛ والحارث بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر.

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة، وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارا وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلا، إن كان عمار بن ياسر فيهم، وهو يُشَكُّ فيه.

قلت: وقول ابن إسحاق عن عمّار: وهو يُشَكُّ فيه. أي: يَشُكُّ الرواة هل هاجر إلى الحبشة أم لا.

قال ابن إسحاق: وكان أول من خرج من المسلمين من بني أمية بن عبد شمس: عثمان بن عفان، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن بني عبد شمس بن عبد مناف: أبو حذيفة بن عتبة، ومعه امرأته: سهلة بنت سهيل بن عمرو. ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الزبير بن العوام. ومن بني عبد الدار بن قصي: مصعب بن عمير. ومن بني زهرة بن كلاب: عبد الرحمن ابن عوف. ومن بني مخزوم ابن يقظة: أبو سلمة بن عبد الأسد، ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية. ومن بني جمح بن عمرو: عثمان بن مظعون. ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة. ومن بني عامر بن لؤي: أبو سبرة بن أبي رهم، ويقال: بل أبو حاطب بن عمرو، ويقال: هو أول من قدمها. ومن بني الحارث بن فهر: سهيل بن بيضاء. فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة، فيما بلغني.

قال ابن هشام: وكان عليهم عثمان بن مظعون، فيما ذكر لي بعض أهل العلم.

إرسال قريش إلى النجاشي لردّ المسلمين إليهم

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي، فيردهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم، التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها؛ فبعثوا عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه؛ فلما بلغ ذلك قريشا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدُم – جمع أديم، وهو الجلد المدبوغ – فجمعوا له أُدُما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم؛ فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم،

فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرُداهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما ولا يكاد، قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: أيها الملك، كُنّا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – قالت: فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك؛ ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: فاقرأه علي؛ قالت:

فقرأ عليه صدرا من: {كهيعص}. [مريم] قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون. قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. قالت: فقال له عبدالله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاما، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم، يقول: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودا، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قُلتَ هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيوم بأرضي – والشيوم: الآمنون – مَن سبَّكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم. ما أحب أن لي دبرا من ذهب، وأني آذيت رجلا منكم، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار. قالت: فوالله إنا لعلى ذلك، إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه. قالت: فوالله ما علمتُنا حزنَّا حزنا قطُّ كان أشد علينا من حزن حزنَّاه عند ذلك، تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه. قالت: وسار إليه النجاشي، وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا، قالوا: فأنت. وكان من أحدث القوم سنا. قالت: فنفخوا له

قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده. قالت: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده. قالت: فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها. قالت: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، واستوسق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة.

قال ابن هشام: ويقال دبرا من ذهب، ويقال: فأنتم سُيوم، والدبر: بلسان الحبشة: الجبل.

قال ابن إسحاق: قال الزهري: فحدثت عروة بن الزبير حديث أبي بكر بن عبدالرحمن، عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: هل تدري ما قوله: ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناسَ فيّ فأطيع الناس فيه؟ قال: قلت: لا؛ قال: فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قومه، ولم يكن له ولد إلا النجاشي، وكان للنجاشي عم، له من صلبه اثنا عشر رجلا، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملّكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلا، فتوارثوا ملكه من بعده، بقيت الحبشة بعده دهرا؛ فغدوا على أبي النجاشي فقتلوه، وملّكوا أخاه، فمكثوا على ذلك حينا. ونشأ النجاشي مع عمه، وكان لبيبا حازما من الرجال، فغلب على أمر عمه، ونزل منه بكل منزلة؛ فلما رأت الحبشة مكانه منه، قالت بينها: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملّكه علينا، وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه. فمشوا إلى عمه فقالوا: إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنا قد خفناه على أنفسنا؛ قال: ويلكم! قتلت أباه بالأمس، وأقتله اليوم! بل أخرجه من بلادكم. قالت: فخرجوا به إلى السوق، فباعوه من رجل من التجار بست مئة درهم؛ فقذفه في سفينة فانطلق به، حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم، هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها، فأصابته صاعقة فقتلته. قالت: ففزعت الحبشة إلى ولده، فإذا هو محمَّق، ليس في ولده خير، فمرج على الحبشة أمرهم. فلما ضاق عليهم ما هم فيه من ذلك،

قال بعضهم لبعض: تعلموا والله أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره للذي بعتم غدوة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه الآن. قالت: فخرجوا في طلبه، وطلب الرجل الذي باعوه منه حتى أدركوه، فأخذوه منه؛ ثم جاءوا به، فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سرير الملك، فملكوه. فجاءهم التاجر الذي كانوا باعوه منه، فقال: إما أن تعطوني مالي، وإما أن أكلمه في ذلك؟ قالوا: لا نعطيك شيئا، قال: إذن والله أكلمه؛ قالوا: فدونك وإياه. قالت: فجاءه فجلس بين يديه، فقال: أيها الملك، ابتعت غلاما من قوم بالسوق بست مئة درهم، فأسلموا إلي غلامي وأخذوا دراهمي، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني، فأخذوا غلامي، ومنعوني دراهمي. قالت: فقال لهم النجاشي: لتُعطُنَّه دراهمه، أو ليضعن غلامه يده في يده، فليذهبن به حيث شاء؛ قالوا: بل نعطيه دراهمه. قالت: فلذلك يقول: ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأُطيع الناس فيه. قالت: وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته في دينه، وعدله في حكمه.

قال ابن إسحاق: وحدثني جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقت ديننا، وخرجوا عليه. فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهيأ لهم سفنا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هزمتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا. ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم؛ ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصفُّوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى؛ قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة؛ قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد؛ قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله؛ فقال النجاشي، ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى بن مريم، لم يزد على هذا شيئا، وإنما يعني ما كتب، فرضوا وانصرفوا عنه. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلما مات النجاشي صلى عليه، واستغفر له .

إسلام عمر بن الخطاب

قال ابن إسحاق: قال البكائي، قال: حدثني مسعر بن كدام، عن سعد بن إبراهيم، قال: قال عبدالله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

ورواه ابن سعد في الطبقات، عن يعلى ومحمد ابنا عبيد، وعبيد الله بن موسى، والفضل بن دكين، ومحمد بن عبد الله الأسدي، قالوا : أخبرنا مسعر، عن القاسم بن عبدالرحمن، قال: قال عبدالله بن مسعود، ثم ساق الخبر.

قال ابن إسحاق: حدثني عبدالرحمن بن الحارث بن عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، عن عبدالعزيز بن عبدالله بن عامر بن ربيعة، عن أمه أم عبدالله بنت أبي حثمة، قالت: و الله إنا لنترحَّل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا، قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبدالله. قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا. قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه – فيما أرى – خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله، لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعتِ في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم؛ قال: فلا يسلم الذي رأيتِ حتى يسلم حمار الخطاب؛ قالت: يأسا منه، لما كان يُرى من غلظته وقسوته عن الإسلام.

قلت: وقد اختلف في كيفيّة إسلام عمر بن الخطّاب على روايتين:

الأولى: ما رواه ابن إسحاق قال: وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نُعيم بن عبدالله النحَّام من مكة، رجل من قومه، من بني عدي ابن كعب قد أسلم، وكان أيضا يستخفي بإسلامه فرقا من قومه، وكان خباب بن

الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبدالمطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين م، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة. فلقيه نعيم بن عبدالله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدا هذا الصابئ، الذي فرَّق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله؛ فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبدمناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: خَتَنُكَ وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما. قال: فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة، فيها: {طه}. يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئا؛ قال: بلى والله، لقد أُخبِرت أنكما تابعتما محمدا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد؛ فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها؛ فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبا؛ فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها؛ قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها؛ فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: {طه}. فقرأها؛ فلما قرأ منها صدرا، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج عليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو

بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسلم؛ فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فضرب عليهم الباب؛ فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر من خَلل الباب فرآه متوشحا السيف، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف؛ فقال حمزة بن عبدالمطلب: فأذنْ له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْزته، أو بمجمع ردائه، ثم جَبَذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزِل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله؛ قال: فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم. فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينتصفون بهما من عدوهم. فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم.

والرواية الثانية، قال ابن إسحاق: وحدثني عبدالله بن أبي نجيح المكي، عن أصحابه: عطاء، ومجاهد، أو عمن روى ذلك: أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعدا، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأُسرُّ بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحَزْوَرة، عند دور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحدا. قال: فقلت: لو أني جئت فلانا الخمَّار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمرا فأشرب منها. قال: فخرجت فجئته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني.

قال: فقلت حين رأيته، والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! قال: فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروّعنه؛ فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويدا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائما في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته، ثم انصرف.

قال ابن إسحاق: وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين، وكانت طريقه، حتى يجزع المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن عبدالمطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبدعوف الزهري، ثم على دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنه صلى الله عليه وسلم في الدار الرقطاء، التي كانت بيدي معاوية بن أبي سفيان.

قال عمر: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته؛ فلما سمع رسول اله صلى الله عليه وسلم حسي عرفني، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أني إنما تبعته لأوذيه فنهمني، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: جئت لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله؛ قال: فحمد اللهَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته.

قال ابن إسحاق: أي ذلك كان.

قلت: والراجح في إسلام عمر بن الخطاب، هو الخبر الذي رواه أهل المدينة، لأن الخبر المروي عن عطاء ومجاهد، قد ينسب إلى أي شخص، أما خبر أهل المدينة فلا يمكن نسبته إلّا لعمر بن الخطاب، فهو أخو فاطمة بنت الخطّاب، وخَتَن سعيد بن زيد، ويظهر أن الخبر الذي رواه عطاء ومجاهد، وقع لأحد رجالات قريش، فوهم الراوي الذي رواهما الخبر، فظن أن ذلك الرجل هو عمر،

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع مولى عبدالله بن عمر، عن ابن عمر، قال: لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. قال: فغدا عليه. قال عبدالله

بن عمر: فغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت، ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر، واتبعت أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا. قال: و يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم. قال: وطَلِحَ، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا؛ قال: فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش، عليه حُلَّة حِبْرَة، وقميص موشّى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبا عمر؛ فقال: فمه، رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يُسلمون لكم صاحبكم هكذا! خلوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبا كُشط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهم يقاتلونك؟ فقال: ذاك، أي بُنيّ، العاص بن وائل السهمي.

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم، أنه قال: يا أبت، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهم يقاتلونك، جزاه الله خيرا. قال: يا بني، ذلك العاص بن وائل، لا جزاه الله خيرا.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبدالرحمن بن الحارث عن بعض آل عمر، أو بعض أهله، قال: قال عمر: لما أسلمت تلك الليلة، تذكرت أيّ أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت؛ قال: قلت: أبو جهل – وكان عمر، لحنتمة بنت هشام بن المغيرة – قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه. قال: فخرج إلي أبو جهل، فقال: مرحبا وأهلا بابن أختي، ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به؛ قال: فضرب الباب في وجهي وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به.

تحالف قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وآله

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبدالمطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم، و بني المطلب، على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وكان كاتبَ الصحيفة منصورُ بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار بن قصي.

قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث.

قال ابن إسحاق: فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشُلّ بعض أصابعه. فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبدالمطلب، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب، عبدالعزى بن عبدالمطلب، إلى قريش، فظاهرهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني حسين بن عبدالله: أن أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة، حين فارق قومه، وظاهر عليهم قريشا، فقال: يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى، وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: نعم، فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة.

قال ابن إسحاق: وحُدِّثت أنه كان يقول بعض ما يقول: يعدني محمد أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يديّ بعد ذلك؟ ثم ينفخ في يديه ويقول: تبا لكما، ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد. فأنزل الله تعالى فيه: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}. [المسد].

وقد كان أبو جهل بن هشام – فيما يذكرون – لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، معه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله صلى الله عليه

وسلم، ومعه في الشعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة.

فجاءه أبو البَخْتري بن هشام بن الحارث بن أسد، فقال: ما لك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها! خلّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له أبو البختري لَحْي بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطأ شديدا، وحمزة بن عبدالمطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فيشمتوا بهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك يدعو قومه ليلا ونهارا، و سرا وجهارا، مباديا بأمر الله لا يتقي فيه أحدا من الناس.

قال ابن إسحاق: فجعلت قريش حين منعه الله منها، وقام عمه وقومه من بني هاشم، وبني المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به، يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم، ومنهم من سمّى لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار، فكان ممن سمّي لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب بن عبدالمطلب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية، حمَّالة الحطب، وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب، لأنها كانت – فيما بلغني – تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر، فأنزل الله تعالى فيهما: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}. [المسد].

قال ابن إسحاق: فذُكر لي: أن أم جميل: حمالة الحطب، حين سمعت ما نزل فيها، وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فِهْر من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت: مذمما عصينا وأمره أبَيْنا. ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تُراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني.

قال ابن إسحاق: وكانت قريش إنما تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم مذمما، ثم يسبونه، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش، يسبون و يهجون مذمما، وأنا محمد.

وأمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ

أَخْلَدَهُ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ}. [الهمزة].

قال ابن إسحاق: والعاص بن وائل السهمي، كان خباب بن الأرت، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قينا بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص ابن وائل سيوفا عملها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خباب، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلُها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم! قال خباب: بلى. قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله مني، ولا أعظم حظا في ذلك.فأنزل الله تعالى فيه: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا}.. إلى قوله تعالى: {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا}. [مريم].

ولقي أبو جهل بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما بلغني – فقال له: والله يا محمد، لتتركن سب آلهتنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبد.فأنزل الله تعالى فيه: {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}. [الأنعام]. فذُكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كف عن سب آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله.

والنضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبدالدار بن قصي، كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا، فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن، وحذر فيه قريشا ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم السنديد، وعن أسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتتبها كما اكتتبتها. فأنزل الله فيه: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}. [الفرقان]. ونزل فيه: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}. [القلم] .ونزل فيه: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}. [الجاثية].

قال ابن إسحاق: وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما – فيما بلغني – مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ}. [الأنبياء].

قال ابن إسحاق: ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقبل عبدالله بن الزبعرى السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبدالله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبدالمطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبدالله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته خصمته، فسلوا محمدا: أكلّ ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى بن مريم عليهما السلام، فعجب الوليد، ومن كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.فذُكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قول ابن الزبعرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرتهم بعبادته.فأنزل الله تعالى عليه في ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ}. [الأنبياء]. أي عيسى بن مريم، وعزيرا، ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذي مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزَّل فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ}. . إلى قوله: {وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}. [الأنبياء]. ونزّل فيما ذكر من أمر عيسى بن مريم أنه يُعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}. [الزخرف]. أي يصدون عن أمرك بذلك من قولهم. ثم ذكر عيسى بن مريم فقال: {إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ

مُّسْتَقِيمٌ}. [الزخرف]. أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة.

قلت: ما ذكره ابن إسحاق في تأويل قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ}. خطأ، والصواب ما روي عن عبدالله بن عباس من أن معنى الآية نزول عيسى عليه السلام في أخر الزمان، وأن نزوله في ذلك الوقت، علامة على قرب الساعة، والمراد بالساعة هنا: القيامة.

قال ابن إسحاق: والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، وكان من أشراف القوم وممن يُستمع منه، فكان يصيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرد عليه، فأنزل الله تعالى فيه: {وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ}.. إلى قوله تعالى: {عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ}. [القلم]، ولم يقل: {زَنِيمٍ}. لعيب في نسبه، لأن الله لا يعيب أحدا بنسب، ولكنه حقق بذلك نعته ليُعرف. والزنيم: العديد للقوم.

قلت: الزنيم، هو الملصق بالقوم وليس منهم.

والوليد بن المغيرة، قال: أيُنزَّل على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين، فأنزل الله تعالى فيه، فيما بلغني: {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}.. إلى قوله تعالى: {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}. [الزخرف].

وأبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وعقبة بن أبي معيط، وكانا متصافيين، حَسَنا ما بينهما. فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه، فبلغ ذلك أبيا، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغني أنك جالست محمدا وسمعت منه، قال: وجهي من وجهك حرام أن أكلمك - واستغلظ من اليمين - إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه. ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي معيط لعنه الله. فأنزل الله تعالى فيهما: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا}.. إلى قوله تعالى: {لِلإِنسَانِ خَذُولا}. [الفرقان].

ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظمٍ بالٍ قد ارْفتَّ، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرمّ، ثم فتَّه في يده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار. فأنزل الله تعالى فيه: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ}. [يس].

واعترض رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وهو يطوف بالكعبة – فيما بلغني – الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه.فأنزل الله تعالى فيهم: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}. [الكافرون]. أي إن كنتم لا تعبدون الله، إلا أن أعبد ما تعبدون، فلا حاجة لي بذلك منكم، لكم دينكم جميعا، ولي ديني.

وأبو جهل بن هشام، لما ذكر الله عز وجل شجرة الزقوم تخويفا بها لهم، قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنَّها تزقما.فأنزل الله تعالى فيه: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ}. [الدخان]. أي ليس كما يقول. وأنزل الله تعالى فيه: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا}. [الإسراء].

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، و رسول الله عليه و سلم يكلمه، وقد طمع في إسلامه، فبينا هو في ذلك، إذ مر به ابن أم مكتوم الأعمى، فكلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وجعل يستقرئه القرآن، فشق ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد، وما طمع فيه من إسلامه. فلما أكثر عليه

انصرف عنه عابسا وتركه. فأنزل الله تعالى فيه: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى}.. إلى قوله تعالى: {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ}. [عبس]. أي إنما بعثتك بشيرا ونذيرا، لم أخص بك أحدا دون أحد، فلا تمنعه ممن ابتغاه، ولا تتصدينّ به لمن لا يريده.

قال ابن هشام: ابن أم مكتوم، أحد بني عامر بن لؤي، و اسمه عبدالله، و يقال: عمرو.

رجوع بعض المهاجرين إلى مكة

عن عبدالله بن مسعود قال: قرأ النبي صلى الله عليه وسلم النجم بمكة، فسجد فيها، وسجد من معه، غير شيخ أخذ كفا من حصى أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا.

رواه البخاري.

وعن عبد الله بن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة والنجم، قال: فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا، وهو أمية بن خلف

رواه البخاري.

قلت: وإنما سجدوا، لعِظم القرآن وقوّته، في الفصاحة والبلاغة والبيان، فرآهم بعض قريش، فظنهم اسلموا، وذهب في الناس يخبرهم، وظهر في الناس أن قريشا أسلمت، فتناقل الناس هذا الخبر، حتى بلغ من بأرض الحبشة من قريش وحلفائها.

قال ابن إسحاق: وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفيا. فكان ممن قدم عليه مكة منهم، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، فشهد معه بدرا و أحدا، و من حُبس عنه حتى فاته بدر وغيره، ومن مات بمكة منهم من بني عبد شمس بن عبد مناف بن قصي: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو. ومن حلفائهم: عبدالله بن جحش بن رئاب.ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان، حليف لهم، من قيس ابن عيلان. ومن بني أسد بن عبدالعزى بن قصي: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد. ومن بني عبدالدار بن قصي: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، بن

عبدالدار. وسُويبط بن سعد بن حرملة. ومن بني عبد بن قصي: طُليب بن عمير بن وهب بن عبد. ومن بني زهرة بن كلاب: عبدالرحمن بن عوف بن عبدعوف بن عبد ابن الحارث بن زهرة، والمقداد بن عمرو، حليف لهم، وعبدالله بن مسعود، حليف لهم. ومن بني مخزوم بن يقظة: أبو سلمة بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، معه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وشماس بن عثمان بن الشريد بن سويد بن هرمي بن عامر بن مخزوم. وسلمة بن هشام بن المغيرة، حبسه عمه بمكة، فلم يقدم إلا بعد بدر وأحد والخندق، وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة، هاجر معه إلى المدينة، ولحق به أخواه لأمه: أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام، فرجعا به إلى مكة فحبساه بها حتى مضى بدر وأحد والخندق. ومن حلفائهم: عمار بن ياسر، يُشك فيه، أكان خرج إلى الحبشة أم لا؟ ومعتب بن عوف بن عامر من خزاعة. ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب: عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح. وابنه السائب بن عثمان، وقدامة بن مظعون، وعبدالله بن مظعون. ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب: خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي، وهشام بن العاص بن وائل، حبس بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حتى قدم بعد بدر وأحد والخندق. ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة، حليف لهم، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن حذافة بن غانم. ومن بني عامر بن لؤي: عبدالله بن مخرمة بن عبدالعزى بن أبي قيس: وعبدالله بن سهيل بن عمرو، وكان حبس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة، حتى كان يوم بدر، فانحاز من المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد معه بدرا، وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبدالعزى، معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، والسكران بن عمرو بن عبد شمس، معه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس، مات بمكة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأته سودة بنت زمعة. ومن حلفائهم: سعد بن خولة. ومن بني الحارث بن فهر: أبو عبيدة بن الجراح، وهو عامر بن عبدالله ابن الجراح، وعمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد، وسهيل بن بيضاء، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال، وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال.فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا.

قال ابن إسحاق: وبنو هاشم وبنو المطلب في منزلهم الذي تعاقدت فيه قريش عليهم في الصحيفة التي كتبوها، ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حُبيب بن نصر بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشام لبني هاشم واصلا، وكان ذا شرف في قومه، فكان – فيما بلغني – يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا، قد أوقره طعاما، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به قد أوقره بزا، فيفعل به مثل ذلك.

قال ابن إسحاق: ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدا، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها، قال: قد وجدت رجلا، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: أبغنا رجلا ثالثا. فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه، أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سراعا، قال: ويحك، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيا، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال: أبغنا ثالثا، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: أبغنا رابعا. فذهب إلى البختري بن هشام، فقال له نحوا مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يُعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: أبغنا خامسا. فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له:

وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم. فاتعدوا خَطْم الحجون ليلا بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك. فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل: وكان في ناحية المسجد: كذبت والله ولا تشق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها، قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، تُشُوْوِرَ فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا "باسمك اللهم". وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة. فشُلّت يده فيما يزعمون.

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب: يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذبا دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزادهم ذلك شرا. فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما يرى من قومه، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه. وجعلت قريش، حين منعه الله منهم، يحذّرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب.وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يُحدِّث: أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنّ منه شيئا. قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا فَرَقا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة. قال: فقمت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله. قال: فسمعت كلاما حسنا. قال: فقلت في نفسي: واثُكْل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته. قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولا حسنا، فاعرض علي أمرك. قال: فعرض علي رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه. قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية. قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بِثنيَّة تطلعني على الحاضر وقع نور بين عينيّ مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثْلة وقعت في

وجهي لفراقي دينهم. قال: فتحول فوقع في رأس سوطي. قال: فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية، قال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم. قال: فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخا كبيرا، قال: فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني، قال: ولم يابني؟ قال: قلت: أسلمت وتابعت دين محمد صلى الله عليه وسلم، قال: أي بني، فديني دينك، قال: فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما عُلِّمت. قال: فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه. قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام، فأسلم. قال: ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني، قالت: لم؟ بأبي أنت وأمي، قال: قلت: قد فرق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد صلى الله عليه وسلم، قالت: فديني دينك، قال: قلت: فاذهبي إلى حِما ذي الشَّرى فتطهري منه. قال: وكان ذو الشرى صنما لدوس، وكان الحمى حمى حموه له، وبه وَشَل من ماء يهبط من جبل. قال: فقالت: بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئا، قال: قلت: لا، أنا ضامن لذلك، فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام، فأسلمت. ثم دعوت دوسا إلى الإسلام، فأبطئوا علي، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم، فقال: اللهم اهد دوسا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم. قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن أسلم معي من قومي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس، ثم لحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأَسْهم لنا مع المسلمين. ثم لم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا فتح الله عليه مكة، قال: قلت: يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة حتى أُحرقه.

قال ابن إسحاق: فخرج إليه، فجعل طفيل يوقد عليه النار ويقول:

يا ذا الكفين لست من عُبَّادكا * ميلادنا أقدم من ميلادكا * إني حشوتُ النار في فؤادكا

قال: ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم. فلما ارتدت العرب، خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من طليحة، ومن أرض نجد كلها. ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة، ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة، فقال لأصحابه: إني قد رأيت رؤيا فاعبروها لي، رأيت أن رأسي حُلق، وأنه خرج من فمي طائر، وأنه لقيتْني امرأة فأدخلتني في فرجها، وأرى ابني يطلبني حثيثا، ثم رأيته حُبس عني، قالوا: خيرا، قال: أما أنا والله فقد أولتها، قالوا: ماذا؟ قال: أما حَلْق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني فرجها فالأرض تحفر لي، فأُغيَّب فيها، وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عني، فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني. فقُتل رحمه الله شهيدا باليمامة، وجُرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبل منها، ثم قتل عام اليرموك في زمن عمر شهيدا.

قال ابن إسحاق: وقد كان عدو الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبغضه إياه، وشدته عليه، يذله الله له إذا رآه.

قال ابن إسحاق: حدثني عبدالملك بن عبدالله بن أبي سفيان الثقفي، وكان واعية، قال: قدم رجل من إراش – قال ابن هشام: ويقال: إراشة – بإبل له مكة، فابتاعها منه أبو جهل، فمطله بأثمانها. فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشر قريش، من رجل يؤديني على أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب، ابن سبيل، وقد غلبني على حقي؟ قال: فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس – لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة – اذهب إليه فإنه يؤديك عليه. فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا عبدالله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قِبَلَه، وأنا رجل غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه، يأخذ لي حقي منه، فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقي منه، يرحمك الله، قال: انطلق إليه، وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قام معه. قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه، فانظر ماذا يصنع. قال: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمد، فاخرج إلي، فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة، قد انتقع لونه، فقال: أعط هذا الرجل حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، قال: فدخل، فخرج إليه بحقه، فدفعه إليه. قال: ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال للإراشي: الحق بشأنك، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرا، فقد والله أخذ لي حقي. قال: وجاء الرجل الذي بعثوا معه، فقالوا: ويحك! ماذا رأيت؟ قال: عجبا من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه روحه، فقال له: أعط هذا حقه، فقال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فخرج إليه بحقه، فأعطاه إياه. قال: ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: ويلك! ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط! قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب علي بابي، وسمعت صوته، فملئت رعبا، ثم

خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل، ما رأيت مثل هامته، ولا قصرته، ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني.

خبر ركانة مع النبي صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار، قال: كان ركانة بن عبديزيد بن هاشم بن عبدالمطلب بن عبدمناف أشد قريش، فخلا يوما برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ركانة، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟ قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق؟ قال: نعم، قال: فقم حتى أصارعك.

قال: فقام إليه ركانة يصارعه، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئا، ثم قال: عد يا محمد، فعاد فصرعه، فقال: يا محمد، والله إن هذا للعجب، أتصرعني! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه، إن اتقيت الله واتبعت أمري، قال: ما هو؟ قال: أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني، قال: ادعها، فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فقال لها: ارجعي إلى مكانك. قال: فرجعت إلى مكانها.

قال: فذهب ركانة إلى قومه، فقال: يا بني عبدمناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله ما رأيت أسحر منه قط، ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع.

قلت: ويقال أن الذي صارع النبي صلى الله عليه وسلم هو يزيد بن ركانه، فوهم الراوي، والذي عليه أكثر الروايات أنه ركانه، وزعم بعض الرواة أن ذلك وقع زمن الفتح، وهذا باطل، بل وقع قبل هجرة النبي، وقريش له مباعدون، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقبل زمن الفتح، إلّا الإسلام، ولم يكن يخيّر الناس.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب، وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا. فأنزل الله تعالى فيهم: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. [الأنعام].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما بلغني – كثيرا ما يجلس عند المروة إلى مَبْيَعة غلام نصراني، يقال له: جبر، عبد لبني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يُعلِّم محمدا كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بنى الحضرمي. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}. [النحل].

قال ابن إسحاق: وكان العاص بن وائل السهمي – فيما بلغني – إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه، فأنزل الله في ذلك: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}. [الكوثر]. ما هو خير لك من الدنيا وما فيها. والكوثر: العظيم.

قال ابن إسحاق: حدثني جعفر بن عمرو، عن عبدالله بن مسلم أخي محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل له: يا رسول الله، ما الكوثر الذي أعطاك الله؟ قال: نهر كما بين صنعاء إلى أيلة، آنيته كعدد نجوم

السماء، ترده طيور لها أعناق كأعناق الإبل. قال: يقول عمر بن الخطاب: إنها يا رسول الله لناعمة، قال: آكلها أنعم منها.

قال ابن إسحاق: وقد سمعت في هذا الحديث أو غيره أنه قال صلى الله عليه وسلم: من شرب منه لا يظمأ أبدا.

قال ابن إسحاق: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ إليهم، فقال له زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغوث، وأبيّ بن خلف، والعاص بن وائل: لو جُعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويُرى معك! فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: {وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ}. [الأنعام].

قال ابن إسحاق: ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني - بالوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وبأبي جهل بن هشام، فهمزوه واستهزئوا به، فغاظه ذلك. فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من أمرهم: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ}. [الأنعام].

خبر المستهزئين

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله تعالى صابرا محتسبا، مؤديا إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء.وكان عظماء المستهزئين، كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، خمسة نفر من قومهم، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم. من بني أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب: الأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما بلغني – قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به، فقال: اللهم أَعمِ بصره، وأثكله ولده. ومن بني زهرة بن كلاب: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة: الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم. ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب: العاص بن وائل بن هشام. ومن بني خزاعة: الحارث بن الطُّلاطِلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن لؤي بن ملكان. فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء، أنزل الله تعالى عليه: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}. [الحِجر].

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعمي. ومر به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه فمات منه حبنا. ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، كان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يجر سبله، وذلك أنه مر برجل من خزاعة وهو يريش نبلا له، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش في رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص رجله وخرج على حمار له يريد الطائف، فربض به على شُبارقة، فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخض قيحا، فقتله.

قال ابن إسحاق: فلما حضرت الوليد الوفاة دعا بنيه، وكانوا ثلاثة: هشام بن الوليد، والوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد، فقال لهم: أي بني، أوصيكم بثلاث، فلا تضيعوا فيهن دمي في خزاعة فلا تَطُلُّنَّه، والله إني لأعلم أنهم منه برآء، ولكني أخشى أن تُسبوا به بعد اليوم، ورباي في ثقيف، فلا تدعوه حتى تأخذوه، وعُقري عند أبي أُزيهر، فلا يفوتنكم به. وكان أبو أزيهر قد زوجه بنتا، ثم أمسكها عنه، فلم يُدخلها عليه حتى مات. فلما هلك الوليد بن المغيرة، وثب بنو مخزوم على خزاعة يطلبون منهم عَقْل الوليد، وقالوا: إنما قتله سهم صاحبكم - وكان لبني كعب حلف من بني عبدالمطلب بن هاشم - فأبت عليهم خزاعة ذلك، حتى تقاولوا أشعارا، وغلظ بينهم الأمر - وكان الذي أصاب الوليد سهمه رجلا من بني كعب بن عمرو، من خزاعة.. ثم إن الناس ترادوا وعرفوا أنما يخشى القوم السُّبة، فأعطتهم خزاعة بعض العقل، وانصرفوا عن بعض.. ثم لم ينته الجون بن أبي الجون – رجل من بني كعب من خزاعة - حتى افتخر بقتل الوليد، وذكر أنهم أصابوه، وكان ذلك باطلا. فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك ما حذره.

قال ابن إسحاق: ثم عدا هشام بن الوليد على أبي أزيهر، وهو بسوق ذي المجاز، وكانت عند أبي سفيان بن حرب عاتكة بنت أبي أزيهر - وكان أبو أزيهر رجلا شريفا في قومه - فقتله بعُقر الوليد الذي كان عنده، لوصية أبيه إياه، وذلك بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومضى بدر، وأُصيب به من أصيب من أشراف قريش من المشركين، فخرج يزيد بن أبي سفيان، فجمع بني عبدمناف، وأبو سفيان بذي المجاز، فقال الناس: أُخفِر أبو سفيان في صهره، فهو ثائر به. فلما سمع أبو سفيان بالذي صنع ابنه يزيد - وكان أبو سفيان رجلا حليما منكرا، يحب قومه حبا شديدا - انحط سريعا إلى مكة، وخشي أن يكون بين قريش حدث في أبي أزيهر، فأتى ابنه وهو في الحديد، في قومه من بني عبد مناف والمطيبين، فأخذ الرمح من يده، ثم ضرب به على رأسه ضربة هده منها، ثم قال له: قبحك الله! أتريد أن تضرب قريشا بعضهم ببعض في رجل من دوس. سنؤتيهم العقل إن قبلوه، وأطفأ ذلك الأمر.

قال ابن إسحاق: ولما أسلم أهل الطائف كلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في ربا الوليد، الذي كان في ثقيف، لما كان أبوه أوصاه به. فذكر لي بعض أهل العلم أن هؤلاء الآيات من تحريم ما بقي من الربا بأيدي الناس نزلن في ذلك من طلب خالد الربا: {يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}. [البقرة]. إلى آخر القصة فيها.

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها، وبهلك عمه أبي طالب، وكان له عضدا وحرزا في أمره، ومنعة وناصرا على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين.

قال ابن إسحاق: ولما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فيأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا.

قال ابن إسحاق: فحدثني العباس بن عبدالله بن معبد بن عباس عن بعض أهله، عن ابن عباس، قال: مشوا إلى أبي طالب فكلموه، وهم أشراف قومه: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: يا ابن أخي: هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. قال: فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال: فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، إن أمرك لعجب! قال: ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. قال: ثم تفرقوا. فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: والله يا ابن أخي، ما رأيتك سألتهم شططا، قال: فلما قالها أبو طالب طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في إسلامه، فجعل يقول له: أي عم، فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. قال: فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، قال: يا ابن أخي، والله لولا مخافة السبة

عليك وعلي بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. قال: فلما تقارب من أبي طالب الموت قال: نظر العباس إليه يحرك شفتيه، قال: فأصغى إليه بأذنه، قال: فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم أسمع. قال: وأنزل الله تعالى في الرهط الذين كانوا قد اجتمعوا إليه، وقال لهم ما قال، وردوا عليه ما ردوا: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}. [ص].. إلى قوله تعالى: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ}. - يعنون النصارى، لقولهم: {إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ}. [المائدة]. - {إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ}. [ص]. ثم هلك أبو طالب.

قال ابن إسحاق: فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا.

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، قال: لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك التراب، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها: لا تبكي يا بُنَيِّة، فإن الله مانع أباك. قال: و يقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئا أكرهه، حتى مات أبو طالب.

عن عائشة ا قالت: لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: من؟ قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً. قال: فمن البكر؟ قالت أحب خلق الله إليك، عائشة ابنة أبي بكر. قال: ومن الثيب؟ قالت سودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك. قال: فاذهبي فاذكريهما علي. فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة، قالت: انظري أبا بكر حتى يأتي. فجاء أبو بكر فقلت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة. قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه. فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له قال: ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام وابنتك تصلح لي. فرجعت فذكرت ذلك له قال: انتظري، وخرج. قالت أم رومان: إن مطعم بن عدى قد ذكرها على ابنه، ووالله ما وعد أبو بكر وعدا قط فأخلفه. فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الصبي. فقالت: يا ابن أبي قحافة لعلك مصبئ صاحبنا تدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟! فقال أبو بكر للمطعم بن عدي أقول هذه تقول؟ قال: إنها تقول ذلك. فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعده. فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدعته فزوجها إياه، وعائشة يومئذ بنت ست سنين. ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ما أدخل الله عليك من الخير والبركة؟! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطبك إليه. قالت: وددت، ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له، وكان شيخا كبيرا قد أدركه السن قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فحييته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قالت: خولة بنت حكيم. قال: فما شأنك؟ قالت: أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة. فقال: كفء كريم، ما تقول صاحبتك؟ قالت: تحب ذلك. قال ادعيها إلي. فدعتها قال: أي بنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أن أزوجك به؟ قالت:

نعم. قال: ادعيه لي. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها إياه. فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج، فجاء يحثي على رأسه التراب. فقال بعد أن أسلم: لعمرك إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة!.. الحديث.

رواه أحمد.

وعبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب امرأة من قومه يقال لها سودة وكانت مصيبة، كان لها خمس صبية- أو ست- من بعلها مات. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يمنعك مني؟ قالت والله يا نبي الله ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إلي، ولكني أكرمك أن يمنعوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية. قال فهل منعك مني غير ذلك؟ قالت: لا والله، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحمك الله إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل، صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل بذات يده. قلت وكان زوجها قبله عليه السلام السكران بن عمرو أخو سهيل بن عمرو، وكان ممن أسلم وهاجر إلى الحبشة كما تقدم، ثم رجع إلى مكة فمات بها قبل الهجرة رضى الله عنه.

رواه أحمد.

قالت: وهذا يقتضي، أن عقده على عائشة كان متقدما على تزويجه بسودة بنت زمعة، ولكن دخوله على سودة كان بمكة.

أشدّ يوم لقيه النبي صلى الله عليه وسلم

روى البخاري ومسلم عن عائشة ا قالت: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبدياليل بن عبدكلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا.

قلت: وبعض المؤرخين، يزعم أن ابن عبدياليل هذا اسمه كِنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عُمير بن عوف بن عُقْدة بن غِيَرَة بن عوف، وأنه كان من سادات ثقيف، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عرض نفسه عليه لما قدم الطائف، وهذا كله خلاف الحديث، فإن النبي ذكر أن اسم أبي عبدياليل هو عبدكلال، وليس عمرو، وأنه من قوم عائشة ا، أي: من قبيلة قريش، وليس من قبيلة ثقيف، وأنه قابله في يوم أسماه النبي صلى الله عليه وسلم يوم العقبة، وعرض نفسه عليه، ليقوم بنصرته وتأييده، فأعرض عنه، مما دفعه إلى الخروج من مكة مهموما حزينا، فلم يستفق إلّا وهو بقرن الثعالب، وهو موضع بين مكة والطائف، في صحراء تدعى البوباة، وتعرف اليوم باسم: البُهيتاء، وهناك أرسل الله تعالى له ملك الجِبال، ليأمره في أهل مكة بما يشاء، تطييباً لخاطر النبي صلى الله عليه وسلم.

خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده.

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا. لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله صلى عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم – فيما ذكر لي –: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغَ قومَه عنه، فيُذْئِرهم ذلك عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حَبَلة من عنب، فجلس فيه. وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما ذكر لي – المرأة التي من بني جمح، فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك! فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال – فيما ذكر لي – اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت

له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك. قال: فلما رآه ابنا ربيعة، عتبة وشيبة، وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده، قال: باسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

قلت: وقول ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم عرض نفسه على عبدياليل بن عمرو بن عمير، هو الذي أوقع الرواة في اللبس، فإنهم لما لم يهتدوا إلى رجل يعرف باسم عبدياليل بن عبدكلال، ووجدوا أن الرواة ذكروا شخصاً في ثقيف اسمه عبدياليل، ظنوا أنه والد ابن عبدياليل، الذي ذكره ابن إسحاق، وبما أن لعبدياليل بن عمرو ولد اسمه كنانة، ظنوا أنه هو الشخص الي عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ليه، وهذا باطل.

وفد جنِّ نصيبين

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعا إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم – فيما ذكر لي – سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. فقص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ}.. إلى قوله تعالى: {وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}. [الأحقاف]. وقال تبارك وتعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ..}. [الجن]. إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة.

قلت: ويقال أنهم كانوا تسعة.

عن عامر، قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب. فقلنا: استطير أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. قال: فقلنا يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم. وفي رواية: إلى قوله: وآثار نيرانهم. ولم يذكر ما بعده.

رواه مسلم والترمذي.

وأما ما يروى من أن ابن مسعود كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ، فهذا باطل، والأحاديث الواردة فيه معلولة الإسناد، والصحيح أن ابن مسعود لم يكن معه، كما ورد في الحديث الصحيح.

وقد أراد ابن قتيبة الدينوري أن يجمع بين الأخبار، فرجّح أن يكون قد سقط من حديث ابن مسعود في قوله: لا، لما سئل: هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ حرف، حيث رجّح أن ابن مسعود قال: لا/ إلّا أنا. فسقط من الخبر قوله: "إلّا أنا".

قلت: وهذا باطل، يرده ما ورد في الحديث الصحيح، من أنه كان ممن خشي على النبي صلى الله عليه وسلم، من أن يكون أغتيل أو أستطير، وأنه كان ممن بات بشر ليلة بات بها قوم، وأنه كان ممن قابل النبي صلى الله عليه وسلم وهو قادم من حِراء.

ولذلك أقول: أن ما روي من الأحاديث في أن ابن مسعود كان مع النبي ليلة الجن، وما ورد في ذلك من تفاصيل غريبة، وأحاديث عجيبة، إنما هي من وضع بعض الرواة وأكاذيبهم.

ويظهر من حديث ابن مسعود، أن أولئك النفر من الجن، الذين استمعوا للنبي صلى الله عليه وسلم ببطن نخلة، عادوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام، فأسلم منهم طائفة، فوفدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة، قد عاد من الطائف، فواعدهم الحجون.

فعن كعب الأحبار أنه قال: لما انصرف النفر التسعة من أهل نصيبين من بطن نخلة، وهم: فلان وفلان وفلان والأرْد وأينان والأحقب، جاءوا قومهم منذرين، فخرجوا بعدُ وافدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثمائة، فانتهوا إلى الحجون، فجاء الأحقب، فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك. فواعده رسول الله صلى الله عليه وسلم لساعة من الليل بالحجون.

قلت: ويظهر لي، أن أسماء الجن، إنما هي من وضع الرواة وزياداتهم على القصص.

وما سبق يدلّ على خلط الرواة بين خبر استماع جن نصيبين، لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم بوادي نخلة، وبين خبر الجن الذين بعثهم إبليس ليعلموا له ما الأمر الذي وقع وحيل بسببه بينهم وبين استراق السمع من السماء.

عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل

قال ابن إسحاق: ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلا مستضعفين، ممن آمن به. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به.

قال ابن إسحاق: فحدثني من أصحابنا، من لا أتهم، عن زيد بن أسلم، عن ربيعة بن عباد الديلي، أو من حدثه أبو الزناد عنه، وحدثني حسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس، قال: سمعت ربيعة بن عباد، يحدثه أبي، قال: إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أُبين عن الله ما بعثني به. قال: وخلفه رجل أحول وضيء، له غديرتان، عليه حلة عدنية. فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه. قال: فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبدالعزى بن عبدالمطلب، أبو لهب .

قال ابن إسحاق: حدثنا ابن شهاب الزهري: أنه أتى كندة في منازلهم، وفيهم سيد لهم يقال له: مُليح، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله بن حصين: أنه أتى كلبا في منازلهم، إلى بطن منهم يقال لهم: بنو عبدالله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: يا بني عبدالله، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أصحابنا عن عبدالله بن كعب بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليهم ردا منهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم – يقال له: بَيْحرة بن فراس: والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، قال: فقال له: أفتُهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه. فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يُوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا اليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبدالمطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا. قال: فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف، هل لذُناباها من مطلب، والذي نفس فلان بيده، ما تقوَّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم.

قال ابن هشام: فراس بن عبدالله بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف، إلا تصدى له، فدعا إلى الله، وعرض عليه ما عنده.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، ثم الظفري عن أشياخ من قومه، قالوا: قدم سويد بن صامت، أخو بني عمرو بن عوف، مكة حاجا أو معتمرا، وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم: الكامل، لجلده وشعره وشرفه ونسبه، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان – يعني حكمة لقمان – فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعرضها علي، فعرضها عليه، فقال له: إن هذا لكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى علي، هو هدى ونور.فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا لقول حسن. ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قُتل وهو مسلم. وكان قتله قبل يوم بعاث.

قال ابن إسحاق: وحدثني الحصين بن عبدالرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن محمود بن لبيد، قال: لما قدم أبو الحَيْسر، أنس بن رافع، مكة ومعه فتية من بني عبدالأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأنزل علي الكتاب. قال: ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: فقال إياس بن معاذ، وكان غلاما حدثا: أي قوم، وهذا والله خير مما جئتم له. قال: فيأخذ أبو الحيسر، أنس بن رافع، حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا. قال: فصمت إياس، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج. قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك. قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه عند موته: أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلما، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع.

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه، قالوا: لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.

قال ابن إسحاق: وهم – فيما ذُكِر لي –: ستة نفر من الخزرج، منهم من بني النجار – وهو تيم الله – ثم من بني مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن عمرو بن عامر: أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وهو أبو أمامة، وعوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار، وهو ابن عفراء.

قال ابن هشام: وعفراء بنت عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار.

قال ابن إسحاق: ومن بني زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق.

قال ابن هشام: ويقال: عامر بن الأزرق.

قال ابن إسحاق: ومن بني سَلِمة بن سعد بن علي بن ساردة بن تزيد ابن جشم بن الخزرج، ثم من بني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة: قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد.

قال ابن هشام: عمرو بن سواد، وليس لسواد ابن يقال له: غنم.

قال ابن إسحاق: ومن بني حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة: عقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام. ومن بني عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة: جابر بن عبدالله ابن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد. فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بيعة العقبة الأولى

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعقبة. قال: وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب. منهم من بني النجار، ثم من بني مالك بن النجار: أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وهو أبو أمامة، وعوف، ومعاذ، ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار، وهما ابنا عفراء. ومن بني زريق بن عامر: رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق. ومن بني عوف بن الخزرج، ثم من بني غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وهم القواقل: عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم، وأبو عبدالرحمن، وهو يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم بن عمرو بن عمارة، من بني غُصينة، من بلي، حليف لهم. ومن بني سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج، ثم من بني العجلان بن زيد بن غنم بن سالم: العباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان. ومن بني سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، ثم من بني حرام بن كعب بن غنم بن سلمة: عقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام. ومن بني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة: قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد. وشهدها من الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني عبدالأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: أبو الهيثم بن التَّيِّهان، واسمه مالك. ومن بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس: عويم بن ساعدة.

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب، عن أبي مرثد بن عبدالله اليزني، عن عبدالرحمن بن عسيلة الصنابحي، عن عبادة بن الصامت، قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلا، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه

من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا، فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر.

قال ابن إسحاق: وذكر ابن شهاب الزهري، عن عائذ الله بن عبدالله الخولاني أبي إدريس، أن عبادة بن الصامت حدثه أنه قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأُخذتم بحده في الدنيا، فهو كفارة له، وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غفر.

قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار بن قصي، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يُسمَّى المقرِىء بالمدينة: مصعب. وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس، أبي أمامة.

قلت: قوله: "فكان يُسمَّى المقرِىء بالمدينة: مصعب" أي: صار كل من يقرئ القرآن في المدينة، يسمونه: مصعب، فصار هذا الاسم، لقبٌ لكل من يقرئ الناس القرآن.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه كان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج، كره بعضُهم أن يؤمه بعض.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه أبي أمامة، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، قال: كنت قائد أبي، كعب بن مالك، حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة، فسمع الأذان بها صلى على أبي أمامة، أسعد بن زرارة.

قال: فمكث حينا على ذلك: لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له. قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعجز، ألا أسأله ما له إذا سمع الأذان للجمعة صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة؟ قال: فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج، فلما سمع الأذان للجمعة صلى عليه واستغفر له. قال: فقلت له: يا أبت، ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على

أبي أمامة؟ قال: فقال: أي بني، كان أول من جمَّع بنا بالمدينة في هزم النبيت، من حرة بني بياضة، يقال له: نقيع الخضمات، قال: قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلا.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقب، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبدالأشهل، ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبدالأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطا من حوائط بني ظفر. قالا: على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، يومئذ سيدا قومهما من بني عبدالأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدما. قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتِّما فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهَّر وتُطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن

خالتك، ليخفروك. قال: فقام سعد مغضبا مبادرا، تخوفا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره – وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان – قال: فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهَّر و تطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير. قال: فلما رآه قومه مقبلا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا و أوصلنا وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعرا لهم قائدا يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق.

قال ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله

صلى الله عليه وسلم العقبة، من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبيه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

قال ابن إسحاق: حدثني معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين، أخو بني سلمة، أن أخاه عبدالله بن كعب، وكان من أعلم الأنصار، حدثه أن أباه كعبا حدثه، وكان كعب ممن شهد العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور، سيدنا وكبيرنا. فلما وجهنا لسفرنا، وخرجنا من المدينة، قال البراء لنا: يا هؤلاء، إني قد رأيت رأيا، فوالله ما أدري، أتوافقونني عليه، أم لا؟ قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البَنِيَّة مني بظهر، يعني الكعبة، وأن أصلي إليها. قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه. قال: فقال: إني لمصل إليها. قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل. قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام، وصلى إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة. قال: وقد كنا عبنا عليه ما صنع، وأبى إلا الإقامة على ذلك. فلما قدمنا مكة قال لي: يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى نسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء، لما رأيت من خلافكم إياي فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنا لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلا من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبدالمطلب عمه؟ قال: قلنا: نعم - قال: و قد كنا نعرف العباس، وكان لا يزال يقدم علينا تاجرا - قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور، سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشاعر؟ قال: نعم. قال: فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البَنِيَّة مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. قال: فرجع البراء إلى قبلة

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، نحن أعلم به منهم.

قال ابن إسحاق: حدثني معبد بن كعب، أن أخاه عبدالله بن كعب حدثه أن أباه كعب بن مالك حدثه، قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة من أوسط أيام التشريق. قال: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة. قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيبا. قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسيبة بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع. قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: يا معشر الخزرج – قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها –: إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم

قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيا، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا، فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر. قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم. قال كعب بن مالك: وقد كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخرجوا إلي منكم اثنى عشر نقيبا، ليكونوا على قومهم بما فيهم. فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

قال ابن هشام: من الخزرج – فيما حدثنا زياد ابن عبدالله البكائي، عن محمد بن إسحاق المطلبي –: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عُدَس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، وسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، وعبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، ورافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق بن عبدحارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، وعبدالله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

قال ابن هشام: هو غنم بن عوف، أخو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

قال ابن إسحاق: وسعد بن عبادة بن دُليم بن حارثة بن أبي حزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، والمنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج – قال ابن هشام: ويقال: ابن

خنيس -. ومن الأوس: أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبدالأشهل، وسعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك ابن كعب بن النحَّاط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السلم بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس، ورفاعة بن عبدالمنذر بن زبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.

قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدون رفاعة.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبدالله بن أبي بكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري، أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأمول، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة، أسعد بن زرارة، كان أول من ضرب على يده، وبنو عبدالأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان.

قال ابن إسحاق: فأما معبد بن كعب بن مالك فحدثني في حديثه، عن أخيه عبدالله بن كعب، عن أبيه كعب بن مالك، قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور، ثم بايع بعدُ القوم. فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب - والجباجب: المنازل - هل لكم في مُذمَّم والصُّباة معه، قد اجتمعوا على حربكم. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: هذا أزبّ العقبة، هذا ابن أَزيب – قال ابن هشام: ويقال ابن أُزيب – أتسمع أي عدو الله، أما والله لأفرغنّ لك. قال: ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارفضُّوا إلى رحالكم. قال: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق: إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا؟ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم. قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا. قال: فلما أصبحنا غدت علينا جِلَّة قريش، حتى جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم. قال: فانبعث مَنْ هناك مِنْ مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض. قال: ثم قام القوم، وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان له جديدان. قال: فقلت له كلمة – كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا –: يا أبا جابر – يريد عبدالله بن عمرو بن حرام – أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من ساداتنا، مثل نعلَيْ هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث، فخلعهما من رجليه ثم رمي بهما إلي، وقال: والله لتنتعلنَّهما. قال: يقول أبو جابر: مه، أحفظت والله الفتى، فاردد إليه نعليه. قال: قلت: والله لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلُبنَّه.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبدالله بن أبي بكر: أنهم أتوا عبدالله بن أبي بن سلول، فقالوا له مثل ما قال كعب من القول، فقال لهم: و الله إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوَّتوا علي بمثل هذا، وما علمته كان. قال: فانصرفوا عنه. قال: ونفر الناس من منى، فتنطَّس القوم الخبر، فوجدوه قد كان، وخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو، أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيبا. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بِنِسْع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجُمَّته، وكان ذا شعر كثير. قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علي نفر من قريش، فيهم رجل وضيء أبيض، شعشاع، حلو من الرجال. قال: فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير، فعند هذا، قال: فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة. قال: فقلت في نفسي: لا والله ما عندهم

بعد هذا من خير. قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن كان معهم، فقال: ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: قلت: بلى والله، لقد كنت أُجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبدمناف تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، قال: ويحك ! فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا، قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق والله، إن كان ليجير لنا تجارنا، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده. قال: فجاءا فخلَّصا سعدا من أيديهم، فانطلق. وكان الذي لكم سعدا، سهيل بن عمرو، أخو بني عامر بن لؤي.

قال ابن هشام: وكان الرجل الذي أوى إليه، أبا البَختري بن هشام.

قال ابن إسحاق: وكانت بيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال شروطا سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن أبيه الوليد، عن جده عبادة بن الصامت، وكان أحد النقباء، قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعه الحرب - وكان عبادة من الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى على بيعة النساء - على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

قال ابن إسحاق: وهذا تسمية من شهد العقبة، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها من الأوس والخزرج، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين.

قال ابن إسحاق: شهدها من الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني عبدالأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن الأوس: أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبدالأشهل، نقيب لم يشهد بدرا. وأبو الهيثم بن التيهان، واسمه مالك، شهد بدرا. وسلمة بن سلامة بن وقش بن زغبة بن زعُوراء بن عبدالأشهل، شهد بدرا، ثلاثة نفر. ومن بنى حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: ظُهير بن رافع بن عدي بن زيد بن جشم بن حارثة. وأبو بردة بن نيار، واسمه هانئ بن نيار بن عمرو بن عبيد بن كلاب بن دهمان بن غنم بن ذبيان بن هميم بن كامل بن ذهل بن هني بن بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، حليف لهم، شهد بدرا. ونهُير بن الهيثم، من بني نابي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس، ثم من آل السوّاف بن قيس بن عامر بن نابي بن مجدعة بن حارثة. ثلاثة نفر. ومن بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس: سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن النحَّاط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السلم بن امرىء القيس بن مالك بن الأوس، نقيب، شهد بدرا، فقُتل به مع رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيدا.

قال ابن هشام: ونسبه ابنُ إسحاق في بني عمرو بن عوف، وهو من بني غنم بن السلم، لأنه ربما كانت دعوة الرجل في القوم، ويكون فيهم فيُنسب إليهم.

قال ابن إسحاق: ورفاعة بن عبدالمنذر بن زنبر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو، نقيب، شهد بدرا. وعبدالله بن جبير بن النعمان بن أمية بن البُرَك – واسم البرك: امرؤ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس – شهدا بدرا، وقتل يوم أحد شهيدا أميرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة – ويقال: أمية بن البَرْك، فيما قال ابن هشام – ومعن بن عدي بن الجد بن العجلان بن حارثة بن ضبيعة، حليف لهم من بلي، شهد بدرا وأحدا والخندق، ومشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها، قتل يوم اليمامة شهيدا في خلافة أبي بكر الصديق وعُويم بن ساعدة، شهد بدرا وأحدا والخندق. خمسة نفر. فجميع من شهد العقبة من الأوس أحد عشر رجلا. وشهدها من الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني النجار، وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج: أبو أيوب، وهو خالد بن

زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار شهد بدرا وأحدا والخندق، والمشاهد كلها، مات بأرض الروم غازيا في زمن معاوية بن أبي سفيان. ومعاذ بن الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار، شهد بدرا وأحدا والخندق، والمشاهد كلها، وهو ابن عفراء. وأخوه عوف بن الحارث، شهد بدرا وقتل به شهيدا، وهو لعفراء. وأخوه معوّذ بن الحارث، شهد بدرا وقتل به شهيدا، وهو الذي قتل أبا جهل بن هشام بن المغيرة، وهو لعفراء – ويقال: رفاعة بن الحارث بن سواد، فيما قال ابن هشام – وعمارة بن حزم بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار، شهد بدرا وأحدا والخندق، والمشاهد كلها، قتل يوم اليمامة شهيدا في خلافة أبي بكر الصديق وأسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، نقيب، مات قبل بدر ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يُبنى، وهو أبو أمامة. ستة نفر. ومن بني عمرو بن مبذول – ومبذول: عامر بن مالك بن النجار –: سهل بن عتيك بن نعمان بن عمرو بن عتيك بن عمرو، شهد بدرا. رجل. ومن بني عمرو بن مالك بن النجار، وهم بنو حديلة – قال ابن هشام: حديلة: بنت مالك بن زيد مناة بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج – أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار، شهد بدرا. وأبو طلحة، وهو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار، شهدا بدرا. رجلان. ومن بني مازن بن النجار، قيس بن أبي صعصعة، واسم أبي صعصعة: عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن، شهد بدرا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعله على الساقة يومئذ. وعمرو بن غزية بن عمرو بن ثعلبة بن خنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن. رجلان. فجميع من شهد العقبة من بني النجار أحد عشر رجلا.

قال ابن هشام: عمرو بن غزية بن عمرو بن ثعلبة بن خنساء، هذا الذي ذكره ابن إسحاق، إنما هو غزية بن عمرو بن عطية بن خنساء.

قال ابن إسحاق: ومن بَلْحارث بن الخزرج: سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة ابن كعب بن الخزرج بن الحارث، نقيب، شهد بدرا وقتل يوم أحد شهيدا. وخارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك الأغر

بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث، شهد بدرا وقتل يوم أحد شهيدا. وعبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة ين كعب بن الخزرج بن الحارث، نقيب، شهد بدرا وأحدا والخندق ومشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها، إلا الفتح وما بعده، وقتل يوم مؤتة شهيدا أميرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وبشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس بن زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث، أبو النعمان بن بشير، شهد بدرا. وعبدالله بن زيد بن ثعلبة ابن عبدالله بن زيد مناة بن الحارث بن الخزرج، شهد بدرا، وهو الذي أُري النداء للصلاة، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر به. وخلاّد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج، شهد بدرا وأحدا والخندق، وقتل يوم بني قريظة شهيدا، طُرحت عليه رحى من أُطُم من أطامها فشدخته شدخا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما يذكرون –: إن له لأجر شهيدين. وعقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أُسيرة بن عُسيرة بن جِدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج، وهو أبو مسعود، وكان أحدث من شهد العقبة سنا، مات في أيام معاوية، لم يشهد بدرا. سبعة نفر. ومن بني بياضة بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج: زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عدي بن أمية بن بياضة، شهد بدرا. وفروة بن عمرو بن وذفة بن عبيد بن عامر بن بياضة، شهد بدرا. وخالد بن قيس بن مالك بن العجلان بن عامر بن بياضة، شهد بدرا. ثلاثة نفر. ومن بنى زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق، نقيب. وذكوان بن عبدقيس بن خلدة بن مخلَّد بن عامر بن زريق، وكان خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معه بمكة وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة، فكان يقال له: مهاجري أنصاري، شهد بدرا وقتل يوم أحد شهيدا. وعباد بن قيس بن عامر بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق، شهد بدرا. والحارث بن قيس بن خالد بن مخلد بن عامر بن زريق، وهو أبو خالد، شهد بدرا. أربعة نفر. ومن بني سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، ثم من بني عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة: البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم،

نقيب، وهو الذي تزعم بنو سلمة أنه كان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرط له، واشترط عليه، ثم توفي قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. وابنه بشر بن البراء بن معرور، شهد بدرا وأحدا والخندق ومات بخيبر من أكلة أكلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الشاة التي سُمّ فيها – وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين سأل بني سلمة: من سيدكم يا بني سلمة؟ فقالوا: الجدُّ بن قيس، على بخله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأي داء أكبر من البخل ! سيد بني سلمة الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور – وسنان بن صيفي بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد، شهد بدرا، وقتل يوم الخندق شهيدا. والطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان بن عبيد، شهد بدرا، وقتل يوم الخندق شهيدا. ومعقل بن المنذر بن سرح بن خناس بن سنان بن عبيد، شهدا بدرا. و أخوه يزيد بن المنذر، شهد بدرا. ومسعود بن يزيد بن سبيع بن خنساء بن سنان بن عبيد. والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عبيد، شهد بدرا. ويزيد بن حرام بن سبيع بن خنساء بن سنان بن عبيد. وجُبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان بن عبيد، شهد بدرا. والطفيل بن مالك بن خنساء بن سنان بن عبيد، شهد بدرا. أحد عشر رجلا. ومن بني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة، ثم من بني كعب بن سواد: كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب. رجل. ومن بني غنم بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة: سليم بن عمرو بن حديدة بن عمرو بن غنم، شهد بدرا. وقطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم، شهد بدرا. وأخوه يزيد بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم، وهو أبو المنذر، شهد بدرا. وأبو اليسر، واسمه كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غنم، شهد بدرا. وصيفي بن سواد بن عباد بن عمرو بن غنم. خمسة نفر. ومن بني نابي بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة: ثعلبة بن غنمة بن عدي بن نابي، شهد بدرا، وقتل بالخندق شهيدا. وعمرو بن غنمة بن عدي بن نابي، وعبس بن عامر بن عدي بن نابي، شهد بدرا. وعبدالله بن أُنيس، حليف لهم من قضاعة. وخالد بن عمرو بن عدي بن نابي. خمسة نفر. ومن بني حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة: عبدالله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام، نقيب، شهد بدرا، وقتل يوم أحد شهيدا، وابنه جابر بن عبدالله. ومعاذ بن عمرو بن الجموح بن يزيد بن حرام، شهد بدرا. وثابت بن الجذع – والجِذع: ثعلبة بن زيد بن الحارث بن

حرام – شهد بدرا، وقتل بالطائف شهيدا. وعمير بن الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن حرام، شهد بدرا.

قال ابن هشام: عمير بن الحارث بن لبدة بن ثعلبة.

قال ابن إسحاق: وخَديج بن سلامة بن أوس بن عمرو بن الفرافر، حليف لهم من بلي. ومعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن كعب بن عمرو بن أدي بن سعد بن علي بن أسد، ويقال: أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، وكان في بني سلمة، شهد بدرا، والمشاهد كلها ومات بعمواس، عام الطاعون بالشام، في خلافة عمر بن الخطاب، وإنما ادعته بنو سلمة أنه كان أخا سهل بن محمد بن الجد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة لأمه. سبعة نفر.

قال ابن هشام: أوس، ابن عباد بن عدي بن كعب بن عمرو بن أُذَن بن سعد.

قال ابن إسحاق: ومن بنى عوف بن الخزرج، ثم من بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج: عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف، نقيب، شهد بدرا والمشاهد كلها.

قال ابن هشام: هو غنم بن عوف، أخو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

قال ابن إسحاق: والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف، وكان ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة، فأقام معه بها، فكان يقال له: مهاجري أنصاري، وقتل يوم أحد شهيدا. وأبو عبدالرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم بن عمرو بن عمّارة، حليف لهم من بني غصينة من بلي. وعمرو بن الحارث بن لبدة بن عمرو بن ثعلبة. أربعة نفر، وهم القواقل. ومن بني سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، وهم بنو الحُبُلِيّ – قال ابن هشام: الحُبُلِيّ: سالم بن غنم بن عوف، وإنما سُمِّي { الحبلي }. لعظم بطنه –: رفاعة بن عمرو بن زيد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن سالم بن غنم، شهد بدرا، وهو أبو الوليد.

قال ابن هشام: ويقال: رفاعة بن مالك، ومالك، ابن الوليد بن عبدالله بن مالك بن ثعلبة بن جشم بن مالك بن سالم.

قال ابن إسحاق: وعقبة بن وهب بن كلَّدة بن الجعد بن هلال بن الحارث بن عمرو بن عدي بن جشم بن عوف بن بهثة بن عبدالله بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان، حليف لهم، شهد بدرا، وكان ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا من المدينة إلى مكة، فكان يقال له: مهاجري أنصاري. ومن بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج: سعد بن عبادة بن دُليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة، نقيب. والمنذر بن عمرو بن خَنيس بن حارثة بن لوذان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن جشم بن الخزرج بن ساعدة، نقيب، شهد بدرا وأحدا، وقتل يوم بئر معونة أميرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كان يقال له: أعنق ليموت. رجلان.

قال ابن هشام: ويقال: المنذر: ابن عمرو بن خنش.

قال ابن إسحاق: فجميع من شهد العقبة من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان منهم، يزعمون أنهما قد بايعتا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء، إنما كان يأخذ عليهن، فإذا أقررن، قال: اذهبن فقد بايعتكن. ومن بنى مازن بن النجار: نُسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن، وهي أم عمارة، كانت شهدت الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهدت معها أختها. وزوجها زيد بن عاصم بن كعب. وابناها: حبيب بن زيد، وعبدالله بن زيد، وابنها حبيب الذي أخذه مسيلمة الكذاب الحنفي، صاحب اليمامة، فجعل يقول له: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أفتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فجعل يقطعه عضوا عضوا حتى مات في يده، لا يزيده على ذلك، إذا ذُكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن به وصلى عليه، وإذا ذكر له مسيلمة قال: لا أسمع، فخرجت إلى اليمامة مع المسلمين، فباشرت الحرب بنفسها. حتى قتل الله مسيلمة، ورجعت وبها اثنا عشر جرحا، من بين طعنة وضربة.

قال ابن إسحاق: حدثني هذ الحديث عنها محمد بن يحيى بن حبان، عن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي صعصعة. ومن بني سلمة: أم منيع، واسمها: أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن عمرو بن غنم بن كعب بن سلمة.

إذن الله تعالى للمسلمين بالقتال

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه، ومن بين معذب في أيديهم، ومن بين هارب في البلاد فرارا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه، فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم، وعذبوا ونفوا من عبده ووحَّده وصدق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم. فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب، وإحلاله له الدماء والقتال، لمن بغى عليهم، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء، قول الله تبارك وتعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}. [الحج]. أي: أني إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظُلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس، إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه م أجميعن، ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ}. أي: حتى لا يُفتن مؤمن عن دينه: {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ..}. [الأنفال] أي: حتى يُعبدالله، لا يعبد معه غيره.

قال ابن إسحاق: فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها. فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين من قريش، من بني مخزوم: أبو سلمة بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، واسمه: عبدالله، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجرا.

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي، إسحاق بن يسار، عن سلمة بن عبدالله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففُرِّقَ بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أُمسي سنة أو قريبا منها حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين

ولدها ! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردَّ بنو عبدالأسد إلي عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبدالدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبُنيَّ هذا، قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذه بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية – وكان أبو سلمة بها نازلا – فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعا إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

قال ابن إسحاق: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة، حليف بني عدي بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن غانم بن عبدالله بن عوف بن عبيد بن عدي بن كعب. ثم عبدالله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، حليف بني أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد – وكان أبو أحمد رجلا ضرير البصر، وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها، بغير قائد، وكان شاعرا، وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمه أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم – فغُلِّقت دار بني جحش هجرة.

قال ابن إسحاق: ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وثقف بن عمرو، وربيعة بن أكثم، والزبير بن عبيد، وتمام بن عبيدة، وسخبرة بن عبيدة، ومحمد بن عبدالله بن جحش. ومن

نسائهم: زينب بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وجذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم، وحمنة بنت جحش.

قال ابن إسحاق: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، حتى قدما المدينة. فحدثني نافع مولى عبدالله بن عمر، عن عبدالله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتعدت، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي، التَّناضِبَ من أضاة بني غفار، فوق سَرِف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفُتن فافتتن. فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابنَ عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله صلى عليه وسلم بمكة، فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، قال: فقال: أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانج عليها. فخرج عليه معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تُعْقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا، ثم قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

قال ابن اسحاق: ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ومن لحق به من أهله وقومه، وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبدالله ابنا سراقة ابن المعتمر وخنيس بن حذافة السهمي –

وكان صهره على ابنته حفصة بنت عمر، فخلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده – وسعيد بن زيد عمرو بن نفيل، وواقد بن عبدالله التميمي، حليف لهم، وخولي بن أبي خولي، ومالك بن أبي خولي، حليفان لهم.

قال ابن هشام: أبو خولي: من بني عجل بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل.

قال ابن إسحاق: وبنو البكير أربعتهم: إياس بن البكير، وعاقل بن البكير، وعامر بن البكير، وخالد بن البكير، وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث، على رفاعة بن عبدالمنذر بن زنبر، في بني عمرو بن عوف بقباء، وقد كان منزل عياش بن أبي ربيعة معه عليه حين قدما المدينة. ثم تتابع المهاجرون، فنزل طلحة بن عبيد الله بن عثمان، وصهيب بن سنان، على خبيب بن إساف، أخي بلحارث بن الخزرج بالسُّنْح. ويقال: بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زرارة، أخي بني النجار.

قال ابن هشام: وذُكر لي عن أبي عثمان النهدي، أنه قال: بلغني أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ربح صهيب، ربح صهيب.

قال ابن إسحاق: ونزل حمزة بن عبدالمطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مرثد كنَّاز بن حصن.

قال ابن هشام: ويقال: ابن حصين – وابنه مرثد الغنويان، حليفا حمزة بن عبدالمطلب.

قال ابن إسحاق: وأنسة، وأبو كبشة، موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم، على كلثوم بن هدم، أخي بني عمرو بن عوف بقباء، ويقال: بل نزلوا على سعد بن خيثمة، ويقال: بل نزل حمزة بن عبدالمطلب على أسعد بن زرارة، أخي بني النجار. كل ذلك يقال. ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخوه الطفيل بن الحارث، والحصين بن الحارث، ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، وسويبط بن سعد بن حريملة، أخو بني عبدالدار، وطليب بن عمير، أخو بني عبد بن قصي، وخباب، مولى عتبة بن غزوان، على عبدالله بن سلمة، أخي بَلْعجلان بقباء. ونزل

عبدالرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخي بلحارث بن الخزرج، في دار بلحارث بن الخزرج. ونزل الزبير بن العوام، وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبدالعزى، على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح بالعصبة، دار بني جحجبى. ونزل مصعب بن عمير بن هاشم، أخو بني عبدالدار على سعد بن معاذ بن النعمان، أخي بني عبدالأشهل، في دار بني عبدالأشهل. ونزل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حذيفة، وعتبة بن غزوان بن جابر على عباد بن بشر بن وقش أخي بني عبدالأشهل، في دار عبدالأشهل.

قال ابن هشام: سالم مولى أبي حذيفة سائبة، لِثُبَيتَة بنت يعار بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، سَيَّبَتْه فانقطع إلى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة فتبناه، فقيل: سالم مولى أبي حذيفة. ويقال: كانت ثُبيتة بنت يعار تحت أبي حذيفة بن عتبة، فأعتقت سالما سائبة. فقيل: سالم مولى أبي حذيفة.

ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر، أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار، فلذلك كان حسان يحب عثمان ويبكيه حين قتل. وكان يقال: نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عزبا، فالله أعلم أي ذلك كان.

المحتويات